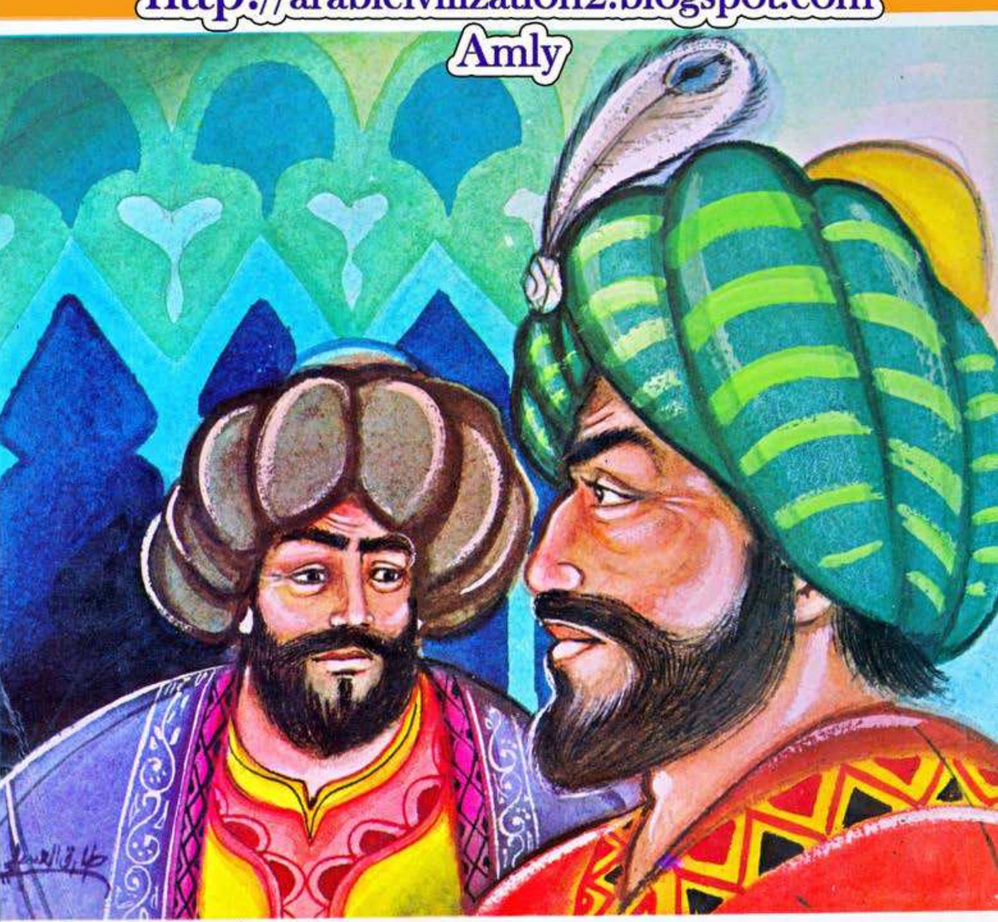
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

السفاح والمنصور



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

السفّاح والمنصُور

روايةٌ تاريخيةٌ أدبيةٌ غراميةٌ

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣



مروان بن محمد

ذكرنا في الجزء الاخير من روايتنا « العاشق المجنون » ان امير المؤمنين هشام بن عبدالله ، استعمل نسيبه مروان بن محمد ، بن مروان بن عبد الملك في السنة الرابعة عشرة بعد المئة ، على ارمينية واذربيجان .

وقد ظل مروان على الطاعة حتى تربع في عرش الخلافة يزيد بن الوليد المعروف بالناقص ، بعد مقتل ابن عمه الوليد بن يزيد كما مرّ .

ولمروان نفس تطمع بالمعالي وتمشي بخطى هادئة الى المجد ؛ فلما تولى يزيد الناقص ، أظهر مروان الخلاف له ، وحمل السيف وهو يظهر الطلب بدم الوليد. غير ان يزيد عرف ان يسترضيه فضمّ اليه الجزيرة والموصل وهي الولاية الكبرى التي كانت لابيه محمد بن مروان ايام امير المؤمنين عبد الملك .

ودار الزمان دورته السريعة ، فقد توفي يزيد الناقص بعد ولاية ستة أشهر وليلتين وقام بالامر بعده اخوه ابرهيم بن الوليد ، وقد قرأت كل ذلك في روايتنا السابقة .

انتهت الخلافة الى ابرهيم ، في السنة السابعة والعشرين بعد المئة ومروان يعلم أن الخليفة الجديد ، ضعيف الارادة والسياسة ليس له مـا للخلفاء الأقوياء من العزيمة والرأي ؛ وأي فرصة يغتنمها مروان احسن من هذه ! بنو امية في فوضى ، واهل الشام في فوضى ، وخليفتهم لا يستطيع لضعفه وخور عزيمته ان يثبت على العرش . وليس من الرأي ان يصبر مروان اكثر مما صبر فقد يخلق الله ما لا يخطر

له ، وقد يستقوي بين ليلة وضحاها هذا الخليفة الضعيف . اجل لقد مهد الزمان لمروان جميع الاسباب التي يبلغ معها غايته فلم يبق الا ان يثب ليستولي على التاج. ومثل مروان لا يتردد في امره .

عرض جنوده في الجزيرة ثم مشى على رأسهم الى الرقة ، بعد ان عهد في الولاية الى ولده عبد الملك ، ثم غادر الرقة الى قنسرين وفيها بشر بن الوليد شقيق امير المؤمنين ابراهيم بن الوليد ومعه اخوه مسرور وعندهما يزيد بن عمر بن هبيرة وحوله قومه ، فدعاهم مروان الى بيعته فلم يجيباه . ولكن يزيد بن هبيرة مال اليه وسار بركابه مع القيسيين يريدون حمص ، وقد أسر مروان نسيبيه بشراً ومسروراً أخوي امير المؤمنين .

وكانت حمص في حالة حرب ، ان اهلها لم يبايعوا ابراهيم ولم يطب لهم ان يدخلوا في طاعته ، فوجه اليهم الخليفة ، عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، في جند من اهل الشام فحاصرهم في مدينتهم وقد اشتد الحصار ، ومروان يتعجل في مسيره ليقاتل عبد العزيز . فلما بلغ حمص رحل عبد العزيز عنها وخرج اهلها يبايعون مروان ، ثم انضموا الى جيشه وساروا جميعهم يريدون خلع ابراهيم .

فقام الناس في دمشق يقولون للخليفة : هذا مروان بن محمد قد اقبل فتهيأ له، فأمر خاصته فأعدوا عدتهم ومشى من دمشق مئة وعشرون الف رجل عليهم سليمان بن هشام بن عبد الملك ، حتى نزلوا مكاناً يقال له عين الجر ونزله مروان بثمانين الفاً .

وعمد مروان الى الدهاء فدعاهم الى الكف عن قتاله واطلاق ابني الوليد الحكم وعثمان وكانا في السجن ، وضمن لهم انه لا يطلب احداً من اولئك الرجال الذين قتلوا الوليد ؛ فاستخفوا بقوله ثم اشهروا السيف .

والتقى الجيشان وكثر القتل بينهما من الصباح الى العصر ، حتى خيل الى مروان ان سليمان بن هشام سيظفر به ، فقال لاحد قواده : سر في ثلاثة آلاف فارس حتى تغيروا على جند الشام من الوراء .

ففعل القائد ما امره به . فلم يشعر سليمان ومن معه الا بالخيل والتكبير من

خلفهم ، فذعروا ثم انهزموا ، ووضع اهـل حمص السلاح فيهم حتى قتلوا سبعة عشر الفاً وأسروا اكثر من عشرة آلاف .

غير ان مروان اطلق الاسرى الا رجلين منهم هما يزيد بن العقاد ، والوليد ابن مصاد الكلبي . وقد بقيا في سجنه حتى هلكا فيه ، وكانا من قتلة الوليد بن يزيد . وهرب يزيد بن خـالد القسري ، فيمن هرب مع سليمان بن هشام ، الى دمشق .

وأتوا الخليفة فاخبروه وعنده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، فقـال بعضهم للبعض الآخر : الرأي ان يقتل ابنـا الوليد قبل ان يخرجهما مروان من السجن ويصير الامر اليهما فانهما لا يستبقيان عندئذ احداً من قتلة ابيهما .

وكان يزيد بن خـالد من هذا الرأي ، فأمر ابا الاسد ، مولى ابيه بقتلهما ، فاخرج يوسف بن عمر فضرب عنقه ، ثم هم بقتل ابي محمد السفياني ، فدخل بيتاً من بيوت السجن واغلقه فلم يقدروا على فتحه ، وعندما ارادوا احراقه ارتفعت أصوات الناس في دمشق تقول : دخلت خيل مروان .

ففر الخليفة ورجال دولته ، وانتهب سليمان بن هشام ما في بيت المال فقسمه في اصحابه ، ثم خرج من المدينة كما خرج امير المؤمنين .

اما عبد العزيز بن الحجاج فلم يهرب ، فمشى موالي الوليد الى داره فقتلوه ، ثم ساروا فاستخرجوا جثة يزيد بن الوليد من القبر ، وصلبوها على باب الجابية ، وأتى مروان بالحكم وعثمان ، وبيوسف بن عمر جثثاً خرساء .

فأمر بدفنهم ، ثم حمل اليه ابو محمد السفياني وهو في قيوده ، فلمـا مثل بين يدي مروان سلم عليه بالخلافة ، فقال مروان : ما هذا يا ابا محمد .. أبالخلافة تسلم علي وانا قـد أخذت البيعة في الجزيرة وقنسرين وحمص لابني الوليد الحكم وعثمان ؟

قال : لقد حملت اليك جثتا الغلامين الساعة وكانا قد جعلا الخلافة لك بعدهما .

— ومن قال لك ذلك ؟

— الحكم نفسه ، فقد قال وهو في السجن ، شعراً حفظته وحفظه النـــاس

وهذا هو :

الا من مبلغ مروان عني وعمي الغمر طال بذا حنينا
باني قد ظلمت وصار قومي على قتل الوليد مشايعينا
أيذهب كلهم بدمي وملكي فلا غثاً اصبت ولا سمينا
ومروان بارض بني نزار كليث الغاب مفترس عرينا
فان اهلك انا وولي عهدي فمروان امير المؤمنينـــا

ثم قال ابو محمد : ابسط يدك ابايعك . فسمعه الناس الذين كانوا مع مروان ، فأقبلوا يبايعونه. وكان معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير اول من بايع ، ثم تبعه اهل حمص واهل دمشق .

فلما استقام له الامر رجع الى منزله بحران وطلب اليه الامان لابراهيم المخلوع وسليمان بن هشام فأمنهما فقدما عليه فبايعاه .

ولم يلبث الناس في الغوطة وفلسطين وحمص حتى خرجوا عن الطاعة ، بل لم يلبث سليمان بن هشام نفسه حتى شهر السيف في وجه مروان . ولكن مروان كان اطول سيفاً فقد استطاع في بضعه اشهر ان يخضع اعداءه ويعيدهم الى طاعته، بعد ان قتل من قتل منهم في ساحات الحرب .

وكان عامل مكة والمدينة والطائف في ذلك العام ، عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وعامل العراق، النصر بن الحرشي، وعلى خراسان نصر بن سيار .

* * *

احزاب الخلافة

ليس من الرأي ان ترى الخلفاء العباسيين على العرش الاموي الا بعد ان تلمس بيــدك جميع الاسباب التي رفعتهم الى هذا العرش . وستقرأ في هذه السطور ، جهــاد الاحزاب والرجال في سبيل الخلافة ، وهوى اصحاب النفوذ والوجاهة من المسلمين ، منذ توفي النبي العربي الكريم الى خلافة بني العباس .

قبل ان يضع الموت يده على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال العباس بن عبد

المطلب ، لابن اخيه، علي بن ابي طالب، كرم الله وجهه والنبي مريض : ادخل وأسأله عن الخليفة بعده فان كانت فينا والا أوصى بنا خليفته ، فأبى علي قائلاً : انه ان منعنا اياها لا ننالها ابداً .

وهذا معناه ، ان فكرة الخلافة ، ترددت في نفوس القوم ، والنبي على فراش الموت . ثم مات النبي فرأى المسلمون بعد اخذ ورد بين المهاجرين والانصار ان يبايعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكانت هنالك طائفة قليلة هواها بني هاشم اهل النبي وليس في بني هاشم من اعمام النبي غير العباس . على ان في القوم من بني اعمامه رجالاً كثاراً سيدهم جميعاً وصاحب الجاه والعلم والفضل فيهم علي ابن ابي طالب .

وعلى رغم سن العباس، لم يكن في بني هاشم، من يؤثره على علي، ابن أخيه ، حتى ان علياً نفسه كان يرى ، وهذ - ق ، انه اجدر الناس بالخلافة بعد رسول الله ، وكذلك كانت ترى زوجته فاطمة . ومن اجل ذلك لم يبايع ابا بكر الا بعد ان ماتت زوجته التي ذكرنا .

ثم مات ابو بكر فبايع المسلمون عمر بن الخطاب ، وكان ابو بكر قد عهد اليه في الخلافة ، ثم مات عمر واستخلف عثمان بن عفان بقرار من رجال الشورى الذين سألهم ابن الخطاب ان يختاروا الخليفة بعد موته . وكان علي يعلم ان هؤلاء الرجال مشوا مع الهوى في اختيار عثمان .

وفي خلافة عثمان مات العباس ولم يعلم ان احداً من بنيه كان يفكر في الخلافة ، حتى قام بعد بضعة اعوام دعاة يطوفون في الكوفة والبصرة ومصر وهم يطعنون في اعمال عثمان ويفكرون في نقل الخلافة الى علي، ثم طعنوا في عثمان نفسه ومشوا بعد ذلك الى المدينة عاصمة الخلافة يشكون الى عثمان عماله ، فلان لهم واقنعهم خوفاً من الفتنة . ولكنهم عادوا الى المدينة بعد ايام ، ومعهم كتاب يقولون انه من عثمان الى عامله في مصر ، يأمره فيه ، بقتل الرجال المصريين ، الذين قدموا عليه ، مع الجماعة الشاكية ، والكتاب مختوم بخاتم عثمان . فلما رآه حلف لهم انه لم يكتبه ولم يأمر احداً بكتابته . فاتهموا بذلك كاتبه ، مروان بن الحكم ،

وسألوه ان يسلمه اليهم ، فلم يرض ، فجاهروه بالعداوة ، وحصروه في داره ، ثم اقتحموا عليه الدار وقتلوه . وخرجت عندئذ شرار الفتنة الكبرى ، التي امست بعد ذلك ، ناراً آكلة .

* * *

انتهت الخلافة الى علي بن ابي طالب ، ولكن خلافة علي لم تخمد النار بل زادتها ضرماً وسعيراً ، والناس جميعهم يعلمون ان حياته على العرش كانت جهاداً عنيفاً بينه وبين معاوية ، اي بين الدين والدنيا ، بين الزهد والطمع ، بين الحق والبطل .

وقد انضم الناس من اهل الشام واليمن والحجاز ومصر الى معاوية يدافعون عنه ويؤثرون خدمته على خدمة علي ، ذلك لان الناس الراغبين في النفوذ والمنصب والمال لم يجدوا في الخليفة الصالح ما يطلبون ، بل وجدوا فيه الحاكم العادل الذي لا تلين قناته ولا يلوى عوده ، والرجل الزاهد الذي كانت حياته كلها لله .

اجل كان علي بن ابي طالب لله بكل ما في هذه الكلمة من معنى متسع لا يأخذ ولا يعطي الا بالحق ولا يخاف غير الخالق عز وجل .

وهذا اخوه عقيل يطلب من بيت المال شيئاً فيقول له علي : ليس لك في هذا المال غير ما اعطيتك، ولكن اصبر حتى يجيء مالي فاعطيك منه ما شئت ، فلم يرض جوابه عقيلاً وقام ففارقه وقصد معاوية في دمشق .

حتى ان ولديه الحسن والحسين لم يكن يعطيهما اكثر مما لهما ؛ وانها لسيرة لا ترضي الطامعين ، وليس فيها غنى ، للراغبين في النفوذ والمال .

نعم فارق الناس علياً ، لزهده وعدله ، ولم يفارقوه لاستخفافه ولهوه . اضف الى ذلك اولئك الخوارج الذين كانوا يقولون : الحكم لله لا للناس ، والذين غضبوا على علي كما غضبوا على معاويه ، اختاروا عبدالله بن ملجم ليقتل علياً .

ذلك هو علي الذي انضم الناس الى عدوه : كان رجل دين ، يؤثر رضى الله على خيرات الدنيا ، وكان حجة في التشريع والفقه ومثالاً للفضيلة والتقوى

والادب ، وحـــاملاً لواء الخلق الاسلامي العالي في سيرته وشجاعته ومروءته ونجدته ، بل كان كما وصفه لمعاوية عدي بن حاتم قال :

« يقول عدلاً ويحكم فصلاً ، تتفجر الحكمة من جوانبه والعـــلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتهـا ويأنس بالليل ووحشته . وكان والله غزير الدمعة طويل الفكر يحاسب نفسه اذا خلا ويقلب كفيه على ما مضى . يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن وكان فينا كأحدنا .

وكان يعظم اهل الدين ويتحبب الى المساكين ، لا يخـاف القوي ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله : فاقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرخى الليل سرباله وغارت نجومه، ودموعه تتحادر على لحيته وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، فكأني الآن اسمعه وهو يقول :

يا دنيا ... أإلي تعرضت ، أم إلي اقبلت ! غري غيري ، فقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها .

ولى علي عماله ثم اغضب بعضهم ففارقوه .

أفلم يكن يعلم كرم الله وجهه انه قادر على استرضاء هؤلاء العمال بالقليل من المال يبذله لهم وبالاغضاء عن السيئات التي يرى !

أفلم يكن يعلم انهم يجودون من اجله بالدماء والأرواح اذا هو ابتسم لهفوتهم وسكت عن قصورهم ونهاهم بالحسنى عما يفعلون !

بل كان يعلم كل ذلك ، ولكنه كان مؤمناً بانه اذا فعل خسر الآخرة والدنيا كلها بما فيها من نفوذ وسلطان وعظمة وزخرف وقوة ومجد .

ان هذه الدنيا كانت في نظر علي متاعاً زائلاً لم يرغب فيه ، ولم يملأ عينه منه. حاسب عماله على كل درهم ودينار ، لم يقبل عذراً ولم يصغ الى شفاعة فتركه ابن عمه عبدالله بن العبـاس بعد ان كان من اعظم انصاره ، وهرب منه مصقلة بن هبيرة الشيباني ويزيد بن حجبة التميمي لاجئين الى معـاوية في الشام ، مدافعين عن ملكه ، يتبعهما الفريق الكبير من العشيرتين .

قال له العبـاس والمغيرة بن شعبة : ان شئت فابق معاوية وعمال عثمان على

اعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ، ثم تعزل منهم من تشاء .

قال : لا اداهن في ديني !

فقيل له : انزع من شئت واترك معاوية ، فان في معاوية جرأة، وهو في اهل الشام يستمع منه .

قال : لا والله لا استعمل معاوية يومين .

وبلغ علياً ان حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يشتمان معاوية ويلعنان اهل الشام فارسل اليهما يقول : كفا عما بلغني عنكما .

فأتياه فقالا : يا امير المؤمنين ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟

قال : كرهت لكم ان تكونوا شتامين لعانين ولكن قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي من لهج به .

الله الله يا علي ... انها اخلاق ملائكة وانبياء ... ولكن هذه الاخلاق لا تفوز في الجهاد السياسي ، وفي السياسة ، الخدعة ، والحيلة والاكاذيب .

* * *

كانت الكوفة داراً لشيعة علي وانصاره ، وفي شيعته طائفة لا تؤثره على معاوية وحسب ، بل تؤثره على الخلفاء الذين تقدموه .

على ان هؤلاء الناس الذين آثروه ترددوا اكثر من مرة في قضاء ما امرهم به ، وقد قرأت شيئاً من ذلك في « لياليك » . فلما قتل رحمه الله بايعت الشيعة ولده الحسن ، ولكن الحسن لم يكن مؤمناً باخلاص انصاره وبقائهم على العهد ، وكان هنالك دهاء معاوية بن ابي سفيان فنزل الحسن عن حقه وتخلى لعدو العلويين عن الخلافة التي انتهت اليه .

فغضبت الشيعة وسعرت نار الثورة على امير الكوفة زياد بن ابيه ، وزياد الذي هو سيف من سيوف معاوية لم يلبث حتى اخمد النار وقتل طائفة من هؤلاء بينهم حجر بن عدي واصحاب حجر ، فايقن الحزب العلوي بانه عاجز عن بلوغ غايته ومعاوية حي وهو على عرشه يشتري الرجال بالمال ويحيطهم بحلمه الفياض،

وآثر الصبر ريثما يخلق الله ما يشدد العزيمة وتهب لهم الايام قوة يسترجعون بهـا الخلافة الى بيت النبي .

وساس معاوية الناس باحسن ما تسوس الملوك الرعية ، يضرب بيمناه ويمسح الدمع بيسراه . وليس له هم الا ان يجعل اساس ملكه ثابت الدعائم، ويرفع هذا الملك الى ذروة المجد والعز .

ذكر المؤرخون ، ان رئيساً من رؤساء العشائر، يقال له ابو منازل ، قال له: أعطيتني سبعين الفـاً وأعطيت الرؤساء الآخرين مئة الف ففضحتني في بني تميم أولست مطاعاً في عشيرتي ؟

فقال معاوية : بلى !

قال : ولماذا فعلت ما فعلت ؟

قال : اشتريت من القوم دينهم .

فقال : وانا فاشتر مني ديني !

فاعطاه ما طلب .

وقد صدق ابو الجهم الشاعر اذ قال :

نميل على جوانبه كأنا   نميل ولا نمين على ابينا
نقلبه لنخبر حـالتيه   فنخبر منها كرماً ولينا

ومن قول معاوية :

لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطت .

قيل له : وكيف ذاك ؟

قال : كنت اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها .

وهل تظن ان غضب معاوية لمقتل عثمان كان أخلاصـاً في عثمانيته ام كان طمعاً بتاج الملك !

أفلم تقرأ حديثه مع عائشة بنت عثمان يوم دخل دار ابيها في المدينة ؟ قالت عائشة : وا أبتاه وبكت .

فقال معاوية : يا ابنة أخي ان الناس اعطونا واعطيناهم اماناً ، واظهرنا لهم حلماً تحته غضب واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره فان نكثنا بهم نكثوا بنا . ولأن تكوني بنت عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين .

ان في هذه الكلمة صورة من صور معاوية .

هدأت الثورة وسكت اشياع علي على غل ، حتى دعا معاوية الناس الى بيعه ابنه يزيد بولاية العهد ، فاضطربت النفوس ، واطلت الثورة من العيون .

ثم تولى يزيد فمشت الثورة بخطى واسعة تصول وتجول في مكة والمدينة والكوفة وخرج الناس في المدن الثلاث عن الطاعة .

قام اهل المدينة ، وعلى رأسهم بعض ابناء الانصار يطلبون عزل يزيد بن معاوية عن العرش ، فأرسل اليهم يزيد مسلم بن عقبة المري ، ففعل العجائب وقتل من قتل في واقعة الحرة ، ولم يرحم احداً ولم يلن لأحد . واعتصم عبدالله ابن الزبير بمكة يطلب الخلافة لنفسه .

وكانت الشيعة من الناحية الاخرى تراسل الحسين بن علي وتدعوه الى الكوفة لتبايعه بالخلافة وتخرج على يزيد . والحسين يعلم ان هؤلاء الناس الذين يدعونه تخلوا من قبل عن أبيه وأخيه وليس لهم مع الاثنين أثر مشكور . ومع ذلك فقد مشى اليهم والامل يملأ صدره وليس له من الجند والمال ما يستعين به على الحادثات وكانت نتيجة امله ان جنود عبيدالله بن زياد قتلوه رحمه الله في كربلاء وجميع هذه الجنود من اهل العراق . . . !

* * *

مات يزيد بن معاوية وتولى مروان بن الحكم ، فظهر في الكوفة حزب علوي يعرف بحزب التوابين ، واستطاع هذا الحزب طرد عبيدالله بن زياد والي الكوفة وتولية رجل شيعي .

وكان عبدالله بن الزبير قد عظم امره وبايعه اهل الحجاز والعراق ومصر ، الا بني هاشم المقيمين بمكة فقد أبوا أن يبايعوه .

على رأس هؤلاء محمد بن علي بن ابي طالب ، المعروف بابن الحنفية ، وعبدالله ابن العباس وغيرهما ، فاضطهدهم ابن الزبير وجعلهم في السجن . وبينا المسلمون على الحال التي رأيت ، ارتفع في العراق صوت رجل لابس ثوب الاخلاص لبني علي ، هو المختار بن ابي عبيد الثقفي ، وجعل يدعو الناس الى الامام المهدي ، محمد بن الحنفية الذي امسى بعد موت اخويه الحسن والحسين اكبر ابناء علي .

على ان المختار لم يكن صادقاً في دعوته ، وكانت غايته الظهور في ارض العراق والوصول الى زعامة تتجه اليها أنظار المسلمين. وقد استطاع ان يضم اليه رؤساء الشيعة في الكوفة كما استطاع ان يخدع الناس لأمد قصير بظاهره الكاذبة.

وكان محمد بن الحنفية عندئذ في سجن مكة ، فبعث اليه جنداً ينقذونه من سجنه . وكان الحظ خادماً له . ولكن عمره كان قصيراً ، فقد سير اليه خليفة الحجاز عبدالله بن الزبير اخاه مصعباً فقضى عليه . ولكنه لم يقض على المنزلة العالية التي تنطبق عليها صدور القوم لآل علي ولم يستطع ان ينتزع من هذه الصدور تشيعها لهؤلاء .

ودار الزمان دورة أخرى فاستقام الامر لعبد الملك بن مروان وقتل مصعب واخوه عبدالله ، ودانت للخليفة المرواني القوي أقاليم الدولة الكثيرة وبلاد العرب في هذا الشرق ونامت الفتن على ان تستيقظ بعد حين .

واي شيء بقي لمحمد بن علي بعد ذلك ؟

لم يبق له ، الا ان يبايع عبد الملك ، ويلجأ الى داره ، في ظل السلام والهدوء ، وهكذا فعل .

غير انه بقي هنالك قوم يرون انه أحق بالخلافة ، وانقسمت الشيعة بعد ذلك الى فرق اعظمها شأناً الفرقة الامامية ، التي ترى أن أبناء علي من فاطمة بنت النبي هم اصحاب الحق ، والأئمة في نظرهم اثنا عشر اماماً هم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضى ، ومحمد الجواد ، وعلي الهادي ، والحسن العسكري ومحمد المهدي .

بنو العباس

العباس وابو طالب اخوان ، أبوهما عبد المطلب بن هاشم ، بن عبد مناف ابن قصي .

وللعباس مقام عـــال في بني هاشم ، فهو من ساداتهم ووجوههم يرجع اليه الناس في حاجاتهم ، وتقوم الوفود ببابه يسألونه قضاء هذه الحاجات .

وكان من الاصدقاء لأبي سفيان بن حرب والد معاوية ، وهو الذي ساعد النبي العظيم في امره حين الهجرة ، وهو القائل للأنصار ليلة البيعة :

« معشر الخزرج ، انكم قد دعوتم محمداً الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من اعز الناس في عشيرته ، يمنعه من كان منا عـــلى قوله ومن لم يكن على قوله ، منعة للحسب والشرف ، وقد ابى محمد الناس كلهم غيركم . فان كنتم اهل قوة وجـلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، فانها سترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم وائتمروا أمركم ، ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع؛ فان احسن الحديث اصدقه » .

فقال عبدالله بن عمر بن حرام : نحن والله اهل الحرب ، غذينا بها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر نرمي بالنبل حتى تفنى، ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر، ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الاعجل منا او من عدونا .

وقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، انا والله لو كان في انفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء ، والصدق ، وبذل المهج دون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وتلا النبي عندئذ القرآن ثم دعاهم الى الله ورغبهم بالاسلام ، فأجاب البراء بالايمان والتصديق ، فبايعهم النبي الكريم على ذلك ، والعباس آخذ بيده يؤكد له البيعة على الأنصار .

ولما خرجت قريش الى حرب النبي يوم بدر ، أخرج العباس اليها كرهاً . ولذلك قال النبي لرجاله في ذلك اليوم : من لقي منكم العبــاس وطالباً وعقيلا

لولوفلا وأبا سفيان فلا تقتلوهم فانهم أخرجوا مكرهين .

وأسر العباس يوم بدر ففدى نفسه ، ثم رجع فأقام بمكة يرسل الى النبي اخبارها ويصف له احوال الناس . ثم كتب اليه يستأذنه في المجيء فأمره النبي بالبقاء .

وبعد قليل هاجر الى المدينة قبل الفتح ، ثم شهد مع الرسول فتح مكة وكان السبب في نجاة ابي سفيان .

وقد قال النبي يومئذ : من دخل دار ابي سفيان فهو آمن .

وكان النبي يحبه ، ويقربه اليه ، كما احبه الخلفاء من بعده . وقد توفي في خلافة عثمان بن عفان، في السنة الثانية والثلاثين للهجرة وعمره ثمان وثمانون سنة، ودفن بالبقيع بحضور وجوه الناس .

وهؤلاء بنو العباس :

الفضل ، وهو بكر اولاده ، وعبدالله وعبيدالله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وكثير وتمام والحارث ، ولم نذكر الاناث وهن ثلاث .

وجد الخلفاء العباسيين ، عبدالله بن العباس ، الذي ملأ بنوه وذريته البلاد. وكثيراً ما ورد ذكره ، في روايات الليالي الاولى ، ايام الخلفاء الراشدين .

عبدالله بن العباس

كان عمر عبدالله يوم توفي النبي ، ثلاث عشرة سنة ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحبه ويستشيره فيما يعرض له ، ويسأله الرأي على صغر سنه ، في كثير من أمور الدولة والفقه . وعبدالله من أعلم الناس بآيات القرآن والفقه في الدين.

فلما حصر عثمان بن عفان، في السنة الخامسة والثلاثين، ولاه الموسم، فأقامه ، ثم بويع علي بن ابي طالب ، كرم الله وجهه ، فكان له خير نصير . وهو الذي ساعد علياً في جميع حروبه ، وقد ولاه علي البصرة . ويقول بعض المؤرخين ، انه تغير على علي ، في آخر عهده ، وترك البصرة الى الطائف . وقيل ان ذلك كان بعد مقتل علي .

وليس في حياته الطويلة في الطائف ، ما يستحق الذكر فقد ظل مقيماً بها ايام معاوية بن أبي سفيان كلها ، ومعاوية يصله ويتودد اليه ، كما كان يفعل مع وجوه الهاشميين . وكانت وفاة عبدالله في السنة الثامنة والستين .

علي بن عبدالله

هو أصغر اولاد عبدالله بن العباس ، ولد في السنة الاربعين للهجرة، ليلة قتل علي بن ابي طالب فسمي باسمه وكني بكنيته .

كان علي ، من اشراف الناس واجمل النـــاس واكثرهم صلاة . وكان طويلاً جداً ، اذا طاف ، فكأن الناس حوله مشاة ، وهو راكب .

وقد وهب له الوليد بن عبد الملك قرية يقال لها الحميمة ، وهي في احدى نواحي الشام على طريق المدينة من دمشق تقع في اقليم البلقاء ، فاقام بها حتى توفي في السنة السابعة عشرة بعد المئة .

وقد ترك اثنين وعشرين ولداً ذكراً واحدى عشرة انثى . اكبر بنيه محمد بن علي الذي نشأت من بيته دولة بني العباس. واخوة محمد الذين كانت لهم شهرتهم هم: داود وعيسى وسليمان وصالح واسماعيل وعبدالله ويحيى .

محمد بن علي

هو والد ابرهيم الامام والخليفتين السفاح والمنصور ، وهو الذي بدأت الدعوة على يديه في حياة ابيه .

وستقرأ في الفصول التي ستجيء اخبار الدعوة التي قام بها واخبار انصاره البررة الذين استخفوا بالموت ومشوا الى هدفهم بالعزيمة الثابتة والاخلاص الذي لا ترى اصدق منه .

* * *

عرف معاوية بن ابي سفيان كيف يبني الملك : لقد كان رجلاً عجيباً في حلمه قوياً في ارادته وصبره وطمعه عظيماً في سياسته ورحابة صدره ، ذلك هو اعتراف المؤرخين والادباء لا نستثني احداً منهم . وليس لك ، ونحن نصف

معاوية ، ان تنظر الى دينه وفضيلته ، وزهده في دنيـاه . قد يكون معاوية في نفسه مسلماً باراً يؤثر دينه على الملك ويخاطب ربه ويناجيه كما يفعل القديسون . ولكن هذا الدين لم يظهر وهو على العرش، بل كانت هنالك رغبة في بناء الدولة ووضع العرش ، بل كانت هنـالك رغبة في بناء الدولة ووضع العرش في الموضع الذي لا تصل اليه الايدي .

كان يعلم وهو السياسي البعيد النظر ان علياً وبنيه احق بالخلافة منه ومن جميع الامويين الذين يجيئون بعده ، بل كان يعـلم ان العلويين ، اصحاب حجة قوية فيما يدعون اليه ، انهم يدعون الى بيعة صهر النبي وابن عمه ، او ابناء بنت النبي اهل الفضيلة والشرف والجاه . وكان يرى ان بين هؤلاء الدعاة ، فريقاً من رجالات العرب ، لهم مكانتهم في الدين ، يتبعهم في الاقـاليم انصار من رجال السيف .

ومثل معاوية لا يلجأ الى القوة في تشييد دولته بل يلجأ الى التؤدة والسياسة والدهاء واللين ، مد يديه الاثنتين الى خصومه يبذل لهم المال ويجود عليهم بالنعم ويولي العمال المخلصين له من دهـاة المسلمين . وهم يستعملون على الخراج والحرب اهل الخبرة والحزم والعزيمة الصادقة والوفاء لسيد الامويين وباني المجد الاموي . حتى دانت له العرب وامست دعوة العلويين بعد موت الخليفة الصالح علي همساً ردده الافواه داخل الجدران .

انظر الى معاوية يزيد عطاء الحسن والحسين ، وعبدالله بن العباس ، وغيرهم من اهل البيت الى «مليون» درهم في السنة ، فزاد عطاؤه مئتي مرة على ما كان يعطيه عمر بن الخطاب .

ويشتد عامل من عمال معاوية فيلين هو له .. ويلين العامل فيشتد معاوية او يتظاهر بانه الشديد البطاش .

قال زياد بن ابيه امير العراق : مـا غلبني امير المؤمنين معاوية قط غير مرة واحدة .

فقيل له وكيف ذلك ؟ قال :

طلبت اليه رجلاً من عمالي كسر الخراج فلجأ اليه فكتبت اليه :
ان هذا يا امير المؤمنين فساد عملي وعملك .
فكتب الي :
انه لا ينبغي ان نسوس الناس سياسة واحدة ، لا نلين جميعاً فيمرح الناس في المعصية ، ولا نشتد فنحمل الناس على المهالك . ولكن تكون انت للشدة والغلظة واكون انا للرأفة والرحمة .

وليس لك ان تظن انمعاوية كان مستخفاً بالدين او خارجاً عنآداب الدين، وانما هي سياسة آثر فيها الظهور بمظهر الملك المتوج صاحب القوة والسلطان على الظهور بمظهر الخليفة الورع صاحب العقيدة والايمان .

لك ان تقول انها سياسة لم يظهر فيها دينه كما ظهرت دنياه ، وان في خلفائه رجالاً مشوا وهم على العرش الأموي كما مشى هو وجعلوا دهاءه وحكمته وخلقه دستوراً لهم ، يقابلهم من الناحية الاخرى خلفاء ضيعوا هيبة الملك وكانوا عوناً لخصوم الامويين على تحطيم العرش . وقد قرأت في رواياتنا السابقة اخبار هؤلاء الخلفاء

هذا يزيد بن معاوية ، الذي يقول اليعقوبي ، انه حلف نسوة ، وصاحب ملاهٍ ، وهذا يزيد بن عبد الملك الذي استخف بما ترك له من ملك ضخم وعز واسع ، وعمد الى شراء الجواري الحسان اللواتي كان الناس يرجعون اليهن في شؤونالدولة . وهذا الوليد بن يزيد الذيعبث بدينه وانصرف الى الخمر يداعبها وتداعبه ، على مرأى ومسمع من الناس لا يبالي بما يقولونه عنه .

وهؤلاء رجال العرب ينفرهم العمال في كل قطر ويغرمونهم المال الكثير الذي لا يستطيعون اداءه ، ويمشون في ولايتهم وراء عاطفة هدامة جامحة تبعد الناس عن الامويين وعمال الامويين .

اضف الى ذلك انقسام البيت الاموي المالك وخروج بعض اعضائه على البعض الآخر لاسباب كثيرة اهمها ولاية العهد ، عهد معاوية الى ولده يزيد في ولاية العهد . فقام الناس يتحدثون بعهده ويترددون في بيعته وهم يكرهون ان

يجلس على العرش فتى خليع يقضي ايامه في لهوه وصيده ولياليه بين نسائه وتشعشع الخمر في مجالسه .

واي شيء يصنعه معاوية وقد رأى بعينيه ولمس بيديه اضطراب العرب وثورة الناس على يزيد ؟

ان معاوية لا يرجع .. وكيف يرجع وهو واضع حجر الدولة وحوله فرسان العرب وقد وفر له المال ، بل كيف يرجع وهو الخليفة الذي لا يطيق ان يرتفع في الامة صوت من اصوات الشكوى ، ومثل معاوية الداهية لا يعمد الى السيف بل يلجأ الى الدهاء .

بعث الى المغيرة بن شعبة وغيره من العمال فارسلوا وفودهم الى دمشق تظهر رضاها عن يزيد وتبايعه بولاية العهد ، وعمد من الناحية الاخرى الى المال يبذله بيمينه وشماله لاولئك الذين تعودوا بيع دينهم بابتسامة من شفتيه . ولم يلبث المسلمون حتى رأوا يزيد على العرش بعد موت ابيه .

لقد كانت هذه البيعة بدعة خلقها معاوية ، بعد ان كان الامر شورى في الاسلام ايام الخلفاء الراشدين .

ولكن هذه البدعة التي استغربها المسلمون من قبل ألفوها بعد حين ، وجاء مروان بن الحكم يجعل وليين للعهد في وقت واحد ، هما نجله الاكبر عبد الملك بن مروان ونجله الثاني عبد العزيز .

وطاب لمعظم الخلفاء بعد مروان ان يتبعوا سنته ويتمشوا على قاعدته ويجعل كل خليفة منهم ولاية العهد لاثنين من بنيه . فنشأ البغض والحسد بين ابناء البيت المالك وكثرت السعايات والحيل والاكاذيب حول العرش للحصول على العرش.

وانت ترى ان جميع هذه الاسباب في الدولة معاول هدم وتخريب .

وهناك عامل آخر بعيد الاثر في الامة وقد يكون اشد ما رأيت ، هو نعرة العصبيات والاحزاب التي تفشت في المسلمين .

* * *

الموالي

كان في الشرق قبل الاسلام دولة كبرى دانت لسلطانها الارض وامتد رواق هذا السلطان فوق كل قطر، هي دولة الفرس، دولة فتح وجهاد وعظمة وسيف

غير ان هذه الدولة خضعت صاغرة للفاتح المسلم وهوى آخر ملك من ملوكها عن عرشه بقوة السيف .

وكانت هنالك قبائل عربية في اليمن والعراق رعية لهذا الملك تطيعه وتخضع له ، كما كانت تطيع الملوك الذين تقدموه ، يعكر صفو هذه الطاعة من حين الى آخر شيء من العصيان .

فلما تحطم العرش الفارسي ذل الفرس وحنوا رؤوسهم للظافر العربي وامسوا عبيداً للعرب كما كان العرب عبيداً لهم . والفتوح كثيرة العبر وليس لها عند تأسيس الدول عهد ونظام . يغزو الظافر قطراً من الاقطار فيستولي على خراجه ويسبي نساءه ويضع يده على رجاله كأنهم ملك له ، ثم يهدي الى خليفته اولئك الارقاء من البيض والسود بالعشرات والمئات بدلا من خراج او مال ، كما كان يهدي اليه الجواري الحسان من كل جنس يجعلهن الخليفة او الامير في قصره او ينزل عنهن لامير آخر او صديق .

حتى امسى الارقاء ايام الامويين طوائف لا تعد في قصور الخلفاء والولاة وامراء البيت المالك وفي جسم الامة . ويخطر لمالك الرقيق ان يجعل عبده حراً فيعتقه لسبب من الاسباب فيصير ذلك العبد مولى ، ثم ينسب الى سيده او عشيرة سيده .

على ان العرب تحكموا في رقاب الموالي واستبدوا باموالهم واشيائهم واستخفوا بهم استخفافاً بدت آثاره في السلم والحرب .

وفي الموالي الزارع والصانع والفقيه والشاعر وراوي الحديث والمغني، كما ان فيهم القضاة والكتاب والحجاب والادباء .

ومع ذلك فالعربي لا يستطيع الا ان يحتقر هؤلاء ، والمولى في نظره عبد ،

وهو ولي امره .

واية عاطفة يخلقهـــا هذا الاستخفاف ? انه لا يخلق غير الحقد في الصدور والضغينة والالم في النفوس .

وانا لنرى ان ذلك الصراع السياسي الهائل بين بني العباس الطامعين بالعرش وبين الامويين اصحاب العرش ، انـ ذلك الصراع السري اللابس ثوب السلام والهدوء لم يكن بين البيتين امية والعباس بل كان بين العرب والفرس .

الفرس يحاولون ومعظم الموالي منهم انـ يقذفوا بالامويين الى لجة الافلاس السياسي ويفرقوا عنهم الناس المخلصين ، لتخور قوى دولتهم وتتزعزع اركانـ ملكهم ، ثم يدفعون بأيديهم الحديدية بيتاً آخر من بيوت الشرف في الاسلام الى الاستيلاء على هذا الملك ، وليس في الساحة غير البيت الهاشمي .

ولم تكن للموالي رغبة ظاهرة في وضع التاج على رأس رجل من آل العباس، يريدون ان يتدحرج هذا التاج ويعصب به رأسه شريف من آل العباس او من ال علي كرم الله وجهه .

ولكن العباسيين كانوا اهل دهاء وحكمة في دعوتهم ، وقد غلب حظهم حظ العلويين كما سيجيء .

واذا خسر الامويون تاجهم بفضل الموالي ، فمعنى ذلك أن هؤلاء الارقـــاء يصبحون سادة الموقف ويسترجعون في الدولة التي ساعدوها شيئاً من ذلك العز الذي ضيعوه والسلطان الواسع النافذ الذي خسروه .

وازمة الموالي والامويين تكبر وتشتد ، وكثيراً ما كان الشعراء من الفرس يتغنون بمجد دولتهم الجبارة التي سادت الشرق .

وفي هذا التغني تزيد الضغينة ويزيد البغض .

جـاء في المجلد الاول من كتاب عصر المأمون ، ان الاستاذ برون في كتابه من ادب الفرس نقلاً عن الاغاني يقول :

ن سماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو جالس بالرصافة على بركة له في قصره ، فاستنشده هشام وهو يرى انه ينشد مديحاً له،

فانشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم قال :

يا ربـع رامة بالعلياء مـن ريم　　　هل ترجعن اذا حييت تسليمي

حتى انتهى الى قوله :

اني وجدك ما عودي بذي خور　　　عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به　　　ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب　　　من كل قرم بتاج الملـك معموم
جحاجح سادة بلـــج مرازبة　　　جرد عتـــاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً　　　والهرمزان لفخر او لتعـــظيم
أسد الكتائب يوم الروع ان زحفوا　　　وهم اذلوا ملوك الـترك والروم
يمشون في حلق الماذي سابغـة　　　مشي الضراغمة الاسد اللهـاميم
هنـاك ان تسألي تنبي بان لنـا　　　جرثومـــة قهرت عز الجرائيم

فغضب هشام وقال له :

أعلي تفتخر واياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك واعلاج قومك ؟ . غطوه في الماء .

فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بأخراجه ونفاه من وقته فأخرج من الرصافة الى الحجاز .

وجار الخلفاء من بني امية عـلى الموالي حتى انهم كانوا يرسلونهم الى الميادين مشاة ولا يجودون عليهم بشيء من الغنائم .

والموالي ساكتون على غل وهم يوغرون الصدور من وراء الستار على اصحاب العرش ومن حولهم من عمال وامراء ٠

* * *

كانت العرب في الجاهلية في فتنة دائمة . اليمني يفاخر المضري بنسبه وينتقصه بشعره ، وهذا يطعن بعرض الآخر ويدافع عن قومه ثم تستعر نار الحرب .

فلما جاء الاسلام قربت تعاليمة العدو من عـــدوه وامسى المضري واليمني اخوين يمشيان الى هدف واحد ويدافعان عن غاية واحدة .

يدلك على ذلك هذا الفتح العجيب الذي اصابوه في زمن قصير ، والذي لم تنل مثله امة من امم الارض من قبل .

ولكن الولاة والامراء ، الذين قصر نظرهم ، ومشوا وراء عاطفتهم الهوجاء جددوا في الامة عهد الجاهلية ، ودفعوا الناس بسياستهم الطائشة الى الفتنة العمياء . وكان ذلك في خراسان ايام الامويين ؛ حتى احتدمت النار بين المضرية واليمنية وتمشت الفتنة في كل عشيرة وكل بيت ؛ يسعرها كلما خمدت رجال السوء .

ولى بنو أمية خراسان ، رجلين اثنين ، الواحد منهما بعد الآخر ، هما اسد ابن عبدالله القسري اليمني ، وعشيرته كثيرة قوية ، ونصر بن سيار المضري وعشيرته ضعيفة قليلة .

وقد قال هشام بن عبد الملك حين ولاه : انا عشيرته ..

وفي عهد ابن سيار شهر السيف وسالت الدماء في خراسان ،

والابيات الآتية تصف لك الفتنة .

قال الحارث بن عبدالله الجعدي :

أبيت ارعى النجوم مرتفقاً	اذا اشتعلت تجري اوائلها
من فتنة اصبحت مجللة	قد عمّ اهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها
يمسي السفيه الذي يعنف بالجـ	ـهل سواء فيها وعاقلها
والناس في كربة يكاد لها	تنبذُ اولادها حواملها
لا ينظرُ الناسُ في عواقبها	إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبلى	طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا ازرى بوجهته	فيها خطوب حمر زلازلها

وستقرأ كل شيء بعد قليل .

* * *

تلك هي الاسباب التي قضت عـــلى دولة الامويين ورفعت بني العباس الى العرش وانها لاسباب تخريب وتدمير كما رأيت .

* * *

- ١ -

لقد ذكرنا لك في الفصول التي مضت ان محمـــد بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية، عهد في أمر الشيعة قبل موته ، الى ولده عبدالله الذي يكنى ابا هاشم . فقام ابو هاشم بالامر تأتيه الشيعة وتؤدي اليه الخراج وهو يرعاها بعنايته ، حتى تربع في عرش الخلافة سليمان بن عبد الملك ، فوفد اليه ابو هاشم ومعه رجـال من شيعته .

وكان الناس قد حدثوا سليمان بأمره وأخبروه أن اباه محمداً أوصى اليه بعهده وسليمان لا يصدق ما يقولون .

فلما كلمه قال لخاصته وابو هاشم لا يسمع : ما كلمت قط قرشياً يشبه هـذا وما نظن الذي كنا نحدث عنه إلا حقاً .

ثم قال له : اذكر حاجتك وحاجة من معك ، ففعل ، فقضاها جميعها ثم انصرف ابو هاشم يريد فلسطين وعين سليمان لا تغفل عنه .

ذلك لأنه رأى من مهابته وفصاحته ووقاره ما يدنيه من الخلافة ، وليس من الرأي يبقى ابو هاشم حياً .

انه حفيد علي بن ابي طالب وهو من اهل البيت ، ولجده علي المنزلة التي لا تبلى فالخلافة اذن في خطر . وعول على القضاء عليه بالسم .

خرج أبو هاشم من دمشق وخرجت في الوقت نفسه رسل لسليمان تحمل الى القبائل النازلة على طريقه أمر الاعدام العجيب ، حتى انتهى حفيد علي ورجاله الى بلاد لخم وجذام ، فضرب لهم القوم هناك خياماً وابنية ومعهم اللبن المسموم وهم يقولون : هل لكم في شراب ؟

فيقول ابو هاشم : جزيتم خيراً !

ثم مر بقوم آخرين ، ففعلوا كما فعل الاولون ، وهو يقول لهم ماقاله من قبل

حتى عرض عليه اللبن في موضع آخر فقال : هاتوا ! وشرب وحده .
فلما استقر اللبن بجوفه قال لأصحابه : اني ميت فانظروا في أمر القوم الذين سقوني لبنهم .
ولكن القوم كانوا قد قوضوا أبنيتهم وذهبوا .
فقال ابو هاشم : خذوني الى ابن عمي في الحميمة وما احسبني ادركه .
فاسرعوا حتى اتوا محمد بن علي ، بن عبدالله بن العباس الذي ذكر لك في الفصول السابقة وهو الذي عناه ابو هاشم بقوله : ابن عمي .
ولم يكن بنو العباس قد فكروا في الخلافة ، فعندما لقي ابو هاشم محمداً قال له :
يا ابن عمي ، اني ميت ، وقد اردت ان اصير اليك ، لأقول لك ما يتردد في الصدر قبل موتي .
قال : وما ذاك ؟
قال : انت صاحب هذا الامر بعدي ، والله لا يتمن الأمر حتى تخرج الرايات السود من خراسان .
- وبماذا توصي ؟
- عليك بهؤلاء الشيعة واستوص بهم خيراً فهم دعاتك وانصارك ، ولتكن دعوتك خراسان ولاسيا عاصمتها مرو .
- وتعلم يا ابن العم من هي العشائر التي تصغي الى الدعوة ؟
قال : لك ان تثق بهذا الحي من اليمن ، فأن كل ملك لا يقوم بــه ، فمصيره الفشل .
ثم قال : وانظر الى هذا الحي من ربيعة فألحقهم بهم فانهم معهم في كل أمر وأما هذا الحي من تميم وقيس فاقصهم الا من عصم الله منهم وهذا قليل .
وسكت قليلا وهو يفكر ، فقال محمد : ثم ماذا ؟
- ثم مر رجالك فليجعلوا اثني عشر نقيباً ، ثم سبعين نقيباً بعدهم . واعلم ان الخلافة ستنتهي الى بنيك . واومأ اليه بان يدعو رجال الشيعة .

فلما اقبلوا قال : هـــذا ابن عمي محمد بن علي يقوم بالأمر بعدي وستصير الخلافة الى ولده ، فأدعوا الناس وبايعوه .

فقال احدهم : وندعوا من بخراسان والعراق ؟

اجل ولا تتركوا احداً حتى يبايع وانا قد اوصيتكم .

ثم مات ابو هاشم ، فأقبلت الشيعة تبايع محمداً وتدعو الناس ، الا الذين تولوا زين العابدين فقد افترقت بهم الطرق : هذا يولي بعد زين العابدين ابنه محمداً الباقر ، وهذا يقول ان الخلافة حق لكل فاطمي .

ولما توفي محمـــد الباقر انتقل ولاء فرقته الامامية الى ولده جعفر الصادق ، ومشت الفرقة الكيسانية الى جانب محمد بن علي تساعده في بلوغ غايته .

وهنالك فريق كان يدعو الى زيد بن علي بن الحسين ، وهؤلاء يعرفون بالشيعة الزيدية . وقد قرأت في آخر رواية العاشق كيف قتل بنو أميه زيداً كما قتلوا بعده ابنه يحيى .

* * *

- ٢ -

في الجزء الاخير مـــن رواية العاشق المجنون في الصفحة ٥٧٥ والصفحات الاربع التي بعدها كلمة عن ابتداء الدعوة العباسية ، ولكنها كلمة قصيرة قد لا ترجع اليها عندما تقرأ هذه السطور .

إذن فمن الرأي ان نذكرها لك ، لنكفيك مؤونـــة العودة ، الى الرواية السابقة .

ابتدأت الدعوة في خلافة عمر بن عبد العزيز الأموي ، وعلي بن عبد الله بن عبدالله بن العباس والد محمد لم يمت بعد ، وهو بالحميمة مع محمد .

وقد كثر حول الرجلين الفتيان المخلصون بعد ان بايع محمـداً ذلك الفريق القوي من الشيعة .

بدأ محمد بن علي فجعل الكوفة وخراسان مرجعين لانصاره نائبه في الكوفة مولى لابيه يقال له ميسرة ، وفي خراسان نائبان هما محمـــد بن خنيس ، وابو

عكرمة السراج الذي يكنى ابا محمد الصادق .

وقد اختار ابو محمد هذا ، اثني عشر رجلا جعلوا قواداً للدعوة هم :

سليمان بن كثير الخزاعي ، لاهز بن قريظ التميمي ، مالك بن الهيثم، موسى ابن كعب ، القاسم بن مجاشع ، طلحة بن زريق ، عمرو بن أعين ، خالد بن ابراهيم الشيباني ، شبل بن طهمان الحنفي ، عيسى بن اعين ، عمران بن اسماعيل المعيطي ، قحطبة بن شبيب الطائي .

وهؤلاء القواد سبعون عاملاً يحملون اوامرهم الى كل قطر وينقلون اليهم رهبة الناس عن بني امية :

وقد كتب محمد بن علي كتاباً لهؤلاء الدعاة جعله دستوراً لهم وهذا ما جاء فيه :

اما الكوفة وسوادها فشيعة علي بن ابي طالب وولده ، واما البصرة وسوادها فعثمانية « نسبة الى عثمان بن عفان » تدين بالكف تقول : « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل »

واما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كالاعلاج . واما اهل الشام فليس يعرفون إلا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم واما مكة والمدينة ، فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر بن الخطاب . ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدو الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ولم يتوزعها الدغل ، وهم جند لهم ابدان واجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب واصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من اجواف منكرة . وبعد ، فأني اتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق .

ذلك هو كتاب محمد بن علي الذي يدل على اختباره وعلمه وبعد نظره ودهائه.

لقد كان يعلم ان خراسان تربة صالحة يضعف فيها نفوذ بني امية وتنمو فيها دعوته من وراء الستار .

بل كان يعلم ، ان في خراسان عنصراً غير العنصر العربي ، أذله الأمويون

واستخفوا به، وسيكون هذا العنصر عوناً له على تشييد دولة بني العباس .

مشى الدعاة الى الاقاليم وجميعهم اهل جلد وصبر وسياسة ودهاء، يتظاهرون بانهم اهل تجارة وطلاب رزق يطوفون في البلاد من اجل المال . وهم ينشرون دعوتهم بالسر ، ويسألون الناس بالحكمة والحسنى ، والاسلوب الخلاب الناعم ان يبايعوا رجلا من اهل بيت النبي دون ان يسموا احداً .

والدعوة تنشر وتمتد حتى كانت السنة الثانية بعد المئة فوشى بهم الى امير خراسان سعيد خدينة . ولكنهم لجأوا الى ربيعة واليمن ، فأقبل بعض هؤلاء يقولون للامير : نحن نعرفهم وهم علينا ان اتاك منهم ما تكره ، فخلى سبيلهم .

وفي السنة الرابعة ولد لمحمد بن علي ولد ذكر دعاه عبدالله وهذا الولد هو ابو العباس السفاح اول خليفة عباسي .

ومرت بعد ذلك سنة ، وانصار العباسيين يكثرون ، وقد انضم اليهم شيخ عظيم من اصحاب الجاه والنفوذ والمال يقال له بكير بن ماهان فجعله محمد بن علي نائباً له في الكوفة بعد وفاة ميسرة نائبه الأول .

وفي ذلك الزمن جعل خالد بن عبدالله القسري امير العراق أخاه أسد بن عبدالله عاملاً له على خراسان ، وذلك ايام هشام بن عبد الملك .

وأسد بن عبدالله والٍ شديد بطاش ، يطيب له ان تسيل دماء الناس عند قدميه ، وقد لقي في خراسان من يقول له .

ان هنا قوماً يرغبون الناس في الخروج عن طاعة الامويين ، فبعث فقبض عليهم وفيهم ابو محمد الصادق ومحمد بن خنيس ، النقيبان ، وعمار العبادي ، فقطع ايديهم وارجلهم ثم صلبهم . وأفلت عمار فأتى الكوفة وخبر بكير بن ماهان .

فكتب بكير الى محمد بن علي يخبره الامر فأجابه قائلا : الحمد لله الذي صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل. وقد وضع أسد بن عبدالله يده بعد ذلك على عمار فألحقه باخوانه .

قيل ان اسداً كان اشد الولاة في خراسان على الشيعة . لم يشفق على احد

منهم ، ولم يرحم أحداً ، فنامت الدعوة في ايامه نوماً غير هادىء حتى عزل عن خراسان السنة التاسعة بعد المئة وتلك كانت ولايته الاولى .

ثم ولي خراسان مرة اخرى فأخذ في السنة السابعة عشرة طائفة من دعاة بني العباس ، فقتل بعضهم ومثل بالبعض الآخر .

ثم أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن ابراهيم وطلحة بن زريق وجميعهم من النقباء .

فلما مثلوا بين يديه قال لهم: يا فسقة ! ألم يقل الله تعالى: « عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » .

فقال له سليمان : نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغير المـــاء حلقي شرق كنت كالغصن بالماء اعتصاري

ثم قال : ايها الامير ! نحن من قومك « اليمن » وقد رفعت اليك « مضر » هـــذا الأمر ، لأننـــا كنا اشد الناس على قتيبة بن مسلم ، يوم تولى خراسان فطلبوا بثأرهم ،

فبعث بهم الى السجن .

ثم قال لعبد الرحمن بن نعيم : ما ترى ؟

قال : أرى ان تمتن بهم على عشائرهم فهم من قومك .

ففعل واطلق من كان فيهم من اهل اليمن لأنه منهم ، كما انه أطلق من كان من ربيعة لاتفاق ربيعة واليمن .

ولكنه اراد في الوقت نفسه ان يقتل من كان من مضر .

فدعا موسى بن كعب وألجمه بلجام حمار ، وجذب اللجام ، فحطمت اسنانه ودق وجهه وانفه وتخضب صدره بالدم .

ثم دعا لاهز بن قريظ فقال له لاهز : أذلك حق يا ابن عبدالله ، تصنع بنا هذا وتترك اليمن وربيعة ؟

فضربه ثلاث مئة سوط ، فقام احـــد الناس فشهد له ولأصحابه بالبراءة فعفا عنهم .

وهذا امــا كان يصنعه الناس في ذلك العهد ، كانوا يلجأون الى العصبية القومية يجعلونها السبيل الى بلوغ الغاية او الخلاص من ظلم .

وفي السنة العشرين توفي أسد فتنفست الشيعة بخراسان ، وزاد نشاط انصار بني العباس .

* * *

- ٣ -

سأل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رجـلاً من المقربين اليه يقال له عبد الكريم بن سليط الحنفي ، ان يشير عليه في رجل يوليه خراسان بعد موت اسد ابن عبدالله .

فقال عبد الكريم : يا امير المؤمنين أما رجل خراسان حزمــاً ونجدة فالكرماني .

قال : ما اسمه ؟

– جديع بن علي من اليمن .

– لا حاجة لي الى مثله .

– المسن المجرب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني .

– ربيعة لا تسد بها الثغور .

فقال عبد الكريم في نفسه : ان امير المؤمنين يكره ربيعة واليمن ، فيجب ان ارميه بمضر فقال :

عقيل بن معقل الليثي ان غفرت ضعفه .

– اي رجل هو ؟

– ليس بالعفيف يا امير المؤمنين .

– اذن لست بحاجة اليه .

– منصور بن ابي الخرقاء السلمي .

– صفه لي .

– انه مشؤوم يا امير المؤمنين .

قال : هات غيره .

– المجشر بن مزاحم ، فهذا عاقل شجاع له رأي مع كذب فيه .

– لا خير في الكذب ، غيره .

– يحيى بن حصين .

– ألم أقل لك ان ربيعة لا تسد بها الثغور .

قال : نصر بن سيار فهو عفيف عاقل مجرب .

قال : هو لها !

– ولكن عشيرته قليلة في خراسان .

فقال هشام عندئذ كلمته المشهورة :

أو تريد عشيرة أكثر مني ؟ انا عشيرته .

وكتب عهده وبعث به مع عبد الكريم نفسه .

فلما سلمه اليه اعطاه عشرة آلاف درهم .

واستعمل على بلخ مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم ، وعلى مرو الروذ وشاح بن بكير ابن وشاح ، وعلى هراة الحرث بن عبد الله بن الحشرج ، وعلى نيسابور زياد بن عبد الرحمن القشيري .

واستعمل على النواحي الاخرى رجالا آخرين ، وجميع هؤلاء من مضر لأن نصراً كان مضرياً .

فقال رجل من اليمانية : ما رأيت عصبية مثل هذه .

فقيل له : بل العصبية التي قبلها .

ولم يستعمل نصر اربعة اعوام كاملة إلا مضرياً .

وعمرت خراسان في ايامه واحسن الولاية والجباية .

فقال سوار بن الاشعر :

اضحت خراسان بعد الخوف آمنةً   مِنْ ظلم كلّ غشوم الحكم جبارِ

وكانت ولاية نصر في السنة العشرين ، فلما أقبلت السنة التي بعدها ، ظهر زيد بن علي بن الحسين كما مر ، ثم قتل في السنة الثانية والعشرين .

ابو مسلم الخراساني

اختلف الناس في ابي مسلم ، فقال بعضهم :

كان حراً واسمه ابراهيم بن عثمان بن بشار ، من ولد بزرجمهر ، وقد ولد باصبهان ونشأ بالكوفة

فلما اتصل بابراهيم الامام ، ابن محمد بن علي سيد البيت العباسي قال له : غير اسمك ، فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى ابا مسلم . وزوجه ابنة عمران بن اسماعيل الطائي احد النقباء .

وقال البعض الآخر : انه من اهل ضياع بني معقل في اصبهان واسمه ابراهيم .

وكان عاصم بن يونس العجلي وادريس وعيسى ابنا معقل في سجن يوسف بن عمر امير العراق .

وابو مسلم يخدمهم وهم في السجن .

فقدم الكوفة سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة ابن شبيب .

ودخلوا على عاصم فرأوا ابا مسلم عنده ، فاعجبهم فأخذوه .

وكتب ابو موسى السراج معه كتاباً الى ابراهيم الامام ،فأخذه ابراهيم وجعله في خدمته .

ثم ان هؤلاء النقباء قدموا على ابراهيم مرة اخرى يسألونه ان يوجه معهم رجلا الى خراسان ، فوجه ابا مسلم وولاه أمرهم في ذلك الاقليم . ذلك نسب ابي مسلم على قول من يزعم انه حر .

وقيل : ان ابا مسلم كان عبداً ، وكان سبب انتقاله الى بني العباس ان بكير ابن ماهان قدم الكوفة واجتمع مع شيعة العباسيين، فوشي بهم فأخذ بكير الى السجن وبقي الآخرون .

وكان في الحبس يونس ابي عاصم وعيسى بن معقل العجلي ، ومعه ابو مسلم يقوم بخدمته ، فدعاهم بكير الى بني العباس فأجابوه .

فقال لعيسى : ما هذا الغلام منك ؟
قال : مملوك .
- وهل تبيعه ؟
- هو لك .
- ولكني احب ان تأخذ ثمنه .
قال : هو لك بما شئت .
فأعطاه اربع مئة درهم . ثم خرجوا من السجن ، فبعث به بكير الى ابراهيم الامام ، فدفعه ابراهيم الى ابي موسى السراج ليعلمه اسرار الدعوة .
وقيل : انه كان لبعض اهل هراة ، فقدم مولاه على إبراهيم الامـــام، وأبو مسلم معه ، فاعجبه عقله فاشتراه .
ثم اعتقه ومكث بضعة اعوام ، ثم جعل يبعث به الى خراسان ومعه الكتب الى النصاره .
وبعد حين وجهه اميراً على شيعته بخراسان .

* * *

- ٤ -

توفي هشام بن عبد الملك في السنة الخامسة والعشرين بعد المئة ، وبويع ابن اخيه الوليد بن يزيد . وقد قرأت ذلك في الرواية السابقة .
وقبل ان تنتهي هذه السنة قدم مكة جماعة من نقباء بني العباس ، وفي مكة يومئذ محمد بن علي .
فأعطوه مئتي الف درهم كانت معهم ، وكسوة بثلاثين الف درهم وخبروه امر أبي مسلم .
فقال لهم محمد : ما اظنكم تلقوني بعد عامي هذا ، فـاذا مت فصاحبكم ابني إبراهيم ، فاني اثق به واوصيكم به خيراً .
ثم مات في ذلك العام وانتقل ولاء شيعته الى ابنه ابراهيم وقد بايعوه .
وقتل الوليد بن يزيد في العام السادس والعشرين ، وبويع ابن عمه يزيد بن

الوليد بن عبد الملك ، وذلك بعد ثورة هوجاء كان ابطالها بنو قضاعة واليانية وهم اكثر جند الشام وحماة العرش .

فقد اقبلوا يقولون ليزيد بن الوليد : احمل السيف ونبايعك .

ففعل وانقسم البيت الاموي المالك على نفسه كما رأيت .

وإنما سار اهل اليمن غضباً لخالد بن عبدالله القسري ، الذي قتله يوسف بـ عمر امير العراق بامر الوليد .

لقد كان خـالد اميراً على العراق قبـل يوسف ، فعزله هشام ، وولى يوسف ابن عمر .

فأتى يوسف فقبض على خالد وابنه يزيد والمنذر ابن اخيه وجعلهم في السجن ثم استأذن هشاماً في تعـذيبه . فأذن له مرة واحدة ، واقسم لئن هلك ليقتلنه فعذبه يوسف ثم رده الى السجن .

وكتب هشام بعد ذلك يأمر عامله باطلاقه ، فاطلقه في السنة الحادية والعشرين فاتى بلداً يجاور الرصافة ، واقام به الى السنة الثانية والعشرين .

وفي ذلك الزمن خرج يزيد بن علي بن الحسين ثم قتل . فكتب يوسف بن عمر الى هشام : ان بني هاشم من ولد علي بن ابي طالب وغيرهم كادوا من قبل يهلكون جوعاً ، وكانت همة احدهم قوت عياله . فلما ولي خالد العراق اعطاهم الاموال فتاقت انفسهم الى الخلافة ولم يخرج زيد عن رأي خالد .

فقال هشام : كذب يوسف .

وضرب رسوله قائلا : لسنا نتهم خالداً في طاعة .

وسار خالد بعد ذلك حتى نزل دمشق ، وعليها كلثوم بن عياض القشيري وهو يبغض خالداً ، فظهر في احياء دمشق حريق ، يفعله كل ليلة رجل من اهل العراق يقال له ابن العمرس ، وله ولاتباعه غاية هي السرقة .

وكان خالد القسري قد خرج الى الصائفة ، واولاد خالد واخوته في الساحل ينتظرون رجوعه .

فكتب عامل دمشق الى هشام وهو في الرصافة :

اما بعد ، فان موالي خالد يريدون الوثوب على بيت المال ، وهم يحرقون البلد كل ليلة لهذه الغاية ، فأجابه هشام :

ضع آل خالد ومواليهم ، الكبير منهم والصغير في السجن .

فاحضرهم الرجل من الساحل مقيدين ومعهم البنات والنساء والصبيان وامر بهم فاخذوا الى السجن .

ثم ظهر امر العراقي السارق ومن معه . فكتب الوليد بن عبد الرحمن عامل الخراج يخبره أنهم قبضوا علـى ابن العمرس واصحابه ويذكر له اسماءهم . ولم يذكر فيهم احداً من موالي خالد .

فكتب هشام الى امير دمشق يشتمه ويأمره باطلاق آل خـالد عندما يأتيه كتابه دون ان يتردد في الامر .

فأطلقهم، وترك الموالي، رجاء ان يشفع فيهم خالد، عندما يرجع من الصائفة.

ثم قدم خالد، فنزل منزله في دمشق واذن للناس، فقام بناته يحتجبن فقال لهن: لا تحتجبن فان هشاماً يسوقكن كل يوم الى السجن .

ودخل الناس ، فقام اولاده يسترون النساء .

فقال لقومه : خرجت غازياً سامعاً مطيعاً ، فأخذ حرمي واهل بيتي فسجنوا مع اهل الجرائم كما يفعل بالمشركين ، ولم يقم احـد منكم يقول علام يسجن حرم هذا السامع المطيـع . أخفتم ان تقتلوا جميعاً اخافكم الله ؟

ثم قال :

مالي ولهشام ، والله لئن لم يكف عني لادعون الى عراقي الهوى ، شامي الدار حجازي الاصل . وهو يعني محمد بن علي زعيم بني العباس .

ولم يلبث حتى قال : اذنت لكم ان تنقلوا ما سمعتم الى هشام .

فلما بلغ هشاماً قوله قال : خرف ابو الهيثم .

ومكث خالد بدمشق حتى هلك هشام وتولى الوليد .

فكتب الى خالد : ما حال الخمسين الف الف الباقية عليك من امارة العراق، اقدم على امير المؤمنين .

فقدم عليه والوليد في سرادق له، ووقف بالباب، فارسل اليه الوليد يقول: اين ابنك يزيد ؟

قال : كان قد هرب من هشام ، وكنا نراه عند امير المؤمنين حتى استخلفه الله ، فلما لم نره ظنناه ببلاد قومه .

فلما انتهى قوله الى الوليد بعث اليه يقول :

لا ولكنك خلفته طالباً للفتنة .

قال قد علم امير المؤمنين انا اهل طاعة .

فرجع الرسول فقال :

يقول لك امير المؤمنين لتأتين به او لأزهقن نفسك .

فرفع خالد صوته قائلاً : قل له : والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه .

فأمر الوليد بضربه فضرب ولم يقل كلمة ، ثم سجنه حتى قدم يوسف بن عمر بالأموال منّ العراق ، فقال له الخليفة :

أتشتري خالداً بخمسين الف الف ؟

قال : نعم !

فقال الوليد لخالد : ان يوسف يشتريك بخمسين الف الف ، فان كنت تضمنها والا دفعتك اليه .

فقال له خالد : ما عهدت العرب تباع ، والله لو سألتني ان اضمن عوداً ما ضمنته .

فدفعه الوليد الى يوسف . وخالد من اليمن ويوسف من مضر ، فنزع يوسف ثيابه والبسه عباءة وحمله في محمل بغير فراش وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة .

ثم حمله الى الكوفة وجعل يعذبه ، حتى قتل ودفنه في عباءته التي كان فيها .

واي شيء يفعله قوم خـــالد بعد ذلك ؟ لم يبق الا ان يحملوا علم الثورة ويخرجوا طالبين خلع الوليد ، مستندين الى يزيد ابن عمه . وما هي الا ايام حتى قتل الخليفة وكان العباس بن الوليد يقول لاخيه بشر :

اظن ان الله اذن في هلاككم يا بني مروان .

ثم تمثل قائلا :

اني اعيـذكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قـد ملت سياستكم فاستمسكوابعمودالدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب النـاس انفسكم ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بايـديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع

واضطربت الافكار في كل اقليم من اقاليم المسلمين ، وكان الناس صفين : هذا يماني وهذا مضري .

والقدر يدفع بني العباس بيديه القويتين الى عرش الخلافة، ويهيء لهم اسباب الظفر والسلطان .

* * *

- ٥ -

لما قتل الوليد استعمل يزيد عـلى العراق وخراسان منصور بن جمهور وهو من الذين شهدوا قتل الوليد .

وكان يوسف بن عمر قد عمد عندما بلغه مقتل الخليفة الى اليانية المقيمين حوله فجعلهم في السجن .

ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من مضر فيقول له : ما عندك ان اضطرب الحبل .

فيقول المضري : انا رجل من اهل الشام ابايـع من بايعوا وافعل ما فعلوا .

فلما لم ير عندهم ما يحب اطلق اهل اليمن .

واقبل منصور ففر يوسف الى الشام ، ثم قبض عليه وسجنه يزيد ايامه كلها وشهرين وعشرة ايام مـن خلافة ابراهيم بن الوليد ، حتى وثب مروان بن محمد آخر الخلفاء يطلب الخلافة .

ومشى حتى قرب من دمشق ، فأمر يزيد بن خالد القسري مولى لابيه يقال له ابو الاسد فقتل يوسف بن عمر وابني الوليد .

واستعمل منصور على خراسان والري احد اخوته ، غير ان نصر بن سيار لم يسلم الولاية اليه ، ولم يشأ ان يعترف بسلطان امير العراق الجديد .

وقبل ان ينتهي ذلك العام ، عزل الخليفة منصور بن جمهور عن العراق ، واستعمل عبدالله بن عمر بن عبد العزيز . وقال له : سر الى العراق فان اهله يميلون الى ابيك .

فأقبل يولي ويعزل وطاب له ان يبقي نصر بن سيار على خراسان وارسل اليه عهده .

* * *

- ٦ -

رأى ابن سيار ان الفتنة مدت اصابعها وانتشرت في خراسان ، فاحتفظ ببيت المال واعطى الناس بعض العطاء .

ثم قام فخطب فقاطعه الناس قائلين :

اعطنا ما نستحق ، فقال :

اياكم والمعصية وعليكم بالطاعة والجماعة ،

فوثب اهل السوق الى اسواقهم فغضب وقال :

ليس لكم عندي عطاء .

فقال جديع بن علي الأزدي الذي يقال له الكرماني : ايها القوم ان الناس في فتنة فانظروا لاموركم رجلاً .

فقال اهل اليمن : انت لنا .

وقام بنو مضر فقالوا لنصر : ان الكرماني يفسد عليك أمرك فأرسل اليه فاقتله ، او ضعه في السجن حتى تتفرق اليمن عنه .

قال : لا ! ولكن لي اولاد ذكور واناث ، فمن الرأي ان زوج بني من بناته وبناتي من بنيه ، فلم يرضوا .

فقال : أبعث اليه اذن بمئة الف درهم ، فهو بخيل لا يعطي اصحابه منها شيئاً فيتفرقون عنه .

فاجابوه قائلين: ان المال قوة له،ولو رأى الكرماني انهلا يقدر على السلطان الا بالنصرانية واليهودية لتنصر وتهود ، حتى يبلغ غايته .

وكان الاثنان الكرماني ونصر متصافيين مـن قبل ، وللكرماني فضل على نصر في ولاية أسد بن عبدالله .

فلما تولى نصر أمر خراسان عزل الكرماني عن رياسة قومه ، وولاها غيره ، فاظهر له البغض ، واكثرت مضر على نصر في أمر الكرماني ، فعول على وضعه في السجن ، وارسل قائد حرسه ليأتيه به . فأراد قومه ان يخلصوه ، فمنعهم من ذلك وسار مع صاحب الحرس وهو يضحك ، كأنه مدعو الى وليمة في القصر .

ودخل عليه ، فقال له نصر : يا كرماني ! ألم يأتني كتاب يوسف بن عمـر بقتلك فراجعته ، وقلب شيخ خراسان وفارسها فحقنت دمك .

قال : بلى !

- ألم اغرم عنك ما كان عليك من المال ؟

- بلى !

قال : ويكون جزائي منك هذه الفتنة !

قال : لم يقل الامير شيئاً الا وقد كان اكثر منه ، وانا لذلك شاكر ، وقد كان مني ايام اسد ما قد علمت .

- والآن ؟

- اما الآن فأنا لا احب الفتنة كما أخبروك .

فقال سالم بن احوز وكان حاضراً : اضرب عنقه ايها الامير .

وقال عصمة بن عبدالله الاسدي : انه يريد الفتنة .

فقال ابنا عبد الرحمن بن نعيم العامري : لجلساء فرعون خير منكم ، والله لا يقتل الكرماني .

فاسكتهم نصر ثم أمر فحمل الكرماني الى السجن .

ولكن قومه خلصوه ، وكان نصر يقول : لا اريد به سوءاً .

واجتمع مع الكرماني بعد خروجه من السجن زهاء الف رجل ، ولم يرتفع

النهار حتى اصبحوا ثلاثة الآف .

وخطب نصر فنال من الكرماني ، ثم ذكر قومه الازد فقال : ان يستوثقوا فهم اذل قوم ؛ وان تابوا فهم كما قال الاخطل :

ضفادعُ في ظلماء ليلٍ تجاوبت   فدلَّ عليها صوتُها حيةُ البحرِ

وقبل ان يدنو الواحد من الآخر سأل الناس نصراً ان يؤمن الرجل فجاء للكرماني فوضع يده في يده ، ثم تهيأ للخروج الى جرجان وكان يقول لنصر :

لا آمن ان يحملك قوم على غير ما تريد ، فتفعل معنا ما لا صلح بعده . فان شئت خرجت عنك ، لا من هيبة لك ، ولكن اكره ان اسفك الدماء .

وبينا لهيب الثورة يمتد في خراسان ، انتهى الخبر الى القوم ان امير المؤمنين يزيد ابن الوليد مات ، وقام بالامر بعده اخوه ابراهيم بن الوليد .

ثم بلغهم خروج مروان بن محمد الى الشام يريد خلع ابراهيم عن العرش .

ولم يلبث حتى ظفر وبويع بالخلافة .

ثم ثار اهل حمص والغوطة وفلسطين ، وخرج الضحاك بن قيس الشيباني في الكوفة ، واستطاع ان يظفر بامير العراق الجديد النضر بن سعيد الحرشي الذي فر الى واسط .

ولكن مروان لم يتردد في امره ، ارسل رجاله فاخضعوا اهل الثورة في كل قطر ، وسير يزيد بن عمر بن هبيرة الى العراق لقتال الضحاك ، وبنو العباس يغتنمون الفرص وينشرون دعوتهم ويوجهون عمالهم يدعون الناس ، والناس ينضمون الى الدعاة .

وقد خرج سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب الى مكة ، وفيها الامام ابراهيم بن محمد .

وعند الامام ابو مسلم الخراساني ، فأعطوا الامام المال الكثير يستعين به على دعوته ، ورجعوا وهم يرون انه سيكون لأبي مسلم شأن .

وفي السنة نفسها توفي بكير بن ماهان ، وكان قد كتب الى ابراهيم الامام قبل موته يقول له : اني في الموت وقد استخلفت حفص بن سليمان ليقوم بأمر

الدعوة بعدي ،

فولاه الامام ، وأمر اهل خراسان بان يسمعوا له ويطيعوه ، كما كانوا يطيعون بكير بن ماهان .

ويعرف حفص بن سليمان بابي سلمة الخلال الفارسي ، وكان في الاصل مولى لبني الحارث بن كعب وهو صهر بكير

ودعي ابو سلمة منذ ذلك اليوم ، وزير آل محمد ، وهو من دهاة الناس وله الخبرة والجاه والمال الكثير .

* * *

- ٧ -

ابو مسلم الخراساني

رجل سياسة وحرب ودهاء وحيلة ، وهو شديد بطاش قاس ، تبعد الرحمة عن قلبه ؛ كما كانت تبعد عن قلب الحجاج .

ويجب ان تعلم ان هذا الرجل القاسي قائد من كبار القواد ، يمشي الى غايته بالكتمان والصبر ، وله حزم الرجال الذين خلقوا ليبنوا الدول ويسوسوا الناس

عزيمة من حديد ، وارادة لا تتراجع ، وكلمة لا ترد ، واخلاص للعباسيين لم يكن عند رجالهم مثله .

وسمي ابو مسلم امير آل محمد ، وهو القائل :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان اذ حشدوا
ما زِلتُ أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهمُ بالسيفِ فانتبهوا ... من نومةٍ لم ينمها قبلهمْ أحـدُ
ومن رعى غنماً في أرضٍ مسبعةٍ ... ونامَ عنها تولى رعيـها الأسدُ

وكان الرجل في السنة الثامنة والعشرين بعد المئة في التاسعة عشرة من عمره وهذه السن سن المرح واللهو والشباب ، ولكنه شغف بالسياسة وملأ قلبه

الاخلاص لآل العباس ، وطمح الى المجد يمشي اليه عن طريق الدعوة الى البيت العباسي .

وقد وثق به زعيم العباسيين ابراهيم الامام ، وثوقاً دل على بعد نظره وصحة تفكيره . وعهد اليه في ذلك المقـام في ان يتولى أمر شيعته بخراسان ، له الأمر والنهي والسلطان وعلى اتباع العباسيين الخضوع الذي لا تردد فيه .

وكتب ابراهيم الى اصحابه : لقد وليت عبد الرحمن خراسان فأطيعوه ، فهو اميركم وامير ما يغلب عليه بعد ذلك .

وقبل ان يخرج ابا مسلم اوصاه الامام قائلاً : يا عبد الرحمن ، انك رجل منا اهل البيت ، فاحفظ وصيتي وانظر الى هـــذا الحي من اليمن فاكرمهم وانزل بينهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر الا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم. واما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهة ، ومـن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت الا تدع بخراسان من يتكلم العربيـــة فافعل وأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هـذا الشيخ « يعني سليمان بن كثير » ولا تعصه وان اشكل عليك امر فاكتف به مني . وأمـــره بالرحيل ، فخرج الفتى وكله طمع وامل ، حتى اتى خراسان ودفع الى نقبـاء العباسيين كتاب الامام الذي يوليه فيه .

فرأى النقباء ، وجميعهم من اهل الخبرة والرأي ، ان هـذا الغلام الصغير السن ، لا يستطيع ان يتولى امراً خطيراً مثل امرهم ، وقد يهدم مـــا بنوه ويضيع مافعلوه منذ ثمانية وعشرين عاماً .

والتفتوا الى سليمان بن كثير يسألونه رأيه ، فقال له سليمان : ارجـــع يا بني فانت اعجز عن ان تبلغ الغاية .

وكان الامام قد عرض الولاية على سليمان ، ثم على ابراهيم بن سلمة ، فلم يقبلا واعتذرا له .

فرجع ابو مسلم وهو يفكر في هذا الرد ، وكان مؤمناً بان الامارة ستكون له احب سليمان ام كره . ذلك لأنه كان يعلم ان الامام يحبه ؛ وقد خبر اخلاصه

ومروءته وعظمة نفسه ، وعرف اي رجل هو .

رجع وخالد بن ابراهيم الشيباني احد النقباء غائب خلف نهر بلخ ، يدعو الناس الى رجل من اهل البيت .

فلما عاد دفعوا اليه كتاب الامام فقال : اين عبد الرحمن ؟

فخبروه ان سليمان بن كثير رده .

فدعا النقباء جميعهم وقال لهم : اتاكم كتاب الامام فيمن بعثه اليكم فرددتموه اما حجتكم ؟

فقال سليمان : حداثة سنه وخوفاً من ان يعجز عن الامر فنضيع نحن في هذه الارض ويضيع من دعونا من الناس .

قال : هل فيكم احد ينكر ان الله تعالى ، بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، الى جميع خلقه .

قالوا : لا !

قال : أفتشكون ان الله انزل عليه كتابه فيه حلاله وحرامه وشرائعه وانباؤه ، واخبر بما كان قبله ويكون بعده .

- لا !

- أفتشكون ان الله قبضه اليه بعد ان ادى ما عليه من رسالة ربه ؟

- لا !

- وهل تظنون ان العلم الذي أنزله اليه رفع معه او تركه ؟

بل تركه .

- ونظنون انه تركه عند غير أهل بيته الأقرب فالاقرب !

- لا !

- أفتشكون ، ان اهل هذا البيت ، معدن العلم ، واصحاب ميراث رسول الله .

- اللهم لا !

فقال : اما انا فأراكم قد شككتم في أمركم ورددتم عليهم علمهم ، ولو لم يعلموا

ان هـــذا الفتى ، الذي ينبغي ان يقوم بأمرهم ، لم يبعثوه اليكم ، وهو يتهم في نصرتهم والقيام بحقهم .

فقال سليمان : لقد رضينا به فابعثوا اليه .

فخرجت الرسل حتى ادركوه وسألوه باسم النقباء ان يعود .

قال : ورضي سليمان ؟

ـ اجل وهو الذي طلب الينا ان نلحق بك .

فرجع فأطاعوه وخضعوا له وفي نفسه مـــا فيها على سليمان بن كثير شيخ الدعوة الذي رده من قبل .

وكانت عزيمة أبي مسلم ، عزيمة رجل لا يلوى عوده ؛ ولا يخاف ... بل كان رجلاً سفاكاً للدماء ، تساق الناس في ايامه الى الموت، كما تساق النعاج الى الذبح.

ولي امر الشيعة فلم يتردد فيه ولم يضطرب ، ورأى الثورة في خراسان تندلع نارها وتحمل مضر واليمن لواءهـا ، ونصر بن سيار المضري يمشي الى اخماد النار بالنار ، فطاب له والاتون ملتهب ، ان يلعب على الحبلين ويستغل الحزبين .

بدأ بالدعاة بينهم في كل ناحية من نواحي خراسان ، لم يترك واحدة منهـا ان يذكروا بني العباس .

وامر النقباء ورجال الدعوة بان يلجـأوا الى الدهـــاء والحيلة والنعومة في الاسلوب ليصيدوا الناس ،

حتى امتلأت خراسان من أنصار العباسيين . وهؤلاء الانصار لا يعلمون من هو الخليفة الذي يدعون اليه .

وانقضى العام الثامن والعشرون والأمر على ما رأيت، والشيعة تنمو وتكثر، وقد وفر لها المال يبذله لها الانصار والمخلصون .

وقد انتهى الأمر الى الامام ، فكتب الى ابي مسلم يستدعيه اليه ليسأله عن احوال الناس ، فخرج الخراساني ومعه سبعون رجلاً من النقبـاء ، وهو يدعو الناس بالسر في كل بلد يمر به .

وكان يقول لمن يسأله : نحن نريد الحج .

فلما كان بقومس أتاه كتاب آخر من الامام يقول له فيه : بعثت اليك ايةبر النصر فارجع من حيث لقيك كتابي واظهر الدعوة ووجه الى قحطبة بن شبيب بما معك يوافيني به في الموسم .

واتى سليمان بن كثير كتاب مثله .

فقال ابو مسلم وهو يبتسم : لقد أتت الساعة التي تعود فيها الخلافة الى اهل البيت .. ارجعوا فقد امرنا الامام بالرجوع .

وعاد فدفع الكتاب الى سليمان بن كثير .

فجدد النقباء الطاعة لأبي مسلم،ورأوا وهم الأوفياء للدعوة ان الامر سيستقيم له وبنو امية على العرش .

ونزل ابو مسلم قرية منقرى مرو ووجه منها النقباء الى كل بلد بعيد وقريب، يدعون الى بني العباس واوصاهم قائلاً :

مضىعهد السياسة واللين وجاء دور السيف،فاذا عرض لكم عدو فيما تدعون اليه فجاهدوه .

ثم تحول الى قرية أخرى يقال لها سفيذنج ، ونزل على سليمان بن كثير لليلتين خلتا من رمضان .

وقد عاد الكرماني ونصر بن سيار الى القتال ، وعرف الناس ان هنالك دعوة الى بني العباس اظهرها ابو مسلم الخراساني ، فأتاه في ليلة واحدة اهل ستين قرية يجيبونه الى دعوته ويمشون وراءه الى الحياة والموت .

* * *

- ٨ -

قبل ان ينتهي رمضان عقد أبو مسلم لواء الظل الذي بعث به الامام على رمح طوله اربع عشرة ذراعاً وهو يقول :

« أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » .

ثم عقد الراية التي تدعى السحاب ، على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً .

ولبس هو وسليمان بن كثير واخوة سليمان ومواليه الثياب السود ، وأوقدوا النار لشيعتهم ، وكانت النار علامة لهم .

فلما اصبحوا قدم الدعاة بمن أجاب الدعوة ، وهم طوائف كثيرة ، ودخلوا معسكر ابي مسلم وهم يكبرون .

وقد أعـدّ أبو مسلم عدة الحرب لأنه كان واثقـاً بان نصر بن سيار سيوجه اليه الخيل ،

حصّن سفيدنج وسد طرقها ، وأمر في عيد الفطر سليمان بن كثير بان يصلي بالشيعة قائلا له : ابدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة ، وكان بنو اميه يبدأون بالخطبة قبل الصلاة .

ثم كتب ، وقد قوي بمن اجتمع اليه ، الى نصر بن سيار يدعوه الى مـــا يدعو الناس اليه .

فقال نصر لخاصته : هذا كتاب لا جواب له .

ثم مرت الأشهر والجيش يكثر حول الخراساني والأنصار واهـــل الدعوة يحملون اليه الاموال والنعم، فكره ابن سيار ان يدعو ابو مسلم الى بني العباس، وهو الوالي الاموي الذي يبذل حياته من أجل الذين ولوه ولم ير الا ان يحـاربه ليقضي على دعوته .

وجه اليه مولى له يدعى يزيد ومعه الجيش ، فارسل اليهم ابو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي . والتقى الجيشان في احدى القرى ،

فدعا مالك عدوه الى الدخول في الدعوة فلم يجب .

ودارت رحى القتال بينهما من الصباح الى العصر فقال يزيد لقومه : احملوا فليس من الرأي ان نمكث الليلة .

ففعلوا وحمل عبدالله الطائي على يزيد فأسره وفر اصحابه .

وأرسلوا الاسير ورؤوس القتلى الى ابي مسلم ، فأحسن الداهية الى يزيـــد وعالجه حتى اندمل جرحه ثم قال : ان شئت ان تقيم معنـا فقد ارشدك الله ، وان كرهت فارجع الى مولاك سالماً ، واعطنا عهداً أنك لا تحاربنا ولا تكذب

علينا وان تقول فينا ما رأيت .

فرجع الرجـل ، وكان ابو مسلم يقول لمن حوله : ان هذا الأسير سيرد عنكم أهل الورع والصلاح .

فلما قدم يزيد على نصر قال له : لا مرحباً ، فوالله مــا استبقاك القوم الا ليتخذوك حجة علينا .

فاجابه قائلاً : هو والله ما ظننت ، وقــد استحلفوني ان لا اكذب عليهم ، وهم والله يصلون الصلاة في أوقاتها باذان واقامة ، ويتلون القرآن ويذكرون الله كثيراً ، ويدعون الى ولاية رسول الله ، وما احسب أمرهم الا سيعلو . ولولا انك مولاي لأقمت معهم ولم ارجع اليك .

قال : انصرف فلا خير فيك .

وجعل يعد عدته من جديد ليقاتل عدويه : الكرماني وابا مسلم .

* * *

- ٩ -

استعرت النار بين مضر واليمن ، اي بين الكرماني ونصر عند مدينة مرو ، والنصر يبسم للكرماني .

وأبو مسلم يبتسم لصراع العدوين ويدفع الواحـد منهما ، من وراء الستار ، الى القضاء على الآخر .

يكتب الى هذا الصف ما تقرأ :

اني رأيت اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم ، ولئن بقيت لا أدع لها شعراً ولا ظفراً ، ويأمر رسوله بان يجعل طريقه على مضر ليقرأوا كتابه ، ثم يكتب الى الصف الآخر مثل ذلك ويأمر الرسول بان يجعل طريقه على اليمن ليقرأوا مــا كتب ، حتى امسى هوى الاثنين معه .

ثم كتب الى نصر : ان الامام أوصاني بك ولست أعدو رأيه فيك .

وكتب مثل هذا الى الكرماني ، والفريقان في خندقين لهما يتقاتلان .

ثم أقبل بجيشه حتى نزل بين الخندقين وبعث الى الكرماني يقول :

قاتل فأنا معك .

فانضم الرجل اليه واشتد ذلك على نصر ، فأرسل الى عدوه :

ويحك لا تغتر فوالله اني لخائف عليك وعلى اصحابك منه ، فهلم الى مرو نكتب كتاب الصلح ، وهو يريد ان يفرق بين الاثنين .

فخرج الكرماني في اليوم الثاني وحوله مئة فارس ، حتى وقف في ساحة قريبة من نصر وارسل اليه : اخرج لنكتب بيننا الكتاب الذي ذكرت .

فقال نصر في نفسه : لقد دنت ساعته فهو بعيد عن ابي مسلم .

وامر ابن الحرث بن سريج بان يخرج اليه في ثلاثمائه من الفرسان ، ويقاتلوه ، حتى يقتل .

وجالت الخيل فطعن الكرماني فخر عن فرسه ، وحماه أصحابه حتى عجزوا وتراجعوا عنه .

فقتله نصر ، ثم صلبه وانتهى الخبر الى ابي مسلم فقال لعلي بن الكرماني :

لقد قتل ابوك فكن معي . فاقبل علي ومعه الجيش الكثير .

وزحف الاثنان الى مرو حاضرة خراسان يقاتلان نصراً ، حتى اخرجوه من دار الامارة ودخلها ابو مسلم .

فسلم عليه علي عندئذ بالامارة وقال له : مرني بما تشاء فاني مساعدك .

قال : اقم على ما انت عليه حتى يأتيك امري .

وكان نصر بن سيار قد كتب الى امير المؤمنين مروان بن محمد يصف له حال ابي مسلم ومن معه من الناس ، ولم ينس ان يقول له في ذلك الكتاب .

ان ابا مسلم يدعو الى ابراهيم بن محمد العباسي .

وارسل اليه الابيات التي تقرأ :

اری خلل الرماد وميض نار ... واخشى ان يكون لها ضرام

فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب اولها كلام

فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

وبعث بما كتبه الى الخليفة .

وقد ظهر ابو مسلم وبعد صوته، واقبل اليه الناس من كل عشيرة وبلد يريدون ان يساعدوه فيما يدعو اليه .

وهو في خباء له ليس له حجاب وحرس، يأذن للوفود والابتسامة على شفتيه والمكر والدهاء في قلبه وعينيه .

وتحدث اهل خراسان في الاقطار التي تبعد عن مرو قالوا : ظهر رجل من بني هاشم له وقار وسكينة وحلم .

وانطلق فتية منهم الى أبي مسلم .

فلما دخلوا عليه قال احدهم : لقد كدت تظفر بنصر بن سيار فمن انت ؟

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة جوفاء ثم قال : انا ابو مسلم !

قال : أسألك عن نسبك .

قال : خبري خير لكم من نسبي .

- وأسألك عن الفقه ؟

- أمركم بالعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن الى عونكم احوج منا الى ما تسألون .

فقال الرجل : ما نعرف لك نسباً ولا نظنك تبقى قليلاً حتى تقتل .

- ومن يتولى امر قتلي ؟

- شيبان الحروري او نصر بن سيار .

- اما انا فسأقتل الاثنين ان شاء الله .

وكان شيبان يقاتل نصراً ، فخرج القوم فأتوا نصراً فخبروه فقال : جزاكم الله خيراً .

ثم أتوا شيبان فخبروه ، فبعث نصر يقول له : اكفف عني حتى أقاتله وان شئت فكن عوناً لي عليه .

فهم شيبان بان يفعل ، ولكن عين ابي مسلم لا تنام .

لقد كان يعلم ان القوم في خراسان فرق ثلاث :

اليمنيون وقائدهم علي بن الكرماني ، وربيعة وقائدها شيبان الحروري ،

ومضر وسيدها نصر بن سيار امير خراسان .

وهو يخشى ان يتصدوا له وهم مجتمعون فيخسر كل شيء .

فكتب الى علي بن الكرماني : لقد قتل ابوك ونحن نعلم انك لست على رأي شيبان في امر الصلح ، وانما تقاتل لثأرك فامنع ربيعة من صلح نصر .

فدخل ابن الكرماني على شيبـــان فثناه عن رأيه ، فعظم ذلك على نصر ، وقال شعراً يخاطب به ربيعة واليمن ، ويدعو القوم الى الانضمام اليه في حرب ابي مسلم :

ابلغ ربيعة في مـــرو وفي يمن	ان اغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب
ما بالكم تنشبون الحرب بينكم	كأن هل الحمى عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد احـاط بكم	ممـن تأشب لا دين ولا حسب
لا عرب مثلهم في الناس نعرفهم	ولا صريح موالي ان هم نسبوا
من كان يسألني عن اصل دينهم	فان دينهم ان تهلك العرب
قوم يقولون قولاً ما سمعت به	عن النبي ولا جاءت به الكتب

وابو مسلم يرسل قواده ، فيستولون على البلاد ويطردون عمال نصر .

والاقطار تخضع له والسيوف تطرح عند قدميه ، حتى عرفت ربيعة ان ابا مسلم لا يحب احداً ، وانما هو يستغل الموقف ليبلغ غايته .

فقال يحي بن نعيم لربيعة واليمن : اختاروا لكم : اما ان تهلكوا قبل مضر او تهلك مضر قبلكم .

قالوا : وكيف ذلك ؟

قال : ان ابا مسلم ، اظهر امره منذ شهر ، فامسى جيشه مثـــل جيشكم في كثرته وقوته .

– وما الرأي ؟

– صالحوا نصراً ، فانكم ان فعلتم قاتله ابو مسلم وتركـكم ، لأن الأمر في يده ، وان لم تصالحوه صالحه هو وقاتلكم .

فارسل شيبان الى نصر يدعوه الى الصلح ، فاجابه وكتب بينهم عهد .

فلما بلغ ذلك ابا مسلم عتب ابن الكرماني على ما فعل فقال له :
اني لم اصالح نصراً وانما صالحه شيبان وانا لا اترك القتال .
ثم استعرت النار من جديد بين ابن الكرماني ونصر ، فمشى ابو مسلم برجاله
دونا من الجيشين ، وبعث يقول لابن الكرماني : اني معك . وعد جيشه
[illegible] سبعة آلاف رجل .
غير ان الفرق الثلاث ربيعة ومضر واليمن، عرفت غايته وآمنت بأنه يحاول
ان يضم خراسان كلها لسلطانه ، دون ان يسأل عن احد .
وطاب لها ان تلقي السيف وتجتمع كلها على حربه ، الا ابن الكرماني فقد
كان متردداً في امره ، ووافقهم وهو مكره فيما اجمعوا عليه .
وعظم الأمر على أبي مسلم واضطربت نفسه ، وكيف لا يضطرب وعشائر
خراسان كلها تحمل السيف في وجهه وتعرض له .
على انه لم يخرج عن دهائه وهدوئه .
بعث برجاله الى مواضع سماها لهم ليحولوا بين نصر بن سيار وبين المؤونة
التي ترد عليه من بلخ ومرو وطخارستان ، وكان ذلك في آخر السنة التاسعة
والعشرين بعد المئة .

* * *

- ١٠ -

اقبلت السنة الثلاثون والامر على ما رأيت !
فقال أبو مسلم لاصحابه : لقد رأيتم ان العشائر امست كلمة واحدة علينا ،
ولم يبقَ الا ان نجود بالارواح في الميادين من اجل الغاية التي تعلمون .
فأجابوه : هذه ارواحنا نبذلها ولا نبالي .
قال : وفرقوا اذا استطعتم بين مضر واليمن فان الظفر في هذا ،
ثم قال لسليمان بن كثير : قف بازاء ابن الكرماني في الفين من الرجال ولا
تشهر السيف الا اذا بدأ هو ، واعمد إلى دهائك في ارجاعه عن رأيه .
فخرج سليمان يقود رجاله حتى انتهى الى معسكر اليمن ، فقال لعلي بن

الكرماني . أنسيت أبا مسلم ؟

– ما نسيت احداً ولكني رأيت هوى القوم في الصلح ، فلم استطع الا أن أفعل ما فعلوه .

قال : اما تأنف من الصلاة مع نصر في مسجد واحد ، وقد قتل أباك ؟

فاطرق ولم يجب .

فقال سليمان : وماذا تقول العرب عنك وانت عبد لقاتل ابيك .

فرفع رأسه قائلاً : ويحك يا سليمان أأنا من العبيد ، ونصر يخشى ان ينتهي سيفي اليه ؟

– هذا ما يقوله الناس .

– وأبو مسلم ؟

– أما ابو مسلم فيقول : لا اصدق ان ابن الكرماني يحالف نصراً ودم ابيه الطاهر لم يجف !

فقال : صدق والله اني لا احالف قاتلي ، وقد رجعت عن رأيي في الصلح وعدت مع ربيعه و من الى حمل السيف .

– وانقل ذلك الى أبي مسلم ؟

– نعم وسأدعو قومي لاعيد عليهم ما قلته لك .

وما هي الا ساعة حتى عرفت ربيعة واليمن ، وعرف نصر بن سيار ان ابن الكرماني محا عهد صلحه ، وكانت هنالك بقية من الامل في صدر نصر .

كان يظن ان ابا مسلم يؤثر مضر على اليمن ، ولا يأنف من ان يضع يده بيده عند الحاجة .

فبعث اليه يلتمس منه ان يكون عوناً له على القبيلتين. وبعث ابن الكرماني يلتمس من ابي مسلم ما التمسه نصر ، فطابت نفس القائد الداهية وعمد الى الدلال .

وهو لا يرد احداً ولا يبوح بما في صدره لأحد .

ثم أمر الفريقين ، بان يختار كل واحد منهما وفداً يمثل بين يديه . وهو يسمع

الوافدين ثم يقول كلمته .
وقبل ان يجيء الوفدان قال لمن حوله : اذا أتاكم القوم فاختاروا ربيعة واليمن ، فان الشيطان في مضر ، وهم اصحاب الخليفة مروان ورجال دولته .
ودعا اليه سبعين رجلاً من وجوه الشيعة . فلما دخل القوم قال لرجاله : ليم شانكم فاختاروا الآن .
ولكلم اصحاب نصر واصحاب علي ، فقام سليمان بن كثير فقال : لقد اخترنا ابن الكرماني .
وقام نقيب آخر هو طلحة بن زريق فقال : وانا قد اخترته .
على ان مرشد بن شقيق السلمي كان اجرأ القوم اذ قال :
ان مضر قتلة آل النبي ﷺ واعوان بني امية وشيعة مروان الجعدي وعماله، ودماؤنا في اعناقهم واموالنا في ايديهم. ونصر بن سيار عامل مروان يتعدى اموره ويدعو له على منبره ويسميه امير المؤمنين ، ونحن نبرأ الى الله عز وجل من ان يكون نصر على هدى .
ثم جلس وهو يقول : ابن الكرماني خير لنا منه .
وقال السبعون رجلاً ما قاله مرشد ، فنهض وفد نصر عليه الكآبة والذل .
وتم الوفد الآخر ، وقد بلغ غايته .
وقد عرف ابو مسلم عندئذ ان الامر سيستقيم له، ومن الرأي ان يتعجل فيه.
واي خاطر يخطر لأبي مسلم وقد تفرقت كلمة العرب في خراسان .
ليس له الا أن يبدأ بنصر بن سيار فيقضي عليه ، ثم ينظر بعد ذلك في أمر الاعداء الآخرين اصحاب المنزلة والشأن في العشائر .
وبينا هو يفكر في الامر بعث ابن الكرماني يقول له : ادخل مدينة مرو انا وعشيرتي من هذه الناحية ، وتدخل أنت من الناحية الأخرى فيستسلم نصر او يفر .
وكان نصر قد لجأ الى مرو بعد ان نقض الصلح ، فاجابه ابو مسلم : اخشى ان تجتمع يدك ويد نصر على حربي ، ولكن ادخل انت وابدأ القتال .

ففعل علي ما امره به ، ودارت رحى الحرب بين العدوين ، وابو مسلم يرى ذلك وهو خارج مرو لم يدخلها لغرض له .

ثم اقبل فدخل على حين غفلة من الناس والفريقان يتقاتـــلان ، فأمرهما بالكف وهو يتلو احدى الآيات .

ومشى يريد قصر الامارة وقد احس انه سيد الموقف ، ثم قال للنقباء : لقد أتت ساعة البيعة فخذوها من الجند . فخرج طلحة بن زريق يأخذهـا ، وهو عالم بحق بني هاشم ومعايب بني امية وهذه هي :

« أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله ، والطاعة للرضى عن أهـــل بيت الرسول ، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطـلاق والعتاق ، والمشي الى بيت الله الحرام ، وعلى ان لا تسألوا رزقاً حتى يبتدئكم به ولاتكم » .

والناس يبايعون ...

ثم أرسل أبو مسلم لاهز بن قريظ في جماعة من رجاله ، يـدعون نصر بن سيار الى كتاب الله والرضى من آل محمد . ونصر لا يستطيـع إلا ان يظهر رضاه

فلما اقبل القوم قال لهم : سأسير الى أبي مسلم وابايـع .

وجعل يحدثهم حتى غربت الشمس ، فانصرفوا ، فقال لرجاله : اخرجوا الليلة الى مكان تأمنون فيه .

فقال له سالم بن احوز وهو صاحب شرطته : لا نستطيـع ذلك الليلة ، بـل نخرج الليلة التي بعدها .

فلما كان الغد رجع ابن قريظ الى نصر يسأله المسير ، وكان ذلك عند العصر فقال له : ما أسرع ما عدت !

قال : لا بد من ذلك !

قال : لا أظن أن أبا مسلم يلج في طلبه كما تفعل انت ، سأرسل إليه الآن ، فان كان هذا رأيه اتيته .

وجعل يتظاهر بانه يتهيأ للخروج بعد ان يعود الرسول .

فقرأ لاهز بن قريظ : « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج فاني لك من الناصحين » .

فدخل نصر منزله ومكث به حتى جنه الليـل . ثم خرج من خلف حجرته ومعه تميم ابنه ، والحكيم بن نميلة النميري ، وامرأته المرزبانة ولجأوا الى الفرار .

فلما استبطأه لاهز وجمـاعته دخلوا المنزل فوجدوه قد هرب ، فنقلوا الخبر الى أبي مسلم ، فانطلق الى معسكر نصر ، وقبض على ثقاة اصحابه وابطالهم ، بينهم سالم بن أحوز وغيره من وجوه مضر وجعلهم في السجن .

ثم مشى مع ابن الكرماني يطلبان نصراً فلم يدركاه .

فرجعا ، ودعا ابو مسلم لاهز بن قريظ ورفاقه فقال لهم : ما الذي دعا ابن سيار الى الهرب ؟

قالوا : لا ندري .

– وهل تكلم احد منكم بشيء وانتم عنده ؟

فقال احدهم : لقد تلا لاهز هذه الآية : « ان الملأ يأتمرون بك »

قال : إذن هذا الذي دعاه الى الفرار ، ثم قال للاهز بن قريظ :

ويلك ماذا فعلت ، أتدغل في الدين ؟

– لا يا مولاي ولكن خطر لي ان اتلو هذه الآية ففعلت .

– اي انك اردت ان تدعو نصراً ، من وراء الستار ، الى الخروج من مرو .

فاطرق الرجل وارتجفت شفتاه ، فأومأ ابو مسلم الى رجـاله قائلاً : اقتلوه فهذا جزاء الخائن .

فتدحرج رأس المسكين ، على الارض ، عند قـــدمي الخراساني وهو لا ينظر اليه .

ثم التفت الى طلحة بن زريق وقال : ما رأيك في اصحاب نصر الذين عندنا ؟

فقال : اجعل سوطك السيف وسجنك القبر .

فقال : اضربوا اعناقهم ، ففعلوا ، وكانوا اربعة وعشرين رجلاً ، من وجوه خراسان .

وذكر ابو مسلم عندئذ شيبان بن سلمة الحروري ، وكان قد اعتزل القتال وتنحى عن مرو فقال : اين شيبان ؟

فسموا له مكانه ، فأرسل اليه يدعوه الى البيعة .

فقال شيبان : انا ادعو ابا مسلم الى بيعتي .

فغضب فاتح مرو وقال : ان لم يدخل في امرنا فليرحل .

فلجأ شيبان الى ابن الكرماني فتخلى عنه ، فرحل الى بلد آخر ، وانضم اليه الجيش الكثير من بكر وائل .

فقال احد مستشاري أبي مسلم : ابعث اليه من يسأله ان يكف عن عمله .

فارسل اليه تسعة رجال من الأزد فاخذهم شيبان اسرى .

فأمر ابو مسلم ، بسام بن ابراهيم ، مولى بني ليث ، بان يسير الى قتال هذا الخارجي .

وعندما دارت رحى الحرب انهزم شيبان ، فلحق به بسام ، حتى ادركه فقتله .

ووجه ابو مسلم قواده الى بلخ وغيرها ، يفتحونها له ، ويفرقون كلمة ربيعة ومضر واليمن التي اجتمعت مرة ثانية .

ثم رأى هو وخاصته ان يقتل ابني الكرماني علياً وعثمان ، ليخلو له الجو ، فقال لابي داود احد النقباء : تقتل انت عثمان واقتل انا علياً .

وكان عثمان في بلخ فأتاه ابو داود فقال : لقد جعلك ابو مسلم عاملاً له على الجبل ، فخرج فيمن معه من اهل مرو .

فتبعه ابو داود فأخذه واخذ اصحابه ثم ضرب اعناقهم .

وفي اليوم نفسه ، سأل ابو مسلم علياً ان يسمي له وجوه اصحابه وخاصته ليوليهم .

فسماهم واحداً بعد واحد فقتلوا وقتل علي .

وذنب علي وعثمان ابني الكرماني ، ان لهما في خراسان صوتاً بعيداً وكلمة مسموعة ، ولا يطيق الطاغية الخراساني أن يرتفع في خراسان رأس .

* * *

في ذلك العام قدم قحطبة بن شبيب على ابي مسلم ، راجعاً من عند الامام ، ومعه اللواء الذي عقده الامام له .

فجعله ابو مسلم على مقدمته ، وضم اليه الجيوش ، وعهد اليه في ان يعزل من القواد من يشاء ويولي من يشاء .

ثم وجهه الى نيسابور ووجه طائفة من القواد الىالاقاليم التي حولها ، يدعون الناس الى ما يدعو اليه ، ويعمدون الى السيف في إخضاع المترددين .

فمشى قحطبة يريد قتال تميم بن نصر بن سيار الذي عبى اصحابه واصحاب شيبان الخارجي ، الذي قتل وتهيأ للحرب .

ولكنه لم يثبت في المجال غير يوم واحد ، ذلك لان قواد قحطبة ابطال الناس. عبد الملك بن يزيد ، وخالد بن برمك، وعثمان بن نهيك، وخازم بن خزيمة ، هؤلاء كانوا أركان حربه .

وبلغ نصر بن سيار ، وهو ينتقل من بلد الى آخر ، أن ابنه قتل ، فحاول ان يستعيد مكانته في خراسان ويستعيد مجده فخانه القدر .

كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق يسأله أن يوجــه اليه الجيش ليكون عوناً له على عدوه الذي هو عدو امير المؤمنين .

وارسل كتابه مع جماعة من وجوه خراسان يقول فيه :

اني قد كذبت اهل خراسان حتى ما احد منهم يصدقني .. فأمدني بعشرة الاف قبل ان تمدني بمئة ألف لا تغني شيئاً .

فقبض ابن هبيرة على رسل نصر وأمر بهم فسجنوا ، فكتب نصر الى امــير المؤمنين مروان بن محمد :

اني وجهت قوماً من اهل خراسان الى ابن هبيرة ليعلموه امر اعدائك، وسألته ان يوجه الي الجيش ، فسجن رسلي ولم يمدني بأحد . وانما انا بمنزلة من أخرج من بيته الى حجرته ، ثم أخرج من حجرته الى داره ، ثم من داره الى فناء الدار ،

فان ادركه من يعينهُ فعسى ان يعود ، وتبقى داره له ؛ وان أخرج الى الطريق فقد ضيع كل شيء .

فكتب مروان الى يزيد يأمره ان يفعل ، فجهز ابن هبيرة جيشاً كثيفاً وسيره الى نصر .

الحظ لم يخدم نصراً ، فقد مات دون ان يسترجع شيئاً من عزه .

وقحطبة بن شبيب يطوف في الاقاليم ، ويدفع الناس بالحسنى والسيف الى المسير وراء أبي مسلم في الانضمام الى العباسيين .

حتى انتهى الى العراق ، فخرج اليه يزيد بن هبيرة ومعه الجند الكثير ، ومشى الفريقان على جانبي الفرات بالقرب من الكوفة .

ثم تلاحمت السيوف ، على احدى الضفتين ، ويزيد بن هبيرة ، بعيد عن جيشه .

ومرت بضع ساعات ، فانهزم جيش يزيد وصحا الناس من سكرة القتال ، فلم يجدوا قائدهم قحطبة .

فقال احد قواده : سمعت قحطبة يقول : ان حدث بي حادث فابني الحسن أمير الناس .

فقاموا فسلموا الأمر الى الحسن بن قحطبة ، وجعلوا يطوفون بين القتلى ، حتى عثروا على جثة القائد العام في جدول يغمره الماء .

وبالقرب منها جثة ابن احوز ، فظنوا ان كل واحد منهما قتل صاحبه .

وقيل ان معن بن زائدة، ضرب قحطبة عندما عبر الفرات ، فسقط في الماء.

فقال لمن حوله : شدوا يدي اذا نامت وألقوني في هذا الجدول لئلا يعلم الناس بقتلي .

ثم قال قبل موته : اذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا أموركم اليه .

وهرب يزيد بن هبيرة الى واسط واقام بها يتهيأ للقتال من جديد ، وقد ترك جنده وما فيه من الاموال والسلاح غنيمة لجيش خراسان

ولم يلبث الحسن بن قحطبة حتى دخل الكوفة مع أصحابه ، وأتوا أبا سلمة الخلال يعترفون له بالامارة ويسمونه وزير آل محمد .

وأبو سلمة رجل دهاء وحزم وسياسة ورأي .

وقد آمن عندئذ بان الامر سيستقيم لبني العباس وان من الحكمة ان يتعجل في اخضاع المدن والقرى التي لم تخرج عن طاعة الخليفة مروان .

استعمل عـلى الكوفة محمد بن خالد القسري ، وجه حميد بن قحطبة الى المدائن المسيب بن زهير وخالد بن برمك الىاقليم آخر وقواداً آخرين الى الأهواز وعين التمر والبصرة. وأقبل الناس من أهل العراق يبايعون أبا سلمة على الطاعة ويطرحون سيوفهم عند قدميه .

ثم سير الحسن بن قحطبة الى قتال يزيد بن هبيرة بواسط ، وخرج هو ومن بقي عنده من الجيش، فضرب خيامه في حمام أعين على ثلاثة فراسخ من الكوفة

* * *

- ١٢ -

عندما ارسل نصر بن سيار الى الخليفة مروان كتابه الذي يقول فيه :

اری خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام

كتب أبو مسلم الى ابراهيم الامام يصف له حال خراسان، ويعده بالقضاء على كل خراساني هواه في بني امية .

وأوصى رسوله بان يمر بحران البلد الذي يقيم به مروان أمير المؤمنين ويتبين أمر هذا الخليفة الأموي .

فجعل ابراهيم يسأله عن كل شيء ، ثم كتب الى أبي مسلم يلومه على ما بدا من مظاهر اللين ، ويأمره بقتل كل من يتكلم بلغة العرب .

ثم قال له : قل لأبي مسلم ان يفعل ما ذكرته له .

ورجع الرسول فمر بحران، وكان قد انتهى الى الخليفة كتاب نصر بن سيار.

فلما قرأه قال لغلامه : اكتب الى نصر ان الحـاضر يرى ما لا يرى الغائب ، وهذا التردد والضعف في مروان .

فانصرف الرجل، وقبل ان يترك حران رأى رسول أبي مسلم، فعرفه وكان يعلم انه من اعداء نصر .

فقال في نفسه : اعود فأدل الخليفة عليه فقد يكون له شأن .

وعاد فخبر حجاب مروان فنقلوا الخبر الى امـــير المؤمنين ، وهو في قاعة الجلوس والناس عنده فقال : علي بالرجل .

فقبضوا عليه ودفعوه الى المجلس ، فقال الخليفة : من انت ؟

– رجل من خراسان يا امير المؤمنين .

– وما الذي اتى بك ؟

– قدمت لحاجة لي .

قال : بلغني انك من اعداء عاملنا على خراسان ، بل عرفنا انك من أنصار ذلك الرجل المغرور ، الذي يقـــال له ابو مسلم ، والذي يدعو الناس ، الى من لا أعلم .

قال : اعرف ابا مسلم ولكني لست من انصاره .

– والى من يدعو ؟

– لا ادري !

فقام احد الخاصة فقال : يا أمير المؤمنين قد يكون هذا رسولاً لأبي مسلم .

قال : أتحمل رسالة من احد الناس .

– لا احمل شيئاً .

قال : انظروا في ثيابه .

ففعلوا فعثروا على كتاب الامام ، الذي يأمر فيه أبا مسلم بان يقتل كل عربي من اعدائه .

فتناول مروان الكتاب وجعل يقرأ ولحيته ترقص ثم قال: خذوه الى السجن.

وكتب الى عامله بالبلقاء يقول :

اذا اتاك كتابنا فسر الى الحميمة واقبض على ابراهيم بن محمد بن علي وابعث به

الينا مقيداً .

فقدم عامل البلقاء الحميمة مع طائفة من الجند ، ثم دخل بيت ابراهيم الامام وعنده بنوه واخوته واعمامه فقال: من هو ابراهيم بن محمد؟ فقال ابراهيم: انا هو .

قال : امرني امير المؤمنين بان اسيرك اليه والحديد في يدك .

– في اي شيء ؟

– لا اعلم ! فتهيأ للرحيل .

قال : ائذن لي في ساعة أرى فيها اهل بيتي .

فخرج واحاط البيت بالحراس .

فنعى الامام نفسه الى اهله ثم قال :

لقد اتت ساعتي فارحلوا بعد خروجي الى الكوفة ، فان فيها انصاركم .

وأومأ الى اخيه عبدالله بن محمد الذي يكنى ابا العباس قائلاً :

هذا الخليفة بعدي ، فاسمعوا له واطيعوا .

وجعل يوصيهم حتى انقضت الساعة فسلم نفسه الى عامل البلقاء .

فحمل الى حران ومثل بين يدي الخليفة فقال له: أتدعو الى نفسك يا ابراهيم؟ فلم يجب .

قال : وجعلت أبا مسلم عاملك على خراسان وابا سلمة الخلال على العراق ؟

فلم يجب .

فاكتفى الخليفة بقوله : اجعلوه في السجن .

وكان في سجن مروان طائفة من ابنـــاء الخلفاء الامويين ، بينهم سعيد بن هشام بن عبد الملك وولداه وعبدالله بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن الوليد .

ويقول بعض المؤرخين ان الامــــام هلك في وباء وقع بحران ، وهلك بعده العباس بن الوليد وعبدالله بن عمر .

ويقول البعض الآخر : انه سقي سماً .

وهنالك من يقول : هدم عليه بيت فمات .

ورثاه ابراهيم بن هرثمة فقال :

قد كنت احسبني جلداً فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الامام وخير النـــاس كلهم ... بين الصفائح والاحجار والطين
فيه الامـــام الذي عمت مصيبته ... وعيلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفـا الله عمن قال امين

وكان كريماً جواداً ، ولم يجاوز الخمسين من العمر .

* * *

- ١٣ -

في شهر صفر من السنة الثانية والثلاثين بعد المئة ، قدم بنو العباس الكوفة في طليعتهم أبو العباس خليفة الامـــام ، ووراءه اهل بيته : بينهم اخوه ، أبو جعفر المنصور ، وعبد الوهاب ومحمد ابنـا اخيه ابراهيم ، واعمامه عيسى وصالح واسمعيل ، وعبدالله ، وعبد الصمد بنو علي بن عبدالله بن عبـاس ، وغير هؤلاء من ابناء اخوته واعمامه .

وكانت شيعتهم من اهل خراسان ، ووزيرهم ابو سلمة ، في حمام اعين بظاهر الكوفة ، فانزلهم ابو سلمة دار الوليد بن سعيد مولى بني هاشم . وكتم القوادو الشيعة أمرهم نحواً من اربعين ليلة .

ذلك لأنه اراد بعد ان خبر أحوالهم وثبت له موت الامام ان يغير موقفه ويدعو الناس الى آل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه .

ولم يتردد في أمره بل كتب ثلاثة كتب ، احدها الى جعفر الصادق بن محمد الباقر ، والآخر الى عبدالله المحض بن حسن بن الحسن ، والثالث الى عمر الاشرف ابن زين العابدين . وهؤلاء من وجوه آل علي .

وارسل كتبه مع رجل من مواليهم وأوصاه قائلاً : سر اولاً الى جعفر بن محمد ، فان أجاب ورضي بان اظهر دعوته فأبطل الكتابين الآخرين .

— وان لم يجب ؟

ـ الى عبدالله المحض فان اجاب فابطل كتاب عمر ، وان لم يجب فاعط عمر كتابه .

فذهب الرسول حتى اتى جعفر بن محمد ودفع اليه الكتاب .

فقال : ما لي ولأبي سلمة فهو شيعة لغيري .

قال : اقرأ الكتاب .

فقال جعفر لخادمه : ادن السراج مني .

فادناه فوضع الكتاب على النار فاحرقه .

فقال الرسول : ألا تجيبه ؟

قال : هذا هو الجواب .

فمضى الرسول الى عبدالله المحض فقـــال له : هذه رسالة ابي سلمة الخلال ، فقرأها وقبلها .

ثم ركب في الحال الى جعفر الصادق وقال له : هذا كتاب ابي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من اهل خراسان .

فقال له جعفر : متى صار اهـل خراسان شيعتك ، أأنت وجهت اليهم أبا مسلم ؟ وهـل تعرف احداً منهم باسمه أو بصورته ، فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟؟

فاجابه قائلاً : كأن هذا الكلام منك لشيء .

قـال : علم الله اني اوجب النصح على نفسي لكل مسلم ، فكيف ادخره عنك فلا تمن نفسك الاباطيل ، فان هذه الدولة ستتم لبني العباس ، وقد جـاءني مثل الكتاب الذي جاءك .

فانصرف عبدالله وهو غير راض ، اما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صاحبه فاجيبه .

وكان القواد يسألون ابا سلمة عن الامام فيقول : لم يقدم بعد ، وسيجيء ان شاء الله .

وهم لا يعلمون ان بني العباس في الكوفة .

حتى خرج قائد يقال له محمد بن ابراهيم الحميري من حمام أعين، يريد مكاناً آخر.

فلقي خادماً لابراهيم الامام يقال له سابق فعرفه، فقال له : ما فعل ابراهيم؟

قال : ان مروان قتله ، وقد اوصى قبل موته الى اخيه أبي العباس واستخلفه من بعده .

— واين هو ابو العباس اليوم ؟

— في الكوفة وقد قدمها منذ أربعين يوماً مع اهل بيته .

قال : ان شئت فانطلق بي اليهم .

— الموعد بيني وبينك غداً في هذا المكان .

وكره الخادم ان يدله عليهم بدون اذنهم .

فرجع القائد الحميري ، فخبر قائداً آخر يدعى ابا الجهم .

فقال له : سر اليهم غداً وانقل الينا ما تراه .

واحس القواد ان ابا سلمة يحاول ان يكتمهم الامر لغرض له .

ثم عرفوا انه راسل آل علي ، فارادوا ان يحبطوا مسعاه ويستعينوا على امرهم بالكتمان الذي استعان به .

رجع محمد الحميري الى الموضع الذي دله سابق عليه ، فلقي سابقاً فانطلق به الى المنزل الذي نزله العباسيون .

فلما دخل عليهم قال : من الخليفة منكم ؟

فقال داود بن علي : هذا إمامكم وخليفتكم .

واشار الى ابي العباس، فسلم عليه بالخلافة وقبل يديه ورجليه وعزاه بابراهيم وهو يقول :

مرنا بما تشاء .

قال : اين وزيرنا ابو سلمة ؟

— في حمام أعين وقد كتمنا امرك وامر اهل بيتك

— وتعرف الغاية من ذلك ؟

— اعرف هذه الغاية بعد ايام .

ثم قام فانصرف ، وانصرف معه خادم آخر لبني العبـــاس يدعى ابراهيم ابن سلمة .

وقد خبره ان ابا العباس ارسل الى ابي سلمة الخلال يسأله مئة دينـار يعطيها كراء الجمال التي حملتهم الى الكوفة فلم يفعل .

فاتى الحميري أبا الجهم فقص عليه ما جرى فقـــال : نخبر موسى بن كعب ونأخذ المال منه .

ثم خرجا فخبراه ، ولم يلبث هؤلاء الثلاثة حتى ارسلوا الى ابي العبـاس مع خادمه ابراهيم مئتي دينار

واجتمعوا مع عبد الحميد بن ربعي وسلمة بن محمد وعبدالله الطائي وغيرهم من وجوه الجيش على المسير الى أبي العباس دون ان يعلم أبو سلمة . وتركوا المعسكر عندما جن الليل . وبلغ ذلك ابا سلمة .

فسأل عنهم فقيل له : خرجوا الى الكوفة في حاجة لهم .

وأتى القوم ابا العبـاس ، فسلموا عليه بالخلافة وعزوه ، وعاهدوه على بذل الأرواح من اجل خلافته والدفاع عن عرشه .

ثم قام ابو الجهم فقال - ائذن لي يا أمير المؤمنين ، في الرجوع الى المعسكر، ومر هؤلاء بالبقاء حتى اعود .

وما تصنع ؟

- ابعث من ينادي بين الصفوف ، ان امير المؤمنين في الكوفة .

قال : افعل .

فانطلق ابو الجهم وموسى بن كعب ، حتى اتيـا حمام أعين ، ولقيا ابا سلمة فقال : اين كنت يا أبا الجهم ؟

قال : ركبت الى الخليفة الذي، كتمتنا امره .

قال : فعلت لاعد عدة البيعة وامهد أسبابها .

وانتهى الأمر الآن ؟

اجل وانا ذاهب الساعة .

ثم ركب يريد الكوفة ، فأرسل ابو الجهم الى محمد الحميري :
لقد اتاكم ابو سلمة فليدخل وحده على الخليفة ولا تدخلوا معه . فلما اقبل ابو سلمة تراجعوا ودخل وحده .
ثم دخلوا بعد ذلك ، فقال ابو سلمة :
السلام على امير المؤمنين .
فقال محمد الحميري : على رغم انفك .
فاسكته ابو العباس قائلاً : لا تزد.. اما انت يا ابا سلمة فارجع الى المعسكر وتهيأ للبيعة .
قالها وصدره يغلي من الغيظ ، وقد استطاع ان يخفي غضبه .
وكان القوم قد خبروه ان ابا سلمة يؤثر عليه واحداً من آل علي .
ولكن الامر لم يستقم له بعد ، فليس من الحكمة ان يغضب على احد من رجاله ...
وعاد ابو سلمة ، وابو العباس يبتسم له ابتسامة لم يعرف لونها احد .

* * *

– ١٤ –

اصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول ، فلبسوا السلاح ومشوا صفوفاً ينتظرون خروج ابي العباس .
وأتوا بالخيل ، فركب الخليفة العباسي الاول وركب من معه من اهل بيته يريدون قصر الامارة . وأهل الكوفة في الساحات وعلى السطوح يبتسمون للعهد الجديد .
ثم خرج الموكب من قصر الامارة الى المسجد وابو العباس يحس بشيء من التعب والضعف .
وصعد المنبر ، ثم صعد عمه داود بن علي بعده وقام بالقرب منه .
وافتخر ابو العباس في خطبته بقرابته من رسول الله ﷺ وخص الخلفاء الراشدين بكلمة ثناء .

ثم ذكر بني امية فقال : هؤلاء الذين جاروا واستأثروا بكل شيء ، وظلموا الناس حتى انتقم الله منهم بايدينا ورد علينا حقنا .

ثم قال : واني لأرجو ان لا يأتيكم الجور من حيث اتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث اتاكم الصلاح ، وما توفيقنا اهل البيت الا بالله .

وخاطب اهل الكوفة قائلا :

يا اهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل اهل الجور عليكم ، حتى ادركتم زماننا واتاكم الله بدولتنا ، فانتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا . وقد زدت عطاءكم مئة درهم ، فانا السفاح المبيح . وبهذه الكلمة الاخيرة لقب السفاح .

وزاد تعبه فجلس على المنبر .

فقام عمه داود بن علي وكان من افصح بني العباس فقال :

الحمد لله الذي اهلك عدونا واصار الينا ميراثنا من نبينا .

ايها الناس !

الآن طلعت الشمس من مطلعها ورجع الحق في نصابه في اهل بيت النبي ، اهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

لكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل بكتاب الله ونسير بسيرة رسول الله .

تبا لبني حرب بن امية ، وبني مروان، لقد آثروا الدنيا على الآخرة فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وخرجوا في اعنة المعاصي ، وركضوا في ميدان الغي .

وجعل يذكر مظالمهم ، الى ان قال ، وهو يشير الى أبي العباس :

ان امير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، انما قطعه عن الكلام شدة التعب ، فادعوا الله لامير المؤمنين بالعافية ، فقد بدلكم الله مروان، عدو الرحمن، وخليفة الشيطان ، الشاب المقتدي بالسلف الأبرار والأخيار الذين اصلحوا الارض بمعالم الهدى، ومناهج التقوى .

فارتفعت اصوات الناس عندئذ بالدعاء ، ثم قال في آخر الخطبة : ألا وانه

ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله الا امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، وامير المؤمنين عبدالله بن محمد هذا ، واعلموا ان الامر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلوات الله عليه .

ثم نزل ونزل السفاح وراءه ، حتى دخل القصر ، واجلس أخاه أبا جعفر المنصور في المسجد ، يأخذ البيعة على النـاس . فلم يزل يأخذها حتى صلى العصر ، ثم المغرب وجنهم الليل .

وداود بن علي ، وابنه موسى ، لم يكونا في الحميمة عند خروج بني العباس الى الكوفة ، وانما كانا في العراق وقد خرجا منه يريدان الشام .

فلقيهما ابو العباس واهل بيته بدومة الجندل، فسألهم داود عن خبرهم، فقص عليه ابو العباس ما جرى لهما .

ثم قال : تركنا البلقاء الى الكوفة لنظهر بها امرنا .

فقـال داود : يا ابا العبـاس ، تأتي الكوفة وشيخ بني امية مروان بن محمد بحران مطل على العراق ، في اهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن هبيرة بالعراق في جند العرب .

قال : يا عم من احب الحياة ذل .

ثم تمثل بقول الاعشى :

فمـا ميتة ان متها غير عاجز   بعار اذا ما غالت النفس غولها

فقال عمه لابنه موسى : صدق والله ابن عمك ، فارجع بنـا معه ، نعش اعزاء ونمت كرماء .

فرجعوا جميعاً وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك : ان اربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم واهلهم يطلبون ما طلبنا ، العظيمة همتهم ، كبيرة انفسهم ، شديدة قلوبهم .

وكان العباس يذكر قول عمه داود عن ابن هبيرة ومروان .

فلما تمت البيعة خرج السفاح الى حمام أعين ، حيث ينزل ابو سلمة مع وزيره فسطاطاً واحداً بينهما ستر .

وعند الستر حاجب السفاح عبدالله بن بسام .

ثم دعا خاصته وابا سلمة فقال : ماذا تعلم عن مروان بن محمد يا ابا سلمة ؟

- انه خرج الى الزاب يريد قتال عبدك عبد الملك بن يزيد الأزدي ، احد قواد قحطبة بن شبيب الذي قتل في طاعتك .

- ومن هم قواد عبد الملك ؟

- وجهت اليه عيينة بن موسى والمنهال بن قتان واسحق بن طلحة ، ومع كل واحد من هؤلاء ثلاثة آلاف .

قال : احسنت ، وترى ان نبعث اليه اليوم قواد آخرين ؟

- افعل ان شئت يا امير المؤمنين فجيش مروان كثير وهو يبلغ مئة وعشرين الفاً .

فقال لسلمة بن محمد : تخرج غداً في الفين ويخرج عبدالله الطائي في الفين بعد بضعة ايام ، ثم يتبعه بعد ذلك عبد الحميد بن ربعي في الفين .

والتفت الى هؤلاء الذين سماهم قائلاً : افعلوا ما امرتكم به .

ثم قال :

من يسير الى مروان من أهل بيتي ؟

فقال عمه عبدالله بن علي : أنا يا امير المؤمنين .

قال : تجهز وسر غداً .

فخرج القوم في اليوم الثاني حتى بلغوا الزاب ، فتحول عبد الملك بن يزيد عن خيمته وخلاها له ، فقال عبدالله :

دلوني على مكان أعبر منه النهر الى معسكر مروان .

فدله ، فأمر عيينة بن موسى بأن يعبر في خمسة آلاف ويقاتل مروان .

ففعل وظل يقاتله حتى غربت الشمس فرجع الى عبدالله .

واصبح مروان فعقد جسراً على الزاب وعبر عليه ، فقال له وزراؤه : لا تفعل، فلم يسمع لهم .

وسير ابنه عبدالله بن مروان مع قطعة من جيشه .

فقال عبدالله بن علي لقائد يدعى المخارق : اخرج الى القوم .
فالتقيا ، فانهزم أصحاب المخارق وثبت هو .
ولكنه أسر ، فبعث به ابن مروان الى ابيه مع رؤوس القتلى .
فقال مروان : ادخلوا علي رجلاً من الأسرى .
فأتوه بالمخارق نفسه وكان نحيفاً وهو لا يعرفه .
فقال له : انت المخارق ؟
قال : لا بل انا عبد من عبيد الجيش .
– وتعرف المخارق ؟
– نعم .
قال انظر : هل تراه في هذه الرؤوس .
فنظر الى رأس منها فقال : هذا هو .
فخلى سبيله فقال رجل من رجال مروان :
لعن الله ابا مسلم حين ارسل هؤلاء يقاتلنا بهم
وبلغت الهزيمة عبدالله بن علي ، فبادر مروان بالقتال قبل ان يظهر امر المخارق بين الجنود .
امرهم جميع فلبسوا السلاح وخرجوا الى الحرب ، وكانوا عشرين الفاً .
فلما التقى الجيشان قال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز :
ان زالت الشمس ولم يقاتلونا، كانت الخلافة لنا ؛ وان قاتلوا قبل الزوال فانا لله وانا اليه راجعون .
وارسل الى عبدالله يسأله الهدنة ، فقال عبدالله لرسوله :
كذب ابن زريق لا تزول حتى اوطئه الخيل ان شاء الله .
فقال مروان لأهل الشام : قفوا ولا تقاتلوا .
وجعل ينظر الى الشمس ، فحمل احد انسبائه فغضب وشتمه .
وكان عبدالله بن علي قد امر الناس بالنزول، فنزلوا واشرعوا الرماح وجثوا على الركب ، فجعل اهل الشام يتأخرون كانهم يدفعون .

ومشى عم السفاح وهو يقول : يا رب حتى متى نقتل فيك ؟
ثم نادى : يا اهل خراسان يا لثارات ابراهيم !
واشتد بينهم القتال فقال مروان لبني قضاعة : انزلوا فقاتلوا .
فاجابوه قائلين : قل لبني سليم فلينزلوا .
فارسل الى السكاسك يقول : احملوا !
فقالوا له : قل لبني عامر فليحملوا .
وهكذا قالت العشائر التي انضوت تحت لوائه .
فقال لصاحب شرطته : انزل ، فقال : والله ما كنت لأجعل نفسي غرضاً .
وكان مروان في ذلك اليوم لا يرى امراً الا كان الخلل فيه .
امر بالاموال فأخرجت فقال للناس : اصبروا وقاتلوا فهذه الاموال لكم .
فاصاب الناس من ذلك المال فقيل له : ان الناس قد مالوا الى مالك ولا نأمن ان يذهبوا به .
فقال لابنه عبدالله : سر في اصحابك فاقتل من اخذ من هذا المال .
فمال عبدالله برايته واصحابه فصاح الناس :
الهزيمة الهزيمة ..
فانهزم مروان وانهزموا وقطع الجسر ، وكان الذين غرقوا في ذلك اليوم اكثر من الذين قتلوا .
وكتب عبدالله الى السفاح بالفتح ، واخذ ما تركه جيش مروان من سلاح وذخيرة ومال .
فاجابه السفاح : لا تكتف بهزيمة مروان ، بل الحق به الى حيث يذهب .
وكان مروان قد ذهب الى الموصل ، وعليها هشام بن عمر التغلبي وبشر ابن خزيمة .
فلما ابصر مروان وجيشه رفعا الجسر .
فناداهما اهل الشام : هذا امير المؤمنين مروان ، فقالا : كذبتم ان امير المؤمنين لا يفر .

وجعل اهـــل الموصل يسبون الخليفة ويقولون : يا جعدي ، الحمد لله الذي أزال سلطانـكم وذهب بدولتكم ، الحمد لله الذي اتانا باهل بيت نبينا .

فلما سمع الخليفة الشقي ما يقولونه ، سار الى بلد آخر ثم عبر دجلة الى حران وعاملها ابان ابن أخيه .

ومكث بها حتى قدم عبدالله بن علي ، فحمل اهـــله وماله ومضى منهزماً يريد حمص .

وبايعت حران والجزيرة ومن فيها وامنها عبدالله .

ولقيت حمص الخليفة الطريد بالسمع والطاعة ،فأقام بها ثلاثة ايام، ثم غادرها في اليوم الرابع الى دمشق .

ولكن اهل حمص طمعوا فيه عندما رأوا قلة من معه وكانوا يقولون : مرعوب منهزم .

ثم لحقوا به على بضعة اميال ، فلما رأى الخيل كمن لهم ، حتى جـاوزوه ، فظهر فيمن معه يناشدهم ألا يقاتلوه ،

فلم يرضوا فقاتلهم ، فقتل البعض وانهزم البعض الآخر .

وانصرف مروان الى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان .

فقال له : لقد ظفر بي بنو العباس على الزاب ، فاذا اتوا دمشق فقاتلهم، حتى يجتمع اهل الشام وأنا ذاهب الى فلسطين .

وكان عبدالله بن علي قد مر بحران كما قرأت ، مر بقنسرين وحمص وبعلبك والناس يبايعونه حتى انتهى الى الغوطة .

ومعه من رجال السيف عبد الملك بن يزيد الأزدي وبسام بن ابراهيم وحميد ابن قحطبة واخواه وعبد الصمد وصالح ابنا علي .

ثم مشوا ، فحضروا دمشق ، ولم يلبثوا حتى قتلوا عاملها ، ودخلوهـا من جميع ابوابها وقد دان اهلها لهم .

ومكثوا بها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرفوا الى فلسطين ، فلقيهم اهل الاردن وقد بايعوا وخضعوا .

وكتب السفاح الى عمه عبدالله يامره بارسال عمه صالح في أثر مروان ، وقد سار مروان يريد صعيد مصر .

فلحق به صالح بن علي ، وعلى مقدمته عبد الملك بن يزيد ، وعامر بن اسمعيل الحارثي .

وبلغوا العريش فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام .

وسار صالح فنزل النيل ، ثم اتى الصعيد ، ونزل موضعاً يقال له ذات السلاسل .

ولقي عبد الملك وعامر بن اسمعيل وشعبه بن كثير خيلاً لمروان ، فهزموا من هزموه واسروا من اسروه .

ثم سألوا الأسرى عن مروان فخبروهم بمكانه على ان يؤمنوهم .

فمشوا اليه فوجدوه نازلاً في كنيسة في بوصير .

فقاتلوه ليلاً ، وكان رجال صالح في قلة فقال عامر بن اسمعيل :

ان اصبحنا ورأوا قلتنا اهلكونا ولم ينج منا احد .

وكسر جفن سيفه ، وفعل أصحابه مثله ، ثم حملوا على اصحاب مروان ، فهزموهم وطعن رجل مروان وهو لا يعرفه .

فصاح صائح : صرع امير المؤمنين .

فسبق اليه رجل من اهل الكوفة ، كان يبيع الرمان فاحتز رأسه .

واخذه عامر فبعث به الى صالح بن علي، فلما رآه أمر ان يقص لسانه ففعلوا فاخذ لسانه هر .

فقال صالح : ماذا ترينا الايام ؟ . . هذا لسان مروان اخذه هر .

وسيره صالح الى ابي العباس السفاح ، فلما رأى رأس مروان سجد ، ثم رفع رأسه فقال :

الحمد لله الذي اظهرني عليك واظفرني بك ثم تمثل :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ودخل عامر بن اسمعيل الكنيسة بعد مقتل مروان ، وفيها نساؤه وعندهن خادم أمره مروان بقتلهن بعد موته .

فأخذهن عامر وسيرهن الى صالح بن علي .

فلما دخلن عليه قالت ابنة مروان الكبرى .

يا عم ! امير المؤمنين حفظ الله لك من امرك ما تحب حفظه ، نحن بنـــاتك وبنات اخيك وابن عمك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا .

قال : والله لا استبقي منكم احداً ، ألم يقتل ابوك ابراهيم الامام ؟ ألم يقتـل هشام ابن عبد الملك زيد بن علي الحسين وصلبه في الكوفة ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل ابن زياد مسلم بن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي واهـــل بيته ؟؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه ؟ فما الذي يحملني على الابقاء عليكن ؟

قالت · فليسعنا عفوكم .

قال : أما هذا فنعم ، وان احببت زوجتك ابني الفضل .

قالت : واي عز خير من هذا ، ولكن ان شئت فارسلنا الى حران .

فحملهن إليها ، فلما دخلنها ورأين منازل مروان ، وقد لعبت بهـــا يد التخريب ، رفعن اصواتهن بالبكاء .

وكان عبيد الله وعبد الله ابنا مروان قد هربا الى ارض الحبشة ، فلقيا في تلك الأرض بلاء وقتل عبيد الله .

اما اخوه فنجا وبقي الى خلافة المهدي .

وقتل آخر الخلفاء الامويين وعمره اثنتان وستون سنة .

وكانت خلافته من حين بويـع الى ان قتـــل خمس سنين وعشرة اشهر وستة عشر يوماً .

وكان يلقب بالحمار والجعدي ، لانه تعلم من الجعد بن درهم مذهبـه في القول بخلق القرآن وغير ذلك .

* * *

بلى على السفاح وقد قتل مروان ان يقضي على يزيد بن هبيرة .

وابن هبيرة بطل من ابطال العرب وحوله طوائف كثيرة تفديه بالمهج .

كان الحسن بن قحطبة يحاصر ابن هبيرة في واسط ، وقد طال امر الحصار واشتد .

فوجه اليه السفاح ابن اخيه عيسى بن موسى ليكون عوناً له .

ثم وجه اخاه ابا جعفر المنصور واحتدم القتال ، وظلت الحرب أحد عشر شهراً ، وابن هبيرة داخل في نطاق ضيق من جنود العباسيين .

حتى انتهى الى واسط خبر قتل مروان في بوصير ، فرأى ابن هبيرة ان يطلب الصلح .

ثم جرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له اماناً وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة أربعين ليلة يشاور العلماء فيه حتى رضيه .

وبعث به الى ابي جعفر .

فبعث به أبو جعفر الى السفاح فأمره بان يمضيه .

ولم يشأ الخليفة الا ان يشاور ابا مسلم في امره فكتب ابو مسلم يقول :

ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة .

فعول السفاح على قتله ، اما ابو جعفر فكان رأيه ان يفي له .

وعندما انتهى امر الكتاب، خرج ابن هبيرة الى أبي جعفر في الف وثلثمائة، واراد ان يدخل وهو راكب .

فعرض له الحاجب سلام بن سليم فقال : مرحباً ابا خالد انزل راشداً .

فنزل وحول منزل المنصور عشرة آلاف خراساني .

ثم دخل وحده بعد دخول القواد، فدعا له ابو جعفر بوسادة وحادثه ساعة ثم قام ، ومكث يأتيه يوماً ويتركه يوماً ووراءه مئات من الرجال .

فقيل للمنصور : يجيء بن هبيرة فيتضعضع له الجيش ومـــا نقص شيء من سلطانه ،

فأمره بان لا يأتي الا في حاشيته .

وانقضت على ذلك أيام،فكتب السفاح الى ابي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة، وهو يراجعه حتى كتب اليه :

والله لتقتلنه او لارسلن اليه من يخرجه من حجرتك ثم أتولى قتله .

فلم يستطع أبو جعفر الا ان يفعل ما امره به ، وكان يوم قتل فيه ابن هبيرة وطائفة من وجوه اصحابه ومداد الأمان لم يجف .

ورثاهم منقذ بن عبد الرحمن الهلالي بقصيدة منها :

عـــالي نعيمهم فقلت له	هلا اتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنـــا	ان قد حوته حوادث الدهر
من للمنـــابر بعد مهلكم	او من يسد مكارم الفخر
فاذا ذكرتهم شكا ألمـــاً	قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما ينهنههم	الا عباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم	خير الحماة ليالي الذعر

وكان ابن هبيرة في ذلك الزمن اعظم انصار الامويين .

* * *

- ١٦ -

السفاح

هو ابو العباس ، عبدالله بن محمد بن علي ، بن عبد الله بن عباس اول من تولى الخلافة من العباسيين .

بويع يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة ١٣٢ (٣٠ تشرين الاول سنة ٧٤٩ مسيحية) وكان مروان لا يزال حياً .

ثم قتل مروان في ٥ آب سنة ٧٥٠ ومن هذا اليوم يبتدىء تاريخ خـــلافة بني العباس .

ولد السفاح سنة ١٠٤ بالحميمة وكان عمره يوم تربع في العرش ثمانية وعشرين عاماً ، وهي سن النزق والشباب والطيش .

ولكن السفاح الشاب كان يعلم انه خليفة المسلمين وانه الرجل الذي نقل الملك من بني امية الى بيته .

بل كان يعلم ان جده واباه بعثا بالدعاة الى خراسان من اجل الخلافة ، قبل ان يولد ، فلا يضيع بالاستخفاف والطيش ، جهـــاد اثنتين وثلاثين سنة ، وهو امنية قومه وأمل أمته .

قال المؤرخون : كان السفاح كريماً كثير الحياء طيب الاخلاق ، له في المجلس وفي الجيش هيبته ووقاره .

وليس لك ان تقول انه وقار الخليفة الجالس على العرش .

وكان ذكياً حازماً ، تبدو في سياسته واعماله تلك المروءة التي هي حيـــلة الرجال .

اضف الى ذلك ، قسوة لا تجد مثلها ، في الدول الناشئة ، المنتقلة من عهـد الى عهد .

اجل ان الملوك والقواد الذين ساعدهم القدر في انشاء ملك جديد ووضعوا بايديهم دعائم هذا الملك ، ان هؤلاء الملوك كانوا قساة عند وضعهم الحجر الاول وكانوا مكرهين على استعمال القوة ، ليسندوا البناء الذي رفعوه ، ولكن قسوتهم كانت الى حد .

اما ابو العباس وماحوله من انسباء واعمام ، فقد فعلوا في تبديد شمل الامويين ما لم يفعله احد من قبل كما سيجيء .

أجروا الدماء ونبشوا القبور واحرقوا الجثث ، وانها لوحشية لا تدخل في بناء الدولة وتأسيس الملك .

وكان السفاح داهية يعطي الناس من هذه الناحية ويحصي عليهم انفاسهم من الناحية الاخرى ، ليلمس بيديه الاثنتين ذلك الموضع الذي وضع ماله فيه .

وتستطيع ان تقول ان الخليفة العباسي الجديد كان قاسياً وليـــناً في وقته

واحد ، وكان الخطر يكمن في لينه كما يكمن في قسوته .

وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فقد كان دستور العباسيين القتل على الظنون والشك . وهذا ابو مسلم الخراساني حامي دستورهم ومنفذه ، يقتل ما طاب له القتل ويشرب من الدم البريء كل يوم ولا يرتوي .

كان على عرش الروم في القسطنطينية يوم تولى السفاح قسطنطين الخامس ٧٤١ - ٧٧٥ وعلى عرش فرنسا بابن لبراف .

وقد بدأت خلافة السفاح بالكوفة، ثم انتقل منها الى الحيرة ، ثم الى الانبار. وقد ثبت للمؤرخين ان العباسيين كانوا يكرهون اهل الكوفة، لانهم كانوا يعلمون انهم شيعة علي بن ابي طالب .

* * *

- ١٧ -

قيل للسفاح وهو في مجلسه وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك :

بالباب رجل حجازي اسود متلثم يستأذن ولا يبوح باسمه ، ويحلف انه لا يحسر اللثام عن وجهه الا بعد دخوله .

قال : هذا مولانا سديف الشاعر يدخل ،

فدخل ، فلما رأى سليمان بن هشام ، حسر اللثام عن وجهه وانشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان : قتلتني يا شيخ .

ودخل السفاح ، ثم اخذ سليمان فقتل .

وهذا الذي صنعه السفاح لا يذكر عند الحادث الوحشي الغريب الذي احدثه عمه عبد الله بن علي .

دخل عليه شبل بن عبد الله مولى بني هاشم وعنده نحو تسعين رجلاً من بني امية على الطعام .

قال شبل :

اصبح الملك ثابت الاساس	بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها	بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً	واقطعن كل رقلة وغراس
خوفهم اظهر التودد منهم	وبهم منكم كحز المواسي
ولقد ساءني وساء قبيلي	قربهم من نمارق وكراسي
انزلوها بحيث انزلها الله	بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً	وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران امسى	ثاوياً بين غربة وتناسي

قالها والبغض يتلألأ في عينيه وهو ينظر الى الامير ، وعبدالله بن علي لا يحتاج الى اكثر من هذا .

ان كلمة واحدة يقولها نمام صغير النفس ، تكفي لقتل طائفة من الرجال الابرياء .

امر عبدالله رجاله فضربوا ضيوفه التسعين بالعمد حتى قتلوا جميعاً ، ثم بسط عليهم الانطاع واكل الطعام عليها وهو يسمع انين المحتضرين .

والله ان الذئب الشره الجائع لا يفعل مثل عبدالله .

ومع ذلك فلو رضي بما صنع لهان الامر ، ولكنه أمر فنبشت قبور بني أمية في دمشق .

نبش قبر معاوية ، اول الخلفاء الامويين ، فرأوا فيه خيطاً مثل الهباء .

ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه عظاماً كأنها الرماد .

ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته ، وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو .

الا هشام بن عبد الملك فقد وجد صحيحاً لم يبل منه غير ارنبة انفه .

فضرب الجثة بالسياط ثم صلبها ، وخطر له بعد ذلك ان يحرقها ويذريها في الريح .

ثم مشى في اثر ابناء الخلفـــاء من الامويين ، فلم يفلت منهم غير الرضيع ، وادرك بعض الهاربين الى الاندلس ، فقتلهم بنهر ابي فطرس ، وهو قرب الرملة من ارض فلسطين .

وكان بين القتلى محمد بن عبد الملك بن مروان ، والغمر بن يزيد بن عبدالملك ، وعبد الواحـــد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد بن عبد الملك ، وابو عبيدة ابن الوليد .

وقيل ان الخليفة المخلوع ابراهيم قتل معهم ، واستصفى عبدالله كل شيء كان لهم فلما فرغ منهم قال :

بني اميــة قد افنيت جمعكم	فكيف لي منكم بالاول الماضي
يطيب النفس ان النار تجمعكم	عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لا اقـــال الله عثرتكم	بليث غاب الى الاعداء نهاض
ان كان غيظي لفوت منكم فلقد	منيت منكم بما ربي به راض

وتناقل الناس في كل بلد خبر الحادث الفظيع الذي رأيت .

فقام سليمان بن علي امير البصرة يتشبه باخيه عبدالله ويقتل طوائف الأمويين الذين عنده ، ثم زاد فجروا بارجلهم ، والقوا على الطرق ، فأكلتهم الكلاب .

ولم يلبث داود بن علي ، حتى قتل في مكة والمدينة من قتل منهم ، وذلك باغراء الشاعر ابراهيم بن هرمة الذي قال :

فلا عفا الله عن مروان مظلمة	ولا أمية بئس المجلس البادي
كانوا كعاد فامسى الله اهلكهم	بمثل ما اهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبني من هاشم احد	فيما اقول ولو اكثرت تعدادي

حتى اشتد خوف البقية الباقية من الامويين وتشتت شملهم واستخفى مـن قدر منهم على الاختفاء .

وكان عمر بن معاوية ، احـــد احفاد عتبة بن ابي سفيان من اولئك الذين استطاعوا ان يحتجبوا عن العيون .

ولكنه لم يكن يأتي مكاناً الا عرف فيه ،

فضاقت به الأرض ولم ير اخيراً وقد ضيع الامل، الا ان يمثل بين يدي سليمان ابن علي عامل البصرة ويطلب اليه ان يرفق به .

ودخل على سليمان وهو لا يعرفه فقال :

لفظتني البلاد اليك ودلني فضلك عليك، فان رددتني سالماً امنت وان قتلتني استرحت .

قال : ومن انت ؟

- عمر بن معاوية احد الامويين .

قال : مرحباً بك ما حاجتك ؟

- ان الحرم اللواتي انت اولى الناس بهن واقربهم اليهن قد خفن لخوفنا ، ومن خاف خيف عليه .

فبكى سليمان كثيراً ثم قال :

يا ابن اخي يحقن الله دمك ويحفظك في حرمك ويوفر عليك مالك ، والله لو امكنني ذلك في جميع اهلك لفعلت ، فكن متوارياً كظاهر وآمناً كخائف ولتأت لي حاجاتك كلما خطر لك .

وكان عمر يكتب اليه كما يكتب الرجل الى ابيه وعمه .

ثم كتب سليمان الى السفاح : يا امير المؤمنين ، لقد وفد علينا وافد من بني امية ، ونحن انما قتلناهم على عقوقهم لا على ارحامهم ، فاننا يجمعنا واياهم عبد مناف ، والرحم ترفع ولا توضع ؛ فان رأى امير المؤمنين ان يهبهم لي فليفعل وان فعل فليجعل كتاباً عاماً الى البلدان يقول فيه : نشكر الله تعالى على نعمه واحسانه الينا . فأجابه الى ما سأل .

وكان هذا اول امان بني امية بعد ان تفرق شملهم قتلاً وتشريدا في كل قطر .

وطابت نفس السفاح من هذه الناحية ، ولكن بني العباس كانوا قد خلقوا بايديهم دولة اسلامية اخرى وضع اساسها في الاندلس رجل اموي . وستقرأ ذلك في الفصول التي ستجيء .

على ان السيف لم يتناول الامويين اعداء بني العباس فحسب ، بل تناول

اقرب الناس اليهم وابعدهم صوتاً في دولتهم الفتية .

ثارت الفتن في حوران ودمشق والجزيرة وقنسرين، فبعث السفاح عمه عبدالله فاخمد النار واعاد الناس الى الطاعة .

وكان قد انتقل الى المدينة الهاشمية قرب الكوفة وعرف اهل دولته المقربون إليه ، بل عرف اهل المدينة جميعهم ، انه تغير عـــلى وزير آل محمد ، ابي سلمة الخــلال .

وكيف لا يتغير وقد أخبروه انه راسل آل علي بن ابي طالب ليرفع احدهم الى العرش .

ثم رأى بعينيه تردده في دفع كراء الجمال، التي حملتهم من البلقاء الى العراق، وسمع باذنيه اولئك القواد رفاق ابي سلمة يقولون: كتمنا الامر أربعين ليلة، كأنه لا يريد ان نبايع بني العباس ، وخاف ابو سلمة ان ينتهي به الامر الى القتل .

فاعتزل مجلس السفاح وقعد في منزله وهو يلوم نفسه على ما بدر منه .

وكان يظن كلما رأى حاجباً من حجاب قصر الخلافة ان ساعته قد دنت

والسفاح ساكت يشاور نفسه في امره ، ثم كتب اخيراً الى ابي مسلم يقول ان اعظم خائن في دولتنا ابو سلمة الخلال .

وقص عليه في الكتاب ما سمع ورأى وسأله ان يبعث برأيه، واهون الامور عند ابي مسلم امر القتل .

كان قتل المجرم او البريء يكلفه كلمتين اثنتين لا غير .

كان يقول : اقتلوا هذا فيقتل دون ان يسألوه عن سبب القتل .

فلما اتاه كتاب امير المؤمنين كتب اليه : اذا كان امير المؤمنين قد اطلع على ذلك منه فليقتله .

فهم السفاح بقتله ، فقال له عمه داود بن علي : لا تفعل يا امير المؤمنين .

ماذا ؟

- لان ابا مسلم سيحتج عليك ، واهل خراسان الذين معك اصحابه وحاله فيهم هذه الحال الذي رأيت .

قال : يظهر ان هواك في العفو عنه .

- لا ولكن لي رأياً ارجو ان تصغي اليه ، هو ان تأمر ابا مسلم بان يرسل اليه من يقتله .

قال : اصبت .

وفعل السفاح ما اشار به داود ، ولم يلبث ابو مسلم حتى ارسل مرار بن أنس الضبي ليتولى امر قتله .

وقدم مرار فأخبر امير المؤمنين انه جلاد الخلال .

فصبر يومين ثم امر منادياً فنادى : ان امير المؤمنين قد رضي عن ابي سلمة .

ودعاه اليه فكساه واعطاه .

ثم دخل عليه بعد ذلك ومكث عنده عامة الليل ، ثم انصرف الى منزله ولا رفيق له .

فعرض له مراد بن أنس ومن معه فضربوه فقتلوه .

وقال الناس عند الصباح : قتله الخوارج .

ثم اخرج فصلى عليه شقيق السفاح يحيى بن محمد ودفن بالمدينة الهاشمية .

وقام عندئذ من يقول للسفاح : الا تظن يا امير المؤمنين ان ابا سلمة فعل ما فعل برأي ابي مسلم .

فاضطرب الخليفة ثم قال : ان كان هذا رأي ابي مسلم فقد عرض لنا بلاء لا يدفعه عنا غير الله عز وجل

وجعل يفكر في امره حتى عول اخيراً على ارسال اخيه أبي جعفر الى خراسان ، يتبين حال ابي مسلم من وراء الستار .

وسافر ابو جعفر ، فاستقبله الخراساني ، كأنه ملك يستقبل ملكاً .

وفي خراسان عبيد الله بن الحسن من آل علي بن ابي طالب ، وقد جالس ابا جعفر ، كما جالسه سليمان بن كثير ، شيخ الدعوة العباسية .

فلما انصرفا قال سليمان لابن الحسن : يا عبيد الله كنا نرجو ان يتم هذا الامر لكم فاذا شئتم فادعونا الى ما تريدون .

فظن عبيدالله انه من جواسيس أبي مسلم .

وخاف ان يغضب أبو مسلم فيخسر عنقه ، فاستأذن ودخل ، وعنده أبو جعفر ووجوه الناس ، إلا سليمان بن كثير فلم يكن حاضراً .

فقال عبيدالله : لي كلمة اقولها أيها الامير .

قال : قل ما تشاء .

– كلمة سر !

فدخل حجرة له وامره بان يلحق به .

ثم قال : قل الآن .

– ان سليمان بن كثير كان يرجو ان يتم أمر الخلافة لنا .

فتراجع ابو مسلم واضطربت يداه وهو لا يصدق ما سمع ثم قال: أعد كلمتك.

فاعادها وهو هادىء .

– متى قالها لك ؟

– بعد خروجنا من عند الامير ابي جعفر .

– وتحلف لي ؟

– اجل وطلب الينا أن ندعوه الى ما نريد .

فرجع الى مجلسه وقال لحاجبه : يا غلام ادع سليمان بن كثير .

فاقبل سليمان واهل المجلس لا يعلمون لماذا دعاه فقال له : يا سليمان ، أتحفظ قول الامام لي ؟

– لا ادري اي قول تريد .

– ألم يقل لي من اتهمته فاقتله ؟

– بلى !

فابتسم كما يبتسم النمر المفترس وقال : اني قد اتهمتك .

فرقصت لحية الشيخ وجعل يقول : انشدك الله ايها الأمير .

قال : لا تناشدني فانت منطو على غش الامام ، وابو جعفر ينظر الى الاثنين وهو ساكت ، ثم قال ابو مسلم : اضربوا عنقه .

فضربت عنق الرجل الذي كان اعظم دعاة بني العباس شأناً ، ولم يخطر لابي مسلم ان يقول لأبي جعفر كلمة او يسأله رأيه فيما فعل .

كأن ابا جعفر ، شقيق امير المؤمنين ، وحـامي الدولة العباسية ، رجل من العامة لا منزلة له ولا شأن . او كأنه رجل لا يستحق ان يسأل عن رأيه .

وامسى سليمان بن كثير ، كأنه لم يكن وحفظهـا ابو جعفر في صدره ، وقد عظم عليه امر هذا الاستخفاف .

ولم يلبث حتى رجع الى السفاح فقال له : ماذا رأيت في خراسان ؟

فخفض ابو جعفر صوته قائلاً : يا امير المؤمنين، لست خليفة ولا آمرك بشيء ان لم تقتل ابا مسلم .

لماذا ؟

لأنه لا يصنع الا ما أراد .

واخبره ما جرى .

قال : وقتل سليمان ؟

قتل ولم يعبأ احد به .

قال : اكتمها ولا تبح بها للناس .

ولكن الناس سيعلمون .

ليعلموا بعد حين .

واي رأي لك في أبي مسلم ؟

الرأي ان نسكت عنه .

قال : قد يطمع فيك وقد يخطر له ان يثب على الخلافة .

اما طمعه فينا فذلك حقه ، لأنا جعلناه من اهل بيتنا وفوضنا اليه ان ... ويسجن ويقتل ويفعل ما يشاء في سبيل تحطيم العرش الأموي . واما انه ... الخلافة فذلك امر لا يفكر فيه ونحن اخبر الناس به .

قال : لو رأيته وهو في قصر الامارة في خراسان ، لقام في ذهنك انه لم يقم ... الدولة اعظم منه حتى ليخيل اليك أنه خليفة .

– أعد علي ما فعل .

– وشي له بسليمان بن كثير وانا حاضر ، ثم امر به فحملوه اليه ، فحكم عليه بالموت وضربت عنقه دون ان يسألني رأيي فيه . ووالله لو حكم أمير المؤمنين على احدهم بالموت لسأل خاصته عما يرون .

– فعل ذلك حفظاً لهيبته في خراسان .

– وكيف ذلك ؟

– لقد كره ان يظن الناس أنه يخافك .

– ولكني أخو امير المؤمنين وولي نعمته .

قال : نسيت أن أخاك ابراهيم الامام هو الذي ولاه ، ولولا شدته التي ظهرت في خراسان ، لما استقام لنا هذا الأمر الذي دعونا اليه .

ونسيت يا امير المؤمنين أن أبا مسلم مولى من موالينا لا نسب له .

قال : يا ابا جعفر ، ألا ترى جيوشنا المنتشرة في الجزيرة وفارس والعراق والشام يفتحون البلاد لبني العباس .

– بلى !

– ألا تعلم ان معظم هذه الجنود من الموالي الذين لا تعرف لهم نسباً .

قال : لا أطيق يا امير المؤمنين ان يستخف بي عامل من عمال دولتك وانا اخوك ومن قواد الجند .

– وانا لا اطيق ان يخرج هذا العامل عن حده .. ولكن ما حيلتنا والعرش لم يثبت الا بسيفه ، وليس من الرأي ان نغضبه ونحن بحاجة الى رضاه .

قال : أتراه يشاورك في أمر عماله ، الذين يستعملهم على النواحي ، في ذلك القطر ؟

– لا !

– وكيف ترضى بذلك وأنت أمير المؤمنين ؟

قال : له ان يعزل من يشاء ويولي من يشاء وبهذا امرناه .

– اما أنا فأخشى ان يستخف بك غداً كما استخف بي .

.. ويغدر بنا كما غدر بأبي سلمة الخلال .

- نعم !

قال : يكفي ان يذكر ابا سلمة فلا يفعل .. لا ! ان ابا مسلم لا يستخف ولا يغدر انه سيف دولتنا وقاهر اعدائنا .

ونهض قائلاً : يا غلام ادع عمنا عيسى .

ثم قال لابي جعفر : سنوليه أمر فارس وسيكون من عمال أبي مسلم .

قال : لقد وجــه أبو مسلم محمد بن الاشعث الى فارس وامره بان يقتل العمال الذين ولاهم ابو سلمة قبل ان تقدم الكوفة .

- وعلى اي شيء يدلك هذا ؟

- على ان الخراساني لا يريد الا ان يكون هؤلاء العمال من رجاله .

- بل يدلنا على اخلاصه لبني العباس .

واقبل عيسى بن علي فقال له السفاح : يا عم لقد استعملناك على فارس فان شئت فسر اليها بعد بضعة ايام .

قال : سمعت واطعت .

ومثل بين يدي الخليفة في تلك الساعة رسول من الموصل يحمل كتــاباً من عاملها محمد بن صول .

وقد جاء فيه : ان اهل الموصل امتنعوا عن طــاعتي وهم يكرهون ان يلي امورهم مولى الخثعم .

فقال الخليفة للرسول : أليس من العار على والي الموصل ، ان يعترف بعجزه عن اخضاع الناس .. اين يحيي ؟

فخرج الغلام يدعو يحيي بن محمد أخا الخليفة .

فلما دخل قال له اخوه : يا يحيي أتعرف ان تخضع اهــل الموصل وتعيدهم الى الطاعة ؟

قال : اخضع الانس والجن لأمير المؤمنين .

قال : خذ اثني عشر الف رجل وافعل ما شئت .

ثم قال لوزيره أبي الجهم بن عطية ولصاحب ديوان الخراج خالد بن برمك وكانا قد دخلا عليه :

ساعدا اخانا يحي في الأمر الذي عهدنا اليه فيه .

وطاب له عندئذ ان يعزل ويولي فقال لابي جعفر : اما انت فلك الجزيرة وارمينية واذربيجان وقد عزلنا عمنا داود بن علي عن الكوفة ، وجعلناها لابن اخينا عيسى بن موسى ، وولينا داود المدينة ومكة واليمامة واليمن .

ثم قال : انه ملك واسع يجب ان ينظر في امور عماله كل شهر .

قالها وصرف الناس وهو يفكر فيما ذكره ابو جعفر عن أبي مسلم ، ثم ينتقل بتفكيره الى هذا الملك الضخم الذي دان له .

وكان ابو جعفر يقول في نفسه : قتلني الله ان لم اقتلك يا ابا مسلم .

* * *

- ١٨ -

أجل كان الملك الذي استولى عليه بنو العباس ، ملكاً ضخماً وفر لهم ... المال والنعم .

يمتد هذا الملك من المشرق الى المغرب ومن شواطىء بحر قزوين عرضاً الى أواخر بلاد النوبة .

وهو ينقسم الى اقسام يشتمل كل واحد منها على بضع ولايات .

القسم الاول : جزيرة العرب وولاياته اربع هي :

الحجاز : وفيه مكة وطيبة وينبع وجدة والطائف وغيرها .

واليمن : وما كان منه نحو البحر فهو غور واسمه تهامه ؛ ومن كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء .

وعمان : وقصبتها صحار على شاطىء بحر الهند .

وهجر : وقصبتها الاحساء .

القسم الثاني : العراق وهو ست ولايات :

الكوفة : وفيها من المدن القادسية وعين التمر .

والبصرة : ومدنها الأبلة وعبادان .

وواسط : ومن مدنها فم الصلح .

والمدائن : وهي مدينة كسرى وبهـا النهروان وجلولاء وغيرهما ، وحلوان **وسامراء** وهما ولايتان أخريان .

القسم الثالث : الجزيرة وهو ولايات ثلاث :

ديار ربيعة : وقصبتها الموصل .

وديار مضر : وقصبتها الرقة .

وديار بكر : وقصبتها آمد .

القسم الرابع : الشام وفيه ست ولايات :

قنسرين : وقصبتها حلب، ومن مدنها انطاكية واسكندرونة ومعرة النعمان **وغيرها** .

وحمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية .

ودمشق : وفيها المدن الكثيرة بينها صيدا وبيروت .

والاردن : وقصبتها طبريا ومن مدنها صور وعكاء .

وفلسطين : وبها بيت المقدس ويافا وعسقلان واريحا .

والشراة : ومن مدنها موآب وعمان وتبوك واذرح .

القسم الخامس : مصر وولاياته سبع هي :

الحوف والريف واسكندرية ومقدونيا والصعيد والجفار والواحات .

القسم السادس : المغرب وولاياته :

برقة وافريقية وتاهرت وسجلماسة وفاس ويقال لها السوس الادنى، والسوس **الأقصى** والاندلس .

السابع : اقليم المشرق وهو ذو جانبين :

الاول في الشرق ويسمى بما وراء النهر ، والثاني في الغرب ويسمى خراسان، وهو ست ولايات .

ويتبع خراسان تسع ولايات صغيرة .

القسم الثامن الديلم وولاياته خمس .

والقسم التاسع : الرحاب وولاياته ثلاث ، وهي أران : ومن مدنها تفليس، وارمينية واذربيجان .

أما الاقسام الباقية وعددها خمسة ، فولاياتها ست وعشرون ، شيعتهم القوية من اهل خراسان ، وعلى رأسهم ابو مسلم ، الوالي الطاغية والعامل المستبد الجبار ، الذي جعله المؤرخون في صف واحد هو والحجاج .

وتلك هي الأرض التي يجبى خراجها ، ويحمل الى السفاح أول خليفة عباسي وانه لخراج عظيم فيه الدليل على عظمة الدولة .

على أن هذه الاقسام أو الاقاليم الاربعة عشر التي ذكرت ، لم يتولاها قط أربعة عشر والياً ، بل كان هنالك واليان أو اكثر للاقليم الواحد ، ووال واحد لأكثر من اقليم .

لقد جعل الأمويون الحجاج بن يوسف اميراً على العراقين وفارس ، بل قد جعلوه امير المشرق كله يولي على اقسامه من يشاء .

كما انهم ضموا ولاية افريقيا الى والي مصر ، يبعث اليها هذا الوالي من يشاء .

وهذه الجزيرة العربية لم تجتمع كلها لأمير واحد ، بل كان للحجاز امير ولليمن امير ، وقد تضم اليامة وعمان الى ولاية العراق .

ولقد كان السفاح الذي ورث تاج مروان بن محمد مكرهاً بحكم الخلافة على النظر في أمر هذا الملك الذي وصف لك ، وكان عليه والدولة في أول عمرها ان يختار الولاة المخلصين البررة من رجال السياسة والدهاء واهل السيف والرأي .

سار عمه عيسى بن علي الى فارس حاملاً عهد امارته وعلى فارس محمد بن الأشعث ، وقد ولاه ابو مسلم .

فلما انتهى اليها قال الناس : لقد عزل محمد .

واقبل اصحاب ابن الأشعث يقولون له :

امرك ابو مسلم بان تقتل عمال ابي سلمة الخلال وولاك فارس ، ثم جاء امير المؤمنين اليوم يولي عمه عيسى كما ترى .

فغضب محمد وقال :
اذا خطر لعيسى بن علي ان يدخل دار الامارة فهو مقتول .
قالوا : هذا عم امير المؤمنين فان فعلت كان جزاؤك القتل .
فابتسم قائلا : امرني ابو مسلم عندما وجهني الى فارس ان لا يقدم علي احد يدعي الولاية من غيره الا ضربت عنقه .
فنصحوا له بأن يعدل عن رأيه وخوفوه .
فسكت وارسل الى عيسى يدعوه اليه ثم قال :
استعملك امير المؤمنين على فارس واستعملني عليها قبله ابو مسلم ، فما ترى .
وعيسى من رجال السلام فقال :
ان أمر امير المؤمنين يمحو امر ابي مسلم، ومع ذلك فأنا لم اجىء لاسعر النار.
قال : ليس لاحد ان يعرض لك فانت عم الخليفة وعامله، ولكني استحلفك ان تسمع لي .
فاستوى عيسى جالساً وجعل يقول : ان هنالك شروطاً يا ابن الاشعث .
نعم فاحلف لي انك لا تعلو منبراً ولا تتقلد سيفاً الا في جهـــاد . فرأى عيسى ان يفعل وحلف له .
ولم يتول بعد بعد ذلك ولاية ولم يتقلد سيفاً الا في غزو .
وعرف ذلك ابو جعفر اخو الخليفة ، فارسل يقول لاخيه :
لو لم يحلف عمك عيسى لمحمد بن الاشعث أنه لا يتقلد سيفاً الا في جهاد لضرب ... ولم يسأل عنك ... ذلك امر أبي مسلم الذي يجرأ عماله على الاستخفاف ... المؤمنين .
فقال السفاح : ونسكت عن هذا ايضاً ؟
ثم امر عيسى بالرجوع ، وعهد في ولاية فارس ، الى عمه ، اسمعيل بن علي ... له : لا اظنك تحلف الايمان المحرجة كما حلف اخوك .
فلما قدم فارس ايقن بن الاشعث ، بان وراء هذه العجلة ، في الولاية ، مـــا ... اها .

فقال لاسمعيل : ليس لنا الا ان نطيع امير المؤمنين .

وبلغ ذلك ابا مسلم فلم يشأ ان يعكر الجو بينه وبين ابي العباس ، بل قال لمحمد : اترك فارس الآن واقم حيث شئت .

وكان يحيى اخو السفاح ، قد قدم الموصل ، ولم يظهر لاهلها ان في صدره شيئاً من الضغينة ، ولم يعرض لهم فيما يفعلون .

وجعل يتبين احوال الزعماء الذين خرجوا عن طاعة محمد بن صول .

حتى عرف اسماءهم ، واحداً بعد واحد ، وهم اثنا عشر رجلاً من وجوه الناس . فدعاهم اليه وضرب اعناقهم .

فثار اهـــل البلد وحملوا السلاح ، فنصح لهم شقيق الخليفة بان يعودوا الى هدوئهم فسكنت الفتنة ، ولكنهم طلبوا الامان .

فأمر مناديه فنادى : من دخل الجامع فهو آمن .

فأقبل الناس يدخلون وقد تركوا سلاحهم ، على ان يحيى لم يترك سيفه .

امر رجاله بان يقوموا على الابواب ، حتى غص بيت الله بالناس .

فقال عندئذ لاولئك الرجال ضعوا السيف في الرقاب .

فسالت الدماء حتى غاصت فيها الاقدام ، وامعن الجند في التقتيل والترويع

فلما كان الليل ، سمع يحيى اصوات النساء اللواتي قتل رجالهن فقال :

ما هذه الاصوات ؟

فأخبروه فقال : اذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان .

ففعلوا ذلك وظل الجند يقتل ، ثم يقتل ، ثلاثة ايام .

وكان في جيش يحيى قائد معه اربعة آلاف من الزنوج وكانوا قـــد اخذوا النساء قهراً .

فلما فرغ يحيى من القتل ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة لطوائف الحراس .

فعرضت له امرأة في خريف العمر واخذت بعنان فرسه .

فأراد الحراس قتلها فنهاهم عن ذلك ثم قال : من انت ايتها المرأة ؟

- من نساء الموصل اللواتي قتلت رجالهن .
- وما هي حاجتك ؟
قالت : ألست من بني هاشم ؟
- بلى !
ألست ابن عم رسول الله ﷺ ؟
- بلى !
- اما تأنف وانت ابن عم الرسول ، للعربيـــات المسلمات ، ان ينكحهن الزنج .
فاطرق قليلاً ، ثم قال لاحد الحراس : سر معها حتى تبلغ منزلها . وأثر كلامها فيه ، فلما أقبل اليوم الثاني قال لخاصته : اجمعوا الزنوج للعطاء . فاجتمعوا اليهم وحولهم الجند بالسلاح ، فجعل يطوف بينهم كأنه يعرضهم .
ثم امر بهم فقتلوا عن آخرهم وهو ينظر اليهم لا يطرف له جفن .
انها لوحشية اخرى بنى عليها العباسيون مجد الدولة التي جلسوا على عرشها بعد الامويين .
وانها لظاهرة تدل على القلب الصخري والضعف البشري .

* * *

- ١٩ -

كانت مناصب الدولة في العهد العبـــاسي الذي قرأت كثيرة العدد ، تضم الالاف من العمال والامراء .
ويجيء وراء هؤلاء طوائف من العبيد والموالي والاتباع .
على ان العمال الذين ذكرنا يرجعون جميعهم الى مناصب خمسة ، يتولى اصحابها امر الملك بارادة الخليفة التي لا ترد . في طليعتهم منصب وزير الدولة . والوزارة لم تعرف بهذا الاسم في ايام الامويين .
لقد كان لبني امية اعوان من رجال السياسة والدهاة ، يساعدون الخليفة في ادارة دولته ولكنهم لم يكونوا وزراء .

اجل كان الواحد منهم يقوم بما يقوم به الوزير في دولة اخرى ، دون ان يطلق عليه هذا اللقب الذي لم يعرف الا في عهد العباسيين .

دعي ابو سلمة الخلال شيخ الدعوة العباسية بالكوفة ، وزير آل محمد ، وهو من سمي بهذا الاسم ، وقد استطاع ان يلبس للوزارة لباسها الخاص ، فبذل المال واطعم الناس .

وتنوّف في الدواب والسلاح ، يجمع الى ذلك كله علماً بالروايات والشعر والتفسير والجدل وحجة حاضرة كانت حلية له ، ولكن عمره في الوزارة كان قصيراً .

وقد استوزر السفاح بعد قتله أبا الجهم بن عطية ، كما استوزر خالد بن برمك جد البرامكة وزراء هرون الرشيد .

وهنالك من يقول انه استوزر خالد ، ولم يستوزر ابا الجهم .

وخالد، من اولئك الرجال المخلصين، الذين شيدوا هذا الملك ، لبني العباس، غير انه لم يشأ ان يطلق عليه اسم وزير بعد مقتل ابي سلمة .

والصحيح ان الوزارة في عهد السفاح وعهد اخيه المنصور على الاخص ، لم تجر وراءها اذيال العظمة والعز ، ولم يكن صاحبها في المكان الذي يليق به .

ذلك لان الخليفتين كانا مستبدين وكان الملك في ايديهما يوجهان دفته الى حيث يطيب لهما ، دون ان يقفا عند حد المشورة والرأي من الوزراء .

حتى ان الرجل الذي كان يتولى الوزارة فيعهد المنصور كان يخشى ان يستغل من وزارته غضب أمير المؤمنين الذي ينتهي به الى الموت .

ان للوزراء نكبات في عهد بني العباس لم ينسها المؤرخون .

وهذا ابو سلمة الخلال اول من نكب في دولتهم كما قرأت .

وليس لك ان تظن ان هذه النكبة ، يخلقها الخليفة لوجه الله الكريم ، ان هنالك اسبابا قد لا تستحق القتل ، ولكن السفاح والمنصور ومعظم رجال الدولتين كانوا يقتلون على الشبهة ، والقتل في نظرهم ، اضمن للدولة من العتب واللوم .

يستريحون من هذا الرجل الى الابد ، ثم يفكرون في رجل آخر يجعلونه في الصف الاول ويستشيرونه في كل شيء .

والويل له اذا مد نظره الى منتهى الافق ، ومنصب الحجاجة بعد منصب الوزارة .

ان للحاجب شأناً في البلاط وله الدالة على الخلفاء ، وقد وجد من قبل ليحفظ الباب ويأذن للناس في الدخول على امير المؤمنين ،

ولكنه امسى بعد زمن قصير نصف وزير .

يشاوره الخليفـــة في امور الملك ويجلس مع رجال المشورة والرأي في كل موقف صعب .

وقد يرى الخليفة رأيه فوق جميع الآراء .

ومعاوية بن ابي سفيان اول من استعمل الحاجب على بابه من خلفاء المسلمين .

مشى في ذلك وراء ملوك الروم ، ولم تكن له غايتهم من حب البذخ والظهور بمظهر العظمة والمجد ، بل كانت هنالك غاية اخرى هي المحافظة على حياته .

ان القراء يذكرون موتمر الخوارج الذين عولوا على الفتك بكبـــار رجال الاسلام الثلاثة علي بن ابي طالب ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن ابي سفيان .

وهم يذكرون كيف قتل ابن ملجم علياً وكيف هم رفيقاه الآخران بقتل معاوية في دمشق ، وابن العاص في مصر .

وانه لحادث لا يطيب لمعاوية بعده ان يقف مكتوف اليدين ولا يستطيع معه ... ام وهو قرير العين .

فخطر له ان يجعل الحاجب حاجزاً بينه وبين الفتاكين ، وامره بان يمنع الناس من دخول مجلسه ولا يأذن لأحد الا اذا اذن له .

و الناس يزدحمون على ابواب الخلفاء ، بينهم العمال والامراء والقواد ، وبينهم طوائف الفقراء والمظلومين واصحاب الحاجات .

فمن الرأي اذن ان يكون للدخول على الخلفاء نظام لا تجاوزه الوفود ولا ... به اولئك الذين بريدون ان يمثلوا بين يدي امير المؤمنين .

قيل ان عبد الملك ابن مروان قال لحاجبه :

وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعي الله ، وصاحب البريد فارى ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد .

وكان للحاجب ان ينظر في درجات الناس قبل ان يأذن لهم ، فيقدم صاحب الزعامة والمنزلة في عشيرته ويؤخر الصعاليك .

اما المنصب الثالث فمنصب الكتابة ،

والكاتب هو الذي يتولى كتابة الاوامر والنظم الى القواد والعمال في الحرب والسلم . وقد يكتب الخليفة بيده كتاب سياسة حقناً للدماء او قمعـاً لفتنة او جواباً عن كتاب آخر ورد عليه .

ويقوم الوزير احياناً مقام الكاتب في كتابة الرسائل والاسرار .

ثم يجيء في الصف الرابع صاحب الشرطة « مدير البوليس » .

لقد كان صاحب الشرطة مدير الامن العام ، هو الذي يطارد الجناة ويخمد الاصوات ويطفىء النار وهو صاحب الصوت البعيد في عاصمة الخلافة ، الامر والنهي خارج البلاط في يده .

وانه ليستطيع ان يطرح الناس في سجنه الرهيب والخليفة لا يعلم .

وامير المؤمنين يختار لشرطته اشد الرجال وأربطهم جأشاً وابعدهم همة ، ولا يعهد اليه في امره الا اذا لمس بيديه الاثنتين اخلاصه ووفاءه له .

وهنالك منصب القضاء ، ولم يكن للقاضي في عهد السفاح والمنصور سلطان على قضاة الدولة المقيمين بالاقاليم ، ذلك لان منصب قاضي القضاة لم يكن قد وجد . وحسب القاضي المقيم ببلد الخليفة ان ينظر في قضايا الناس الذين تغص بهم عاصمة المسلمين .

تلك هي المناصب الكبرى في الدولة ، وفي كل اقليم من اقاليم الخلافة صورة عما رأيت .

ولكنك تعلـم ، ان عظمة الملك ، وعز السلطان ، لا وجود لها ، الا اذا وجد الجيش .

ذلك الجيش الذي يمتد نفوذ الخليفة بقوته وتضعف الدولة بضعفه .
كان الجند بصورة عامة ايام الامويين جنداً عربياً لا دخيل فيه .
وقد عرفت انه لم يكن للموالي شأن في عهد بني امية .
كان عربياً بافراده وقواده وعقيدته وروحه على وجه يشبه ذلك الوجه الذي رأيته ايام الخلفاء الراشدين .
ولولا حب الترف والبذخ والتوسع في الرفاه لخيل اليك ان جيش الامويين هو جيش عمر بن الخطاب ، وعلي بن ابي طالب .

اما جيش بني العباس فغير هذا ، ولك ان تجعل هذا الجيش فريقين :
الاول جند خراسان والآخر جند العرب وقوادهما من الجنسين .
والعرب والموالي يتنازعان النفوذ والعصبية فيهم لا تموت .
واكبر رجال السياسة والحرب في عهد السفاح ثلاثة رجال ، هم اصحاب العزة والشدة والنفوذ والجاه .
ابو مسلم الخراساني قائد المشرق — اهل خراسان
وعبد الله بن علي عم السفاح قائد جيش المغرب — اهل الجزيرة والشام .
وابو جعفر المنصور صاحب السلطان الواسع في بلاط امير المؤمنين وفي الجزيرة وارمينية والعراق .
هؤلاء الرجال الثلاثة هم الدولة ، الدولة بما فيها من بركة ونعمة وفتنه وشر .
على انهم لم يكونوا مخلصين .. لا لبني العباس الذين وضعوا حجر دولتهم ولا كان بعضهم مخلصاً للبعض الاخر .
كان ابو جعفر يحسد ابا مسلم على مقامه العالي ، وعزه الذي حجب عز الامام .
وكثيراً ما طلب من امير المؤمنين ان يضرب عنقه وكان يقول :
ان الخراساني الذي يستخف بك يجب ان يموت والحق فيما يقوله ابو جعفر .
لان ابا مسلم ، على اخلاصه ووفائه للعباسيين ، كان مستخفاً ، بالبيت المالك .
وعبد الله بن علي كان طامعاً بالخلافة ، وهو يرى انه احق الناس بها بعد

ابن اخيه امير المؤمنين .

هو الذي تعب في بناء الملك ، وهو الذي اشتد على الامويين وضرب رقابهم وفرق من بقي منهم في كل قطر ، وهو الذي اكره مروان آخر خلفاء الامويين على الفرار الى ارض مصر .

وهو الذي حمى بسيفه التاج .

ولم يكن عبدالله يخاف أبا مسلم بل كان يخاف المنصور .

ان المنصور هو الطامع بالخلافة مثله ، وقد يفوز بها عندما تغفل عين الله ... السفاح ويغمض الموت عينيه .

وكأنه كان واثقاً بانه سيبقى حياً بعد موت السفاح ، وابو مسلم يعرف ذلك بل يعرف كل شيء .

ولكنه كان مؤمناً ، بان مقامه في خراسان ، امنع من عقاب الجو كما كان مؤمناً ، بان الجيش الذي يقوده ، يجود بالمال والروح من أجله .

وهو لا يفكر في الخلافة ولا يحلم بتاج الملك ، لقد رضي بما قسم له الله .

وكان يعلم ان المنصور يسعى به ويوغر صدر أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين يصغي إليه خوفاً من اهل خراسان .

وقد استطاع احدهم ان يسمع ما قاله السفاح لأبي جعفر ونقل ما سمعه لأبي مسلم قال :

لولا خوف السفاح من ان يحمل أهل خراسان السيف في وجهه لارسل الى ... من يضرب عنقك وانت في هذا القصر

وقد اصاب ، فالسفاح كان يقول ذلك ، كلما حدثه المنصور بأمر أبي مسلم

تلك هي حـــال الدولة الفتية ، دولة بني العباس ، التي تغلغل الطمع والـ... في صدور رجالها العظماء .

* * *

— ٢٠ —

في العام الثالث والثلاثين بعد المئة ، زحف قسطنطين ملك الروم الى ملطية

[...]رها وحدث بينه وبين المسلمين حرب فانهزم المسلمون .
وخطر للسفاح ان يجعل عمه سليمان بن علي، والياً على البصرة ودجله والنهرين [...]ان ، وان يستعمل عمه اسمعيل على الاهواز . وكان قد ولى المنصور الجزيرة وارمينية واذربيجـان ، وكتب العهد لابن أخيه عيسى بن موسى على الكوفة ، [...]عمل عمه عبدالله بن علي على الشام وعبد الملك بن يزيد على مضر .
اما خراسان والجبال فقد كانت لأبي مسلم ، ونفوذ أبي مسلم ينشر ويمتد .
وبلغ السفاح في ذلك العـام موت عمه داود بن علي امير مكة ، وكان داود [...] استخلف ابنه موسى عندما دنت ساعته ، فنحاه السفـاح عن الحكم ، وولى [...] يزيد بن عبيدالله ، بن عبد المدان الحارثي
وفي العـام نفسه خرج شريك بن شيخ المهري في بخارى على أبي مسلم وكان [...]ول : « ما على هذا تبعنا آل محمد ان تسفك الدماء ويعمل بغير الحق » .
ومشى وراءه اكثر من ثلاثين الفاً .
فارسل ابو مسلم الى حربه زياد بن صالح الخزاعي ، فظفر بـه . ولم ينقض [...]عام حتى خرج عن الطاعة في العـام الثاني بسام بن ابراهيم بن بسام ، وهو من اهل خراسان ومن اصحاب النفوذ والرأي .
وخرج سراً من جيش السفاح وخلفه جمـاعة من قومه يريدون المدائن ، فاستشار السفاح ابا مسلم في امره فكتب اليه :
ارجو ان يختار امير المؤمنين لقتاله خازم بن خزيمة ، ففعل ووجه مع خازم [...] الكثير ، وكان القتال شديداً بين الفريقين .
غير ان النصر لم يكن لبسام ، فقد انهزم وانهزم اصحابه ، وقتل كل من لحق به ، الا رجلاً من اصحابه يدعى المغيرة .
[...]ر المغيرة بذات المطامير ونزلها ليلة ، وهي قرية فيها اخوال السفاح من بني [...] المدان ، فلم يتعرض بنو عبد المدان للرجل ولم يسألوه عن امره .
ومر بهم خازم بعد ذلك وقد بلغه خبر المغيرة ، فلم يسلم عليهم ولم يشأ ان [...]ظر اليهم نظرة رضى ، فاستخفوا به ثم شتموه .

فرجع اليهم فقال : ماذا فعل المغيرة ؟
فأجابوه قائلين : مر بنا رجل لا نعرفه ، فأقام بقريتنا ليلة ثم خرج عنا .
فقـــال : انتم اخوال امير المؤمنين ، يأتيكم عدوه وينزل آمناً بينكم و
تنظرون اليه ، لا تأخذونه ولا تقولون له كلمة ؟!
فأغلظوا له وأسمعوه ما لا يحب .
وكانوا خمسة وثلاثون رجلاً يتبعهم من انصارهم والموالي خمسة وثلاثون .
فأمر بهم فضربت اعناقهم جميعاً ، ثم هدم دورهم ونهب اموالهم، ثم انصرا
فبلغ ذلك اليمانية فاجتمعوا ، ثم أقبـلوا فدخلوا على السفاح ومعهم زياد
عبيدالله الحارثي .
فقال السفاح : ما وراءك يا زياد ؟
قال : اجترأ عليك خازم بن خزيمة واستخف بك يا امير المومنين .
– وماذا صنع ؟
– قتل اخوالك الذين قطعوا البلاد واتوك معتزين بك طالبين معروفك ،
صاروا في جوارك .
– ومتى فعل ؟
– بعد هزيمة بسام ، وهدم دورهم ونهب اموالهم .
فبان الغضب في عينيه ثم قال : تفعل كما فعل ، وهم بقتله .
وكان في مجلسه موسى بن كعب والوزير ابو الجهم بن عطية ، فقال لهما:
أسمعتما مثل هذا .. يقتل ابن خزيمة اخوالنا الابرياء مستخفاً بنا ؟
فقال ابو الجهم :
وهممت بقتله يا امير المؤمنين ؟
– اجل نضرب عنقه يوم يدخل علينا .
قال : اعيذك بالله من ذلك فان له طاعة وسابقة .
– وهكذا يفعل اهل الطاعة ؟
– ارجو ان تحتمل ما صنع ، فان شيعتكم من اهل خراسان قد آثروكم ا

الا ار,ب,والاولاد، وقتلوا من خالفكم، وانت احق من يغض طرفه، عن الاساءة .
قال : لا تزد فسنقتله وينتهي الامر .
قال موسى بن كعب : لي كلمة يا امير المؤمنين .
هات .
اذا أردت قتله فلا تتولى ذلك بنفسك .
وماذا اذن ؟
ابعثه لأمر ان قتل فيه بلغت الذي تريد ، وان ظفر كان سيفاً من سيوفك
و ان ظفره لك .
فاطرق ملياً ثم قال : اختاروا له مكاناً .
قال : ارسله ان شئت الى من بعمان من الخوارج .
قال : سنفعل !
ثم التفت الى زياد بن عبيدالله قائلاً : اخرج الآن وسنرى رأينـا في الرجل
ال و. قتل أخوالنا .
انصرف زياد ومعه قومه ، ثم اقبل خازم واستأذن على السفاح ، فقـــال
" دام لأبي الجهم : لقد جاء ابن خزيمة فامكث هنا حتى ترى وتسمع .
د خل خازم فقال : السلام على امير المؤمنين .
فابتسم الخليفة ابتسامة الاستهزاء ، ثم قال :
قاتل اخوالنا يا ابن خزيمة وتدخل آمناً .
قال : المسلمون جميعهم آمنون بظل امير المؤمنين وانا منهم .
بل انت من اعدائنا ، لقد وجهناك الى قتال بسام بن ابراهيم ، فكنت
. ...اءَ لنا منه .
بل كنت ولم ازل اشد الناس اخلاصاً لأمير المؤمنين .
. ماذا صنع بنو عبد الملك بن المدان حتى استحقوا القتل ؟
لجأ اليهم رجل من اصحاب بسام فأمنوه ، ثم مهدوا له سبيل الفرار .
يقولون انهم لم يعلموا اي رجل هو .

– بل كانوا يعلمون انه عدوك ولم يريدوا ان يأخذوه .
– ومن قال لك ذلك ؟
– عبد من عبيدهم وقد قتلته .
– ولكن كان عليك ان تستشير امير المؤمنين فيما فعلت .
– لقد قتلتهم في طاعتك ودفاعاً عن حقك .

قال : كفى لقد وعدنا أبا الجهم ان نعفو عنك وقد عفونا .. تهيأ للرحيل الى عمان .

– ارحل من اجلك يا امير المؤمنين الى آخر الأرض ، ولكن ارجو ان تأذن لاهل بيتي في البقاء في الحيرة .

قال : من هم ؟

– ثلاثة فتيان وصبية في الثامنة من العمر ومعهم امهم .

قال : لقد عولنا على ترك الحيرة والاقامة بالانبار .

– سأوصيهم يا امير المؤمنين بأن يلحقوا بك الى حيث تذهب .
– وغايتك من ذلك ؟
– ان يكونوا في أمن فلا تمتد اليهم ايدي اعدائي واعدائك من بني عبد المدان .

فضحك وقال : لا تمتد اليهم يد سوء ونحن احياء ، اما انت فستمتد اليك الايدي .

– هنا يا امير المؤمنين ؟
– في عمان ، أي ان الخوارج سيظفرون بك .
– اذا قتلت قام قوادك باسمك يطلبون بدمي .
– واهل بيتك ؟
– يتولى امرهم امير المؤمنين اطال الله بقاءه .
– أجل نتولى امر الفتيان الثلاثة اما الزوجة والفتاة فنزفها الى رجلين من بني عبد المدان اهل الشرف والجاه .. ما اسم ابنتك ؟
– عاتكة وهي اجمل بنات قومها واعظمهن نفساً ، افتأذن لي يا امير المؤمنين

اا، اقص عليك ما رأيته في الحلم .
نأذن لك .
انه لحلم غريب يا امير المؤمنين وقد تغضب على صاحبه .
امير المؤمنين لا يفكر في الأحلام ، قل !
قلت ان عاتكة اجمل بنات قومها فهي كزهرة من أزاهير الربيع .
عرفنا ذلك وقد اخترنا لها زوجاً بعد موتك .
قال : لو قتلوا عاتكة لما رضيت برجل من بني عبد المدان .
ويلك يا ابن خزيمة ان أم امير المؤمنين منهم .
ولكنهم في الوقت نفسه اعداء امير المؤمنين .
تقول هذا لتنجو من الموت وقد نجوت .. أنسيت الحلم ؟
لا يا امير المؤمنين ، لقد رأيت اني في بلد كبير لا يشبه الحيرة ، ومعي عاتكة ، فبينا انا جالس في بستان لي ، اقبل فتى حسن الوجه ينظر الى عاتكة نظرات الغرام ، ثم رأيت امير المؤمنين في قصره ينظر الى هـذا الفتى نظرات الحب ، كأنه قطعة منه .
ثم ماذا
سمعت امير المؤمنين يقول لحاجبه :ادع هذا الفتى فدعاه ، ثم دخل القصر وجلس مع الخليفة على سريره والخليفة يحادثه ويبتسم له .
وبعد ذلك ؟
أومأ الفتى الى عاتكة وهو يقول لامير المؤمنين : هذه هي .
واي معنى لحلمك هذا ؟
معناه ان فتى من ولد العباس سيحب عاتكة .
فضحك قائلا :
كل ما في الأمر أنك رضيت بهذا الصهر الذي رأيته في الحلم .
نعم يا امير المؤمنين وحسبي ما رأيت .
واذا قتلتك الخوارج في عمان ؟

-- ما ابالي فروحي سترى عاتكة في قصر امير المؤمنين .
قال : انصرف الآن ولتفعل روحك ما تشاء .
– وتأذن لي في الرجوع الى الحيرة اذا ظفرت ؟
-- ترجع الى الأنبار فسنجعلها داراً للخلافة ، قم فاخرج .
قال : اذا أراد امير المؤمنين فليكتب الى امير البصرة .
قال : اصبت اكتب يا ابا الجهم الى عمنـــا سليمان بن علي ليحمل ابن خز ومن معه الى عمان .
وقام خازم فخرج وانتخب من اهله وعشيرته من يثق به .
ثم سار يريد البصرة ، حتى انتهى اليهـا ودخل على عاملها سليمان بن ع ودفع اليه كتاب السفاح .
فقال له سليمان : ان في البصرة قوماً من بني تميم فـــان شئت دعوتهم ال الخروج معك .
قال : افعل ما يطيب لك على ان تعد السفن .
وبعد ثمانية ايام ركب هو واصحابه البحر ، حتى اتوا جزيرة فيها شيبان بن عبد العزيز الخارجي يحمل لواء العصيان .
فوجه اليه خازم فضلة بن نعيم النهشلي في خمسمائة من رجال الحرب .
ففر شيبان الى عمان فقاتله اهلها فقتل، وكثر القتل يومئذ في اصحاب خاز وقتل اخ له من امه في تسعين من رجاله .
ثم التقوا بعد سبعة ايام ، وقد اشار اهل الرأي على خازم ان يضرم النا في بيوت اعدائه ، وكانت من خشب .
ففعل ثم وضع السيف حتى قتل زهاء عشرة الاف ، وبعث ببعض الرؤو الى سليمان فارسلها سليمان الى السفاح .
واقام ابن خزيمة بعد ذلك بضعة اشهر حتى . ، امير المؤمنين .
وكان السفاح قد انتقل من الحيرة الى الانبار وجعلها عاصمة لخلافته وضر المنابر والاميال من الكوفة الى مكة .

مسح الارض بالذراع الهاشمية ، وكلما مسحوا ميلاً وضعوا كلمة « واحد »
لم اثنين ، وهكذا وجعل في الطريق مناراً يهتدي به الناس .

وانه لعمل جليل يذكره التاريخ لاول خليفة عباسي .

وقبل ان ينتهي العام الرابع والثلاثون خرج رجل يقال له منصور بن جمهور
في السند عن طاعة الخليفة .

فوجه اليه السفاح صاحب شرطته موسى بن كعب ، واستخلف موسى على
الشرطة المسيب بن زهر .

وعندما التقى الجيشان انهزم منصور، ثم مات عطشاً فيصحراء من الرمال.

* * *

- ٢١ -

عندما اقبلت السنة الخامسة والثلاثون ، انتهى الى السفاح ان رجلاً يدعى
زياد بن صالح حمل السيف وراء النهر في وجه العباسيين .

وكان المنصور في مجلس السفاح عندما بلغه الخبر ، فقال له : ما رأيك يا ابا
جعفر فيما سمعت ؟

قال : كان زياد بن صالح هذا من رجال أبي مسلم .

- نعرف ذلك .

- وانا اخشى ان يكون لابي مسلم يد في خروجه .

وأي شيء يدعوه الى ذلك ؟

يريد ان يظهر بمظهر المدافع عن امير المؤمنين .

وهل رأيت من قبل ان الرجل لم يدافع عن الخلافة ؟

لقد دافع عنها عندما كان نكرة لا يعرفه احد .

واليوم ؟

- اما اليوم فهو يدافع عن نفسه وعن سلطانه في خراسان .

لا يطيب لك يا ابا جعفر الا ان تعكر الماء بيننا وبين ابي مسلم، الذي
وضع بيده أساس العرش .

– بل لا يطيب لي الا ان احفظ هذا العرش لامير المؤمنين وخلفائه ... ان هذا الخراساني الذي تثق به ، لا يعلم ان بالانبار خليفة يدعى ابا العباس .

– الى هذا الحد ؟

– نعم وهو لا يبالي بالامر يرد عليه منك ، ولا يفعل في خراسان ، غير ما يراه .

– لقد قلت هذا منذ زمن ولم يثبت لنا شيء منه .

– ولكني رأيت بنفسي يا امير المؤمنين .

– ماذا رأيت ؟

– امر بقتل سليمان بن كثير وانا حاضر ، دون ان يسألني رأيي فيه ، ودون ان يشاور امير المؤمنين ولي نعمته .

– فعل ذلك من اجل الخلافة .

– وكيف ذلك ؟

– الم يقل سليمان لعبيد الله بن الحسن حفيد علي بن ابي طالب: كنا نرجو ان يتم هذا الامر لكم يا آل علي .

بلى !

– ولا تعلم ان آل علي يطمعون بالخلافة ويفكرون في خلعنا عن العرش !

– اعلم هذا !

– اذن كان الرجل مصيباً في قتل سليمان .

– اما القتل فنحن لم نسأله عنه ، ولكن اخذنا عليه انه لم يشاورنا فيه . وهذا شأن العامل المستخف المستبد ، الذي يريد ان يحجب سلطانه ، سلطان مواليه .

قال : وهل نسيت وصية ابراهيم الامام ؟ ألم يقل له : أقتل من وقع في نفسك منه شيء .

قال : كان ابراهيم الامام رحمه الله سيد بني العباس في ذلك الزمن ، اما اليوم فامير المؤمنين هو سيد المسلمين ، النهي والامر في يده ، وليس لابي مسلم

ان يعود الى كتاب كتبه الامام ... اما والله لئن ترددت في قتل هذا الخراساني الا صفا لك الملك ساعة واحدة وسترى .

قال : نقتل رجالنا بايدينا ، ثم نبحث عن رجال آخرين لا سابقة لهم ولا فضل .

– نعم خير لك أن تفعل ذلك ، من أن تنام والافعى عند رأسك .

- وماذا يقول الناس اذا قتلنا ابا مسلم ؟

يقولون كان خائناً ولقي جزاءه .

- بل يقولون كان مخلصاً لبني العباس ، باذلا نفسه من أجل الدعوة ، وهذا امير المؤمنين وأخوه ابو جعفر يقتلان المخلصين الواحد بعد الاخر بدون ذنب .

ثم ماذا يحدث بعد ذلك ؟؟ ان الناس يتفرقون عنا وينضمون الى آل علي .

ثم قال : لماذا لا تشير علينا بقتل ابناء عمنا الطامعين بالخلافة ؟

لانهم لم يستخفوا بك ولم يظهروا الدعوة .

فابتسم قائلا : اما الدعوة فقد اظهروها في آخر عهد بني اميه ، وانتخب بنو هاشم للخلافة محمد ابن عبد الله بن الحسن حفيد علي وبايعه بعضهم ، وانت يا ابا جعفر احد الذين بايعوه .

لقد كان ذلك يا امير المؤمنين يوم كانت الخلافة للامويين .

اجل ثم انتقلت الخلافة الينا ، ومحمد بن عبد الله ينظر اليها ويطمع فيها ، وحوله بعض الهاشميين وطائفة من الانصار ، أنسيت هذا ؟

لم أنس شيئاً .

بل نسيت كل شيء بدليل انك سكت عن هؤلاء ولم تذكر غير ابي مسلم ، ألم تعدنا جعفر بن محمد وانصاره غاصبين للخلافة ؟ !

وهو يريد جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق .

فسكت المنصور ولم يجب فقال : قل كلمتك .

اصاب امير المؤمنين في كل ما قال ، ولكن جعفر بن محمد لم يدعو الناس وهو يوصيهم على ما بلغ امير المؤمنين بالطاعة والهدوء .

– نعم يوصيهم بالطاعة لانه لم ير سبيلا الى العصيان ، قل يا أبا جعفر ابايعنا محمد ابن عبد الله بن الحسن عندما انتهى الينا الملك .

– لا !

– وهل اعترف بدولة بني العباس ؟

– لا !

– واخوه ابراهيم ؟

– فعل مثل محمد .

– اذن فمن الرأي ان تفكر في امرهم وتخاف من هذه الناحية على الخلافة التي بذلنا من اجلها الدماء والرجال .

فبرقت عيناه وقال : هذا هو الامر الذي أخافه يا امير المؤمنين .

– وكيف ذلك ؟

– لا يستطيع بنو عمنا ان يثبوا إلى الخلافة الا اذا ساعدهم ابو مسلم ، فاذا قضينا عليه قضينا على الامل الباقي لهم وخلا لنا الجو .

قال : لا تجمعهم بأبي مسلم صلة حب .

– ان ابا مسلم نفسه سيدعوهم اليه عندما يرى أن في الدولة رجلاً يقال له امير المؤمنين هو اعظم شأناً منه .

– كأنك تريد أن تقول انه لا يطيق أن يرى عرشاً .

– يريد ان يكون مقامه فوق مقـام صاحب العرش كما قلت لك من قبل ، وقد يخطر له يوماً ان يزحف من خراسان على رأس خمسين الفاً من انصاره ليخلع الخليفة العباسي عن عرشه ، ليجلس جعفر بن محمد او محمد بن عبدالله .

– وينتقل في ذلك من خلافة الى خلافة .

– اجل وهو يظن ان الخليفة من آل علي يكون عبداً له .

فأطرق السفاح ساعة ثم قـال : قد يكون في كلامك هذا شيء من الحق ، ولكن الخليفة لا يجد سبيلاً الى قتله .

قال : لقد رأيت لك رأياً .

ما هو ؟

- هو ان ترسل الى قتال زياد بن صالح الذي خرج وراء النهر رجلاً تثق به وتأمره بأن يقتل أبا مسلم اذا استطاع .

وفي اي مكان نجد هذا الرجل ؟

هنا في الأنبار وقد وجدته .

اذكر اسمه !

- سباع بن النعمان .

ابن النعمان الأزدي .. انه من رجال السيف ، ولكن لا رأي له .

لست بحاجة الى رأيه يا امير المؤمنين .

قال : ادعه الساعة .

فخرج ابو جعفر فارسل اليه ، ثم قال السفاح لحاجبه : لا تأذن لاحد في الدخول مهما يكن شأنه .

فلما قدم سباع استأذن له فدخل، وهو يرى ان الخليفة لم يرسل اليه الا لأمر.

وكان السفاح على سريره وابو جعفر بالقرب منه فقال : ادن يا ابن النعمان.

فمشى الرجل حتى بلغ السرير ، فامره بالجلوس، ثم قال : ألم يبلغك ما جرى وراء النهر ؟

قالوا يا امير المؤمنين ان ابن صالح خرج عن الطاعة .

هو ذاك ! ومن اجل هذا بعثنا اليك .

قال : اشكر لأمير المؤمنين وثوقه بعبده .

قال : نحن نعلم انك من فتيان الحرب .

قال : حسبي اني أضرب بسيف امير المؤمنين .

ولكن امير المؤمنين لا يريد سيفك وحده .

وماذا اذن ؟

يريد القليل من الدهاء .

عندي من الدهاء الشيء الكثير .

قـــال : في خراسان رجل ليس في الدولة اعظم وابعد صوتاً منه غير امير المؤمنين .

– انه أبو مسلم !

– احسنت !

– وحول أبي مسلم طائفة من الحرس يفدونه بالمهج .

– بل تفديه خراسان كلها الا زياد بن صالح ... ماذا يريد أمير المؤمنين ان أصنع ؟

– خطر لنا ان نوجهك الى قتال زياد الذي ذكرت .

– سأحمل رأسه الى امير المؤمنين .

– وتحمل الينا رأساً آخر ذكرنا لك صاحبه .

فاضطرب الرجل ثم قال : رأس أبي مسلم ؟!

– نعم رأس أبي مسلم ، ويظهر انك اضعف من ان تبلغ الغاية .

– وكيف عرفت ذلك ؟

– رأينا الخوف في عينيك المختلجتين .

– انه يا امير المؤمنين مظهر من مظاهر الاستغراب .

– اما نحن فقد حسبناه خوفاً ، أتقدر على الامر ؟

– أجل ولكن أأقتله غدراً ؟

فضحك قائلاً : بل تدعوه الى البراز في ساحة قصره واهل خراسان جميعهم ينظرون اليه .

ثم نظر الى أبي جعفر كأنه يقول له : هذا هو صاحبك الذي اخترت !

فقال ابو جعفر : تخرج يا ابن النعمان من الأنبار حاملاً الى أبي مسلم كتاباً من امير المؤمنين يقول له فيه انك مرسل الى قتال زياد بن صالح الخارجي .

– نعم .

– فاذا مثلت بين يديه فقل له انك قائد من قواده ، وان امير المؤمنين أمرك بان لا تخالفه في شيء .

- ثم أثب عليه فأقتله .

ثم تجالسه وتصغي الى مـا يقوله وتتظاهر انك من عبيده ، ثم تفاجئه وهو وحده بطعنة خنجر تخترق القلب ، ثم تخرج هـادئاً كأنك تريد الطواف في احياء مرو .

- ثم أفر !

- ثم تفر وقد نلت حظوة في عيني أمير المؤمنين ، لم ينل مثلهـا رجل من خاصته ، أفهمت ؟

- وأخرج وحدي !

- بل تختار الف رجل خوفاً من أن يظن بك أبو مسلم الظنون .

- واذا امرني بالمسير الى قتال زياد .

- تسير الى حيث يشاء ثم تعود اليه لتفي بما وعدت الآن .

قال : سأفعل وسأحمل رأس الطاغية .

- وتعلم يا ابن النعمان لماذا يريد امير المؤمنين قتله !

- ليس لي أن أعلم ما في صدر امير المؤمنين !

- يريد ذلك لأن هذا الخراساني رفع رأسه على مولاه .

وكان السفاح ساكتاً فقال : يا ابن النعمان ان هذا السر لم نبح به لأحد فاحذر ان تبوح به .

- سيموت معي اذا قتلني أبو مسلم .

- اذن فاخرج الآن ، على ان تسير بعد يومين .

قال : خير لي يا امير المؤمنين ان اقاتل قبل أن ارى ابا مسلم .

- وما هي غايتك ؟

- غايتي أن يقوم في ذهنه أني قدمت من اجل الحرب .

قال : افعل ما يطيب لك ، على ان تعود وانت ظافر بعدوك .

- قل عدو الخلافة يا امير المؤمنين .

فأومأ اليه بالانصراف ثم قال لأخيه : نخشى ان يفضحنا هذا الأبله .

قـــال : في خراسان رجل ليس في الدولة اعظم وابعد صوتاً منه غير امير المؤمنين .

– انه أبو مسلم !

– احسنت !

– وحول أبي مسلم طائفة من الحرس يفدونه بالمهج .

– بل تفديه خراسان كلها الا زياد بن صالح ... ماذا يريد أمير المؤمنين ان أصنع ؟

– خطر لنا ان نوجهك الى قتال زياد الذي ذكرت .

– سأحمل رأسه الى امير المؤمنين .

– وتحمل الينا رأساً آخر ذكرنا لك صاحبه .

فاضطرب الرجل ثم قال : رأس أبي مسلم ؟!

– نعم رأس أبي مسلم ، ويظهر انك اضعف من ان تبلغ الغاية .

– وكيف عرفت ذلك ؟

– رأينا الخوف في عينيك المختلجتين .

– انه يا امير المؤمنين مظهر من مظاهر الاستغراب .

– اما نحن فقد حسبناه خوفاً ، أتقدر على الامر ؟

– أجل ولكن أأقتله غدراً ؟

فضحك قائلاً : بل تدعوه الى البراز في ساحة قصره واهل خراسان جميعهم ينظرون اليه .

ثم نظر الى أبي جعفر كأنه يقول له : هذا هو صاحبك الذي اخترت !

فقال ابو جعفر : تخرج يا ابن النعمان من الأنبار حاملاً الى أبي مسلم كتاباً من امير المؤمنين يقول له فيه انك مرسل الى قتال زياد بن صالح الخارجي .

– نعم .

– فاذا مثلت بين يديه فقل له انك قائد من قواده ، وان امير المؤمنين أمرك بان لا تخالفه في شيء .

ثم أثب عليه فأقتله .

ثم تجالسه وتصغي الى مـا يقوله وتتظاهر انك من عبيده ، ثم تفاجئه وهو وحده بطعنة خنجر تخترق القلب ، ثم تخرج هـادئاً كأنك تريد الطواف في ارجاء مرو .

ثم أفر !

ثم تفر وقد نلت حظوة في عيني أمير المؤمنين ، لم ينل مثلهـا رجل من عامته ، أفهمت ؟

– وأخرج وحدي !

– بل تختار الف رجل خوفاً من أن يظن بك أبو مسلم الظنون .

– واذا امرني بالمسير الى قتال زياد .

– تسير الى حيث يشاء ثم تعود اليه لتفي بما وعدت الآن .

قال : سأفعل وسأحمل رأس الطاغية .

– وتعلم يا ابن النعمان لماذا يريد امير المؤمنين قتله !

– ليس لي أن أعلم ما في صدر امير المؤمنين !

– يريد ذلك لأن هذا الخراساني رفع رأسه على مولاه .

وكان السفاح ساكتاً فقال : يا ابن النعمان ان هذا السر لم نبح به لأحد فاحذر ان تبوح به .

– سيموت معي اذا قتلني أبو مسلم .

– اذن فاخرج الآن ، على ان تسير بعد يومين .

قال : خير لي يا امير المؤمنين ان اقاتل قبل أن ارى ابا مسلم .

– وما هي غايتك ؟

– غايتي أن يقوم في ذهنه أني قدمت من اجل الحرب .

قال : افعل ما يطيب لك ، على ان تعود وانت ظافر بعدوك .

– قل عدو الخلافة يا امير المؤمنين .

فأومأ اليه بالانصراف ثم قال لأخيه : نخشى ان يفضحنا هذا الأبله .

قال : فوضَ الي امره ان شئت .
- وماذا تصنع ؟
- اذا فضحنا ولم يبلغ غايته ضربت عنقه واظهرت لأبي مسلم انه كاذب .
فسكت السفاح ، ثم استلقى واغمض عينيه وهو يفكر في الامر .
وكان ابو جعفر يقول وهو يبتسم ابتسامة الرجل الحديدي : لست من الخلفاء ان لم تقتل ابا مسلم .

* * *

- ٢٢ -

تهيأ ابو مسلم للخروج من مرو لقتال زياد ، وكان قد بعث اليه قائدين من قواده يمنعانه من الامعان في البلاد .
واقبل في ذلك الحين سباع بن النعمان .
ولكنه لم يأت مرو بل أتى زياداً ونزل غير بعيد عنه .
وهو يريد ان يثبت لأمير المؤمنين ، انه الحكيم الداهية الذي يفعل العجائب بحكمته ودهائه .
فقال زياد لقواده : أهذا جيش عيسى بن ماهان الذي ارسله خالد بن ابراهيم بأمر أبي مسلم ؟
قالوا : انه جيش سباع بن النعمان وقد ارسله السفاح .
قال : مالي وللسفاح اني لم اخرج عن طاعته ، ولكنا خرجت عن طاعة هذا الخراساني ويجب ان يعلم ابن النعمان ذلك .
ثم قال لبعضهم : اذا جن الليل فاخرجوا الى سباع فخبروه .
واقبل الليل ، فخرج ثلاثة من رجال زياد حتى اتوا معسكر ابن النعمان واستأذنوا عليه .
فلما دخلوا عليه قالوا : السلام على الأمير ، يقول لك زياد بن صالح انه على طاعة امير المؤمنين .
فقال لحاجبه : احفظ الباب ونح القوم .

ثم قال لهم : يحمل زياد السيف ثم يزعم انه على الطاعة .
لقد حمل سيفه في وجه أبي مسلم وهو يقول ان ابا مسلم لم يف للناس
بما وعد .
فخفض صوته قائلاً : لقد انتهى الى امير المؤمنين انه خارج على الخلافة .
هذا كذب فزياد لم يفكر في هذا قط .
- اذا كان هذا فلا شأن لي معه وليس لي ان اعرض له ... ولكن أخبروني
ماذا جرى ؟
- ارسل خالد بن ابراهيم نصر بن راشد الى قتال زياد فقتل ، ثم بعث عيسى
ابن ماهان فقتل الذين قتلوه .
- والآن ؟
- اما الآن فقد بلغنا ان ابا مسلم زاحف بجيشه .
وانتم لا تستطيعون الوقوف في وجه هذا الجيش .
- يفكر زياد في الرحيل الى بخارى ، ثم ينصرف منها الى بلد آخر اذا لحق
به ابو مسلم .
فتمتم قائلاً : اذا قدر ابو مسلم على اللحاق به فليفعل .
- وما معنى هذا ايها الامير ؟
معناه اني لا اتبع زياداً اذا خرج الليلة ، وسأتبعه الى بخارى مع ابي مسلم
ان شاء الله .
ثم قال : قوموا فاخرجوا واكتموا ما سمعتم وارحلوا بعد ساعه .
فقالوا في انفسهم : هذا عدو من أعداء الخراساني .
ثم رجعوا واخبروا زياداً ، فطابت نفسه ولم يلبث حتى امر اصحابه بالرحيل.
وكان حاجب سباع بن النعمان من أهل خراسان ، وقد سمع ما قـاله مولاه
لقواد زياد .
فخاف ان تكون هنالك مؤامرة على سيد خراسان وهو يحبه .
فدخل على سباع وقال : اتهاجم زياداً في هذا الليل ؟

وكان يتظاهر بانه لم يسمع شيئاً .
فقال مولاه : تهاجمه بعد أيام ... أتحفظ ما ابوح لك به يا ابراهيم ؟
قال : عجباً يا مولاي تقول لي مثل هذا وانت تعرف من انا .
قال : ان الامر خطير لو تعلم ، وهو من اسرار امير المؤمنين .
– ليكن سراً من أسرار الله عز وجـــل ، لقد تعودت الكتمان وانا ذلك الرجل الذي يحفظ في صدره اسرار سيده .
قال : يريد السفاح ان يقضي على ابي مسلم .
قالها ثم ندم وارتجفت شفتاه .
وقرأ ابراهيم ندمه فيعينيه فقال : وقد عهد اليك السفاح في قتله أليس كذلك ؟!
قال : وهل سمعت ما قاله قواد زياد ؟
– لم أسمع كلمة وقد خيل الي انهم اتوك من اجل الصلح .
– هو ذاك ولكني لم أرض ان أفعل الا بأمر أبي مسلم .
– ومتى تراه يامولاي ؟
– أبعث اليه بكتابي غداً واسأله الرأي .
– سمعتهم يقولون في المعسكر انه خرج من مرو .
– وانا سمعت ذلك وقد نهاجم زياداً عند الصباح .
فاكتفى ابراهيم بما سمع وخرج وهو يخاطب نفسه قائلاً : صعب علي وانا ، خراسان ان ارضى بقتل ابي مسلم .

وانقضى الليل وابن النعمان وحاجبه يفكران في الامر ، حتى طلع الـ فرأى القوم ان زياداً ترك الساحة .

فقال سباع لاصحابه : قوموا نذهب الى ابي مسلم ، وساروا حتى اتوه .
فقال لابن النعمان : يبعث بك امير المؤمنين الى قتال زياد ونحن لا نعلم ؟
قال : ان معي كتاباً منه الى الامير .
– كان عليك ان تسلمه الينا قبل ان تمر بالمكان الذي نزله زياد .
– خطر لي ايها الامير ان اقضي عليه قبل ان أمثل بين يديك .

ـ وفعلت ؟

ـ ترك مكانه ليلة انتهيت اليه .

انه في بخارى وسألحق به .

ـ وانا معك ؟

ـ اذن يطيب لك ان تحمل رأسه الى امير المؤمنين .

ـ بل يطيب لي ان اقول له : ان اعداء الامير جميعهم ينطرحون عند قدميه .

ـ ومن معك من الجند ؟

ـ الف رجل من اهل الجزيرة .

فقال : الف رجل تهاجم بهم زياداً وهو في بضعة الآف ؟ انها جرأة لم أر مثلها في رجال السيف .

وقام في ذهنه ان في الامر ما فيه .

ودب الريب في صدره فقال : هات الكتاب .

فاعطاه اياه فقرأه ثم قال : أعد العدة للرحيل .

ـ لم يترك الجيش عدته ايها الامير .

فحول وجهه عنه ، ثم انصرف يعرض جنـــده ، وعيناه لا تغفلان عن ابن النعمان ، وقد ملأ الشك نفسه .

يجيء رجل من الانبار يحمل اليه كتابا من السفاح ، فلا يعطيه اياه الا بعد ان يزور ساحة القتال ؟ وماذا يصنع في تلك الساحة ومعه الف رجل وعدوه في كثرة ؟

ان معه اذن كتاباً آخر وقد يكون هنالك بعض الاسرار ، ذلك ما كان يفكر فيه أبو مسلم . وبث العيون من ساعته على ابن النعمان .

اما سباع فلم يكن ينظر اليه وهو مع الجيش ، ولكنه كان يحاول الدنو منه عندما يدخل فسطاطه ويجلس للناس ، وابو مسلم يرى ذلك .

حتى انقضت الايام وهو عاجز عن الوصول اليه وقد اتت ساعة الرحيل .

فأمر ابو مسلم جيشه بالمسير وجعل لكل قـــائد مكاناً بين الصفوف ، ثم

قال لابن النعمان : هذا صفك ، وقد اختار له مكاناً بالقرب منه .
والحاجب ابراهيم لا يفارق سيده وعيناه لا تتحولان عن ابي مسلم .
فلما انتهى الجيش الى آمل ،وآمل بلد على ضفة نهر يعبر منه الى بخارى ، كان الليل قد اقبل ، فنام القوم الا ثلاثة هم : ابو مسلم وابن النعمان وابراهيم .
ولم يلبث ابن النعمان حتى آوى الى فراشه على ان يستيقظ عند الفجر ويقتل ابا مسلم .
ومرت ساعة والهدوء يمد رواقه فوق الجيش .
فأقبل ابراهيم الى خيمة ابي مسلم وهو يمشي متثاقلاً كاللص .
ففاجأه الامير قائلاً : من انت ؟
(وهو يعرف من هو)
فقال : حاجب سباع بن النعمان واسمي ابراهيم من خراسان .
ـ من خراسان وتخون ابا مسلم .
فاضطرب الرجل ثم قال : لم اكن قط من الخونة يا مولاي .
وابن النعمان ؟
ـ اما ابن النعمان فقد أتيتك الساعة لابوح لك بسره .
ـ أعرف هذا السر فهو يريد ان يغدر بي .
ـ وكيف عرفت ذلك ايها الامير ؟
ـ لا تسألني عن هذا ولكن قل من هو الرجل الذي دفعه الى الغدر ؟
لا أعلم يا مولاي !
ـ ألم ير مولاك أبا جعفر العباسي قبل ان يترك الانبار .
ـ
ـ ألم يدخل على امير المؤمنين ؟
ـ لا اعلم !
وخاف ابراهيم ان يذكر اسم السفاح فتسوء العاقبة .
فقال أبو مسلم : خذ هذا الآن وارجع الى مكانك ولا تقل لاحد اني رأيتك .

فأخذ الحاجب الدنانير التي جاد بها امير خراسان ورجع فنـــام عند خيمة مولاه .

وقبل ان يبزغ الفجر دعا ابو مسلم عامله على آمل فقال له : احتاج اليك والى اربعة رجال من الشرطة .

– الآن ؟

– في هذه اللحظة .

فخرج ثم عاد والرجال وراءه .

فقال ابو مسلم : سأعبر النهر الى بخارى لاحقاً بزياد بن صالح .

– واعبره معك ؟

– بل تبقى لتحرس رجلاً تقوده الى السجن بعد ساعة .

– من هو ؟

– لا تعجل فستعرف كل شيء ... ان هذا الرجل يلبس ثوب العبد الامين وهو من اعداء أمير المؤمنين .

– ويقيم بالسجن الى الابد ؟

– لا بل يقيم به ريثما اعود من ساحة الحرب او يرد عليك أمر آخر ولكن احـذر .

قال : لا توصني ايها الامير بشيء ارى هواك فيه .

– ولا تنس ان الرجل عدو الخلافة .

– لن انسى .

– وسأدعوه الان فاذا دخل فاقبضوا عليه واحملوه الىالسجن دون ان تمروا بخيام الجيش ودون ان يرتفع لكم صوت .

– ولكن الرجل سيستغيث .

– اذا فعل فاخمدوا صوته وهذا يكفي .

ثم أومأ الى الشرطة قائلاً : علي بسباع بن النعمان الازدي الذي ينـــام في الخيمة الرابعة من هذا الصف ، فخرج احدهم حتى أتاه .

وكان سباع يهم بالذهاب الى خيمة ابي مسلم ليعالج الامر الذي قدم من اجله، فقال له الشرطي : أجب الامير :

فترك خيمته دون ان يقول كلمة وقد قام في ذهنه ان القدر يساعده في قضيته.

ثم اقبل فدخل عليه ، ولكن ركبتيه ارتجفتا عندما وقعت عينه على عامل البلد ورجال شرطته .

فقال ابو مسلم : افعلوا ما أمرتكم به .

فامتدت اليه الايدي وهامسه احدهم قـــائلاً : الى السجن وخير لك ان تستسلم دون ان تصيح او تستغيث ، فقال :

كلمة واحدة اقولها للامير ابي مسلم .

– ان هذه الكلمة تكلفك الحياة اخرج .

وابو مسلم ينظر الى الخارج كأنه لم يسمع شيئاً .

فتردد البكاء في صدر ابن النعمان الشجاع ومشى مستسلماً وهو يقول في نفسه: اردت ان اغدر به فغدر بي .

وطلعت الشمس فنادى المنادي : اعبروا الى بخارى .

فعبر الجيش ومعه رجال ابن النعمان وهم يظنون ان قائدهم مع ابي مسلم ، الا حاجبه ابراهيم فقد عرف ان سيده في السجن .

وكان زياد بن صالح ورجاله في المدينة .

فلما نزلها ابو مسلم اتاه قواد زياد فقالوا له : ايها الامير لقد خلعنا زياداً .

قال : وفر من بخارى ؟

– لا

– ولماذا قدمها ولم يستسلم ؟

– لقد افسده سباع بن النعمان .

– بل هو افسد نفسه .. اخرجوا فلكم الامان .

وعرف زياد ان قواده اسلموه .

فلجأ الى امير من امراء البلد طالباً معونته .

غير ان الامير لم يطب له ان يجاهر ابا مسلم بالعداوة ، فقتل زياداً وحمل رأسه الى ابي مسلم .

وكانت هنالك فكرة تتردد في صدر أبي مسلم ، هي فكرة القضاء على ابن النعمان .

فكتب الى عامله بآمل : اذا اتاك كتابنا فاقتل سجينك الازدي .

وعول منذ تلك الساعة على الكيد لابي جعفر المنصور ، وقد كان مؤمنا بانه هو الذي غير السفاح عليه .

كما كان مؤمناً ، بان السفاح والمنصور اضعف من ان يمدا اليه يد سوء .

* * *

- ٢٣ -

نحن الان في السنة السادسة والثلاثين بعد المئة ، وقد خطر للسفاح ان يعقد لاخيه ابي جعفر عبدالله بن محمد بالخلافه من بعده ، اي انه اراد ان يجعله ولي عهده ؛ كما انه اراد ان يجعل ابن اخيه عيسى بن موسى ، ولياً لعهد المسلمين بعد ابي جعفر .

يتربع ابو جعفر في عرش الخلافة بعد السفاح ويتربع في هذا العرش بعد ابي جعفر عيسى الذي ذكرناه ، وليـــان للعهد في وقت واحد كما كان يفعل الخلفاء الامويون ، وهذا هو الخطأ السياسي الذي لم يكن فيه شيء من بعد النظر والحكمة .

ان الخليفة في جعله وليين للعهد ، يخلق الفتنة ، ويدفع البيت المالك الى لجة بعيدة الغور .

خطر ذلك للسفاح فكتب الى عماله في الاقطار يأمرهم بالبيعة للرجلين ، وجعل العهد الذي كتبه في ثوب وختمه بخـاتم الخلافة وخواتيم اهل بيته ، ودفعه الى عيسى بن موسى مير الكوفة قائلاً له : احتفظ بهذا ففيه ولاية العهد لأبي جعفر ثم لك .

وبلغ الخبر أبا مسلم ، فاضطرب ساعة ثم قـــال : ليكن ما امر به امير المؤمنين . وبايـع ، وبايـع معه اهل خراسان .

ثم قال لخاصته وهم في مجلسه : منذ ملكنا بخراسان لم نفارقها قط ، وقد طاب لنا اليوم ان نحج فماذا ترون ؟

فقال بعضهم : اذا لم يحج الامير فمَن يحج .

وقال البعض الآخر : امكث وستحج في عام آخر .

قال : بل نحج في هذا العام .

وكانت غايته ان يزور السفاح في الانبار قبل الحج ، ويلمس بيده سياسته وسياسة اخيه ابي جعفر ورغبتها عنه .

وقد يزول الحقد من صدر السفاح ، وصدر ابي جعفر اذا هما لمسا بدورهما طاعته وخضوعه .

كان ابو جعفر يقول للسفاح : ان ابا مسلم يستخف بي وبك ، فأي شيء يمنع أبا مسلم من الظهور بمظهر العامل الطائع الذي يجود بروحه في سبيل امير المؤمنين ؟

واي شيء يمنعه من الظهور في الوقت نفسه بمظهر الامير القوي الذي يبذل جيشه الدماء من أجله ؟

ان في مسيره الى الانبار فائدتين : اظهار الطاعة والقوة وفي هذا ضمان لسلطانه . ومن يعلم فقد يعاتبه ابو جعفر على استخفافه بحضور السفاح، فيثبت له ولاخيه بالبرهان الصريح والكلام الفصيح انه لم يفكر في هذا الاستخفاف وملأت هذه الفكرة نفسه ، فكتب الى السفاح :

اذا اراد امير المؤمنين فليأذن لي في القدوم عليه والحج ، ولم يخف ابو مسلم ان يغدر به ابو جعفر وهو في الأنبار .

فلما قرأ السفاح كتابه كره ان يوليه موسم الحج ذلك العام ، فكتب الى أخيه المنصور وهو بحران يقول له : يجب ان تستأذني في الحج .

فعرف المنصور ان ابا مسلم سيحج وان السفاح لا يطيب له ان يوليه ، ففعل ما امره به اخوه .

ثم كتب السفاح الى ابي مسلم : انتهى الينا كتابك ، فاذا قدمت الانبار ،

فأقدم في خمسمائة من الجند لا غير .

فأجابه ابو مسلم : يا امير المؤمنين اني قد وترت النـــاس ولست آمناً على نفسي ، فمن الرأي ان يكون جندي اكثر من العدد الذي امرت به .

فأدرك السفاح غايته ، فكتب اليه : اجعل جندك ألفاً فانما أنت في سلطان اهلك ، وطريق مكة لا يتحمل الجيش الكثير .

فقال ابو مسلم : لا والله ما نخرج الا في ثمانية آلاف .

واعد جيشه ففرقه بين نيسابور والري ، وجعل في الري اموال خراسان واموال الجبال .

ثم اختار الفاً من رجاله ومشى في طليعتهم يريد الانبار

واقبلت الرسل تخبر السفاح ، فدعـــا خاصته وقواده ، وطوائف الناس ، وامرهم بان يخرجوا للقاء سيد خراسان .

ودخل ابو مسلم الأنبار دخول الفاتح الظافر ، وقواد امير المؤمنين وحراسه يحملون الحراب امامه ووراءه ، حتى مثل بين يدي الخليفة وعنده ابو جعفر .

فاكرمه السفاح وعظمه واجلسه على سريره وهو يبتسم له كما يبتسم المنصور الداهية .

ثم قال له : قدمت في الف يا ابا مسلم ؟

ـ نعم يا امير المؤمنين .

ان طريق مكة لا يتحمل الجيش الكثير كما كتبنـــا اليك ، ولولا ذاك لقدمت في عشرين الفاً .

قال : حسبي ان امير المؤمنين راض عن عبده ، قالها وهو ينظر بخفة وحذر الى عدوه أبي جعفر .

فقال السفاح : ما بذلنا لاخوتنا واهل بيتنا ما نبذله لك من الرضى ، انك اقرب الناس الى عرش الخلافة واحبهم الى امير المؤمنين .. سل ما تشاء !

ـ اسأل الله ان يمد في عمر امير المؤمنين .

وكيف خراسان ؟

– اقليم خاضع هادىء لا يرفع اهله اصواتهم الا بالدعاء ، ولولا بعض الخوارج اعداء الله لكان خير الاقاليم .

قال : الخوارج مثل زياد بن صالح !

– نعم !

– لقد كتبت الينا انه قتل .

– كما قتل سباع بن النعمان .

قال : ان الاثنين لم يقتلا في حرب .

– لا يا امير المؤمنين .. ان زياداً قتله احد امراء بخارى .

– وابن النعمان ؟

– اما ابن النعمان فقد قتله عامل آمل بامر من عبدك أبي مسلم .

– انت ؟

– نعم انا لقد ارسلت ابن النعمان ليقاتل زياداً ، فافسده ودعاه الى الفرار ، ثم هم بأن يغدر بي .

فتمتم قائلاً : أزدي غدار ، لم يخطر لنا انه يسيء الى من احسن اليه .

ونظر الى أبي جعفر مستغرباً فقال : يا امير المؤمنين ، لقد رأيت الأزدي يوم امرته بالمسير الى خراسان ، فرأيت الخيانة والخبث في عينيه ، أخبرنا يا أبا مسلم بما فعل .

– اجتمع بزياد قبل ان يمر بمرو ثم قال له : اهرب الى بخارى فان ابا مسلم عاجز عن اللحاق بك اليها ، ثم اتاني حاملاً الكتاب الذي شرفني به امير المؤمنين .

– وكيف عرفت انه يهم بقتلك ؟

– باح بسره أحد الرجال المقربين اليه .

– يظهر ان عدواً لك دعاه الى ذلك .

– هذا ما أراه ، وانا اظن ان هذا العدو من اهل خراسان .

وبدت على شفتيه ابتسامة صفراء تظاهر المنصور بأنه لم يرها .

واذن السفاح عندئذ لوجوه القواد ، ثم قال لهم : خير قواد هذه الدولة أبو مسلم يعترف له بهذا امير المؤمنين نفسه ، فاذا تحدثتم بهذا تقولوا ما نقولهَ .

قال : لقد تعلمت القيادة من امراء آل العبـــاس ، ووهب لي امير المؤمنين سلطاناً ارد به كيد اعدائه .

– سيبقى لك هذا السلطان ما بقي أمير المؤمنين.

فانثنى ابو مسلم وشكر ، وكان القواد ورجـــال البلاط ينظرون نظرات الاعجاب الى سيد خراسان الذي تقرأ سطور العز على جبينه .

ثم قال السفاح : لقد استأذنتنا في الحج يا أبا مُسلم ، ولولا ان ابا جعفر يريد ان يحج مثلك لاستعملناك على الموسم .

قال : سأكون في الحج من رجال الامير ابي جعفر ، انه امير الناس جميعاً بعد امير المؤمنين .

قال : بارك الله فيك .

وقال للمنصور : امير المؤمنين واثق بانك تعرف لابي مسلم حقه .

قال : لا يعرف احد مثلما اعرف انا هذا الحق . وجعلوا يتحدثون .

ثم ذكر الخليفة ولاية العهد فقال: لقد جعلنا ابن اخينا عيسى بن موسى ولي عهد المسلمين بعد ابي جعفر ، فهل رضي الناس في خراسان عما فعلنا ؟

– انا اول من بايع والويل لمن لا يرضى .

قال : ما نريدها بيعة بالسيف .

– بل هي بيعة طاعه يا امير المؤمنين وقد بايع اهل خراسان .

– وقد وردت علينا الكتب من الاقاليم يذكرون فيها ان الناس يبايعون وهم راضون .

واقبل عندئذ يسأل قواد خراسان عما يبدو له .

ثم صرف الناس قائلاً لابي مسلم لقد اعددنا لك ولجيشك المنازل الصالحة وسنراك عند الصباح .

فخرج القوم جميعهم الا ابا جعفر .

فلما خلا المجلس قال :

أطعني يا امير المؤمنين واقتل ابا مسلم فوالله ان في رأسه لغدراً .

قال : قد عرفت بلاءه وما كان منه وانا قد سررت بمقتل سباع بن النعمان .

قال : فعل ما فعل بدولتنا، ووالله لو بعثت سنوراً لقام مقامه وبلغ ما بلغ.

– وكيف اقتله ؟

– اذا دخل عليك غداً وحادثته ضربته رجال خلفه ضربة قتلته بها .

– واصحابه ؟

– لو قتل ابو مسلم لتفرقوا وذلوا

فأرخى نظره الى الارض وجعل يفكر ، فقـــال المنصور : أجبني يا امير المؤمنين .

– افعل ما يطيب لك .

فخرج ابو جعفر وهو يظن ان الدنيا كلها دانت له .

ولكن السفاح ندم على ذلك وجعل يتمشى وهو يخـاطب نفسه ، ثم نادى غلامه قائلا له :

إلحق بأبي جعفر وقل له ان يرجع .. الحق به قبل ان يدخل قصره .

فركض الغلام حتى داناه فقال : ان امير المؤمنين يريد ان تعود اليه .

– سأعود بعد ساعة .

– امرني بان اقول لك هذا قبل ان تدخل القصر .

– وهل دخل عليه ابو مسلم بعد خروجي ؟

– لا يا مولاي !

فتردد المنصور قليلاً ثم رجع وهو مطرق .

فلما دخل كان السفاح يروح في القاعة ويجيء ووجهه مكفر .

فقال له : رجعت يا امير المؤمنين .

قال : امرتك منذ لحظة بان تقتل ابا مسلم وآمرك الآن بان تكف عنه .

– وماذا جرى لك ؟

- لا تزد .. قلت اني لا اريد ان يقتل ابو مسلم فانصرف الآن وتهيأ للمسير غداً الى الحج وكن امير الموسم ولا تنس حق الرجل كما قلت لك .

قال : هذا الخراساني الذي تؤثره على جميع المخلصين لك سيغدر بي وبك .

بل يكون أشد اخلاصاً لنا ممن ذكرت ، اخرج فانا لا اطيق ان ارى ابا مسلم جثة خرساء .

فحاول ان يتكلم فأسكته قائلاً : لا تدخل علي الا وقد تهيأت للرحيل .

فاسودت الدنيا في عيني المنصور وتراجع كئيباً حتى امسى خارج القاعة ، ثم لتنهد وجعل يقول : قتلني الله ان لم اقتلك ايها الخراساني اللعين .

* * *

- ٢٤ -

فخرج ابو مسلم من مجلس السفاح فهامس احد خاصته قائلاً : اما وجد ابو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟

ذلك لانـــه لم يطب له أن يحج وامير الحج ابو جعفر . ولكن السفاح امر بذلك فليس من الحكمة ان يتراجع .

وترك الرجلان الأنبار في اليوم الثاني يريدان مكة .

فقال الناس : لقد حج في هذا العام فحلان ، وسار الاثنان على طريق واحد.

وابو مسلم يظهر من قوته وعزة الشيء الكثير ويبذل المال لأصحاب الحاجات ولمن يسأله الاحسان ، والبذل والعز يوغران صدر المنصور .

يأتي الاعرابي أبا مسلم فيسأله الكسوة فيكسوه ، ثم يعمد الى اصلاح الآبار والطرق وذكره يرتفع والناس يقولون : هذا هو الرجل .

وبينا الاميران في مكة وقد ملأ الحقد صدر أبي جعفر ، أحس السفاح انه مريض وكان يقول لمن حوله : لقد أتت ساعتي ، وكان خائفاً .

لقد نظر يوماً في المرآة وكان اجمل الناس وجهاً فقال :

اللهم اني لا اقول كما قال سليمان بن عبد الملك ، انا الملك الشاب ولكني اقول اللهم عمرني طويلاً في طاعتك متمتعاً بالعافية .

ومـــا أتم كلامه حتى سمع غلاماً له يقول لغلام آخر : الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام .

فضــاق صدره وتطير ثم قـــال : حسبي الله ولا قوة الا بالله عليك توكلت وبك استعين .

فلما احس انه مريض ذكر كلام الغلام وعرف ان الموت فاتح له ذراعيه .

اصيب بالجدري وهو بالانبار ، ثم توفي في اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة من السنة السادسة والثلاثين ، وكان له من العمر ثلاث وثلاثون سنة ، وولايته منذ بويع بالخلافة أربعة أعوام وثمانية اشهر ، ومنذ قتل مروان اربعة اعوام .

وكان جعداً طويلا ابيض اقنى الانف حسن الوجه واللحية ، وأمه ريطة بنت عبدالله بن عبدالله بن عبد المدان الحارثي .

قال المؤرخون : كان ابو العباس السفاح وافر الكرم ظاهر المروءة جليل الوقار كثير الحياء حسن الاخلاق وصولاً لذوي الارحام . أضف الى ذلك قلباً ذكياً وشدة في تعقب الامويين وتبديد شملهم في كل بـلد يخاف ان تسمع لهم فيه كلمة او يتبع لهم رأي .

وقد ذكرنا لك من قبل ان الدول الناشئة تحتاج الى الشدة في بناء العرش ولكن الى حد .

وللسفاح ساعات يغلب فيها حلمه وعطفه ، شدته وقسوته ، وتظهر فيهـا أخلاقه بما فيها من رحمة وكرم وجمال وادب نفس .

خذ لك مثلاً على هذا : عندما ولي الخلافة قدم عليه بنو الحسن بن علي بن ابي طالب ، وفيهم كما علمت من يدعو الى نفسه ويطمع بالخلافة ، فأعطاهم الاموال بدون حساب . ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم علي . فقال : يا امير المومنين بالف الف درهم فاني لم ارها قط .

والسفاح لا يملك مثل هذا ولم يكن يومئذ بيت مال ؛ وكان هنالك صيرفي يقال له ابن مقرن ومعه المال الكثير ،

فاستقرضها السفاح منه وأمر بها لابن الحسن .

وبينا هما على ذلك حملت الى السفاح جواهر مروان .

فجعل يقلبها وعبدالله يرى ذلك ويبكي ، فقال له : ما يبكيك يا ابا محمد؟

قال : هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط .

فدفعها اليه قائلا . هي لك .

ثم امر ابن مقرن بان يبتاعها منه ففعل ، وكانت قيمتها ثمانين الف دينار .

وفي المؤرخين من يقول : لم يكن هذا البذل والعطف على بني الحسن ظاهرة طبيعية ، وانما كانا مظهراً من مظاهر السياسة والحيلة والدهاء ، وهذا هو الاصح .

يدلك عليه انه كان يبث عيونه على بني ابي طالب ويحصي عليهم الانفاس ، وقد قال لاحد خاصته عندما خرج القوم من مجلسه : انزلهم احسن منزل واظهر الميل اليهم والتحامل علينا وقل لهم كلما خلوت بهم :

انتم احق بالامر من بني العباس واحص ما يقولون ولا تنس كلمة .

ان في هذا وحده برهاناً على السياسة الرشيدة والحيلة الواسعة والنظر البعيد، للبس هذه المواهب بصورة رائعة لباس النفس الطاهرة والخلق الكريم .

ومهما يكن لون السفاح ونفسه ، فان عمره كان قصيراً ولم تتسع الحياة له ليضع للخلفاء بعده دستوراً لادارة الدولة .

وقد قضى هذا العمر القصير حاملا سيفه في وجه بني امية ، واضعاً الدعائم الثابتة للعرش العباسي .

* * *

- ٢٥ -

مات السفاح وابو جعفر ولي العهد في مكة كما رأيت ، وعيسى بن موسى ولي العهد الآخر بالانبار . فلما لفظ عمه السفاح روحه دعا الخاصة ورجال الدولة قائلا لهم : لقد مات امير المؤمنين ، والعهد الذي كتبه لاخيه ابي جعفر عندي، فقولوا جميعكم : يعيش أبو جعفر امير المؤمنين .

فبايعوا جميعهم ثم بايعت العامة ، وكتب عيسى الى جميع العمال ليأخذوا البيعـــة .

ثم كتب الى المنصور يخبره بموت السفاح والبيعة له .

فأتاه الرسول وهو بمنزل صفية فقرأ الكتاب ثم قال : صفت لنا ان شاء الله.

وكان قد سبق ابا مسلم فقال لغلامه : اكتب الى ابي مسلم ومره بان يتعجل في المجيء .

فلمـــا انتهى الكتاب الى الخراساني لم يقم في ذهنه انالسفاح لقي حتفه ولم يخطر له أن المنصور أمسى خليفة المسلمين .

واقبل اليه ، فأذن له في الجلوس ، ثم القى اليه كتاب عيسى بن موسى ، فجعل أبو مسلم يقرأ ويبكي ، ثم رفع رأسه وجعل ينظر الى ابي جعفر ، وقــد بدت على وجه الخليفة الجديد مظاهر الخوف واصفر جبينه . وكان ذلك اول مظهر من مظاهر دهائه . فقال له ابو مسلم : ما هذا الجزع وقـــد أتتك الخلافة يا أمير المؤمنين ؟

قال : أخاف شر عمي عبد الله .

قال : لا تخافه فأنا اكفيكه ان شاء الله واقضي عليه .

– ان معه الجند الكثير وهو طامع بالخلافة .

– ولكن معظم جنده من اهل خراسان وهم يعصونني .

فطابت نفسه وجعل يقول : بارك الله فيك انك كنت ولم تزل ركن الدولة.

وقد ابتدأ المنصور منذ تلك الساعة ان يكون خليفة ، فاجابه ابو مسلم :

والله يا امير المؤمنين لقد بلغ مني خبر موت ابي العباس امير المؤمنين مبلغاً لم يبلغه شيء قط .. فأسأل الله ان يعظم اجرك ويحسن الخلافة عليك .

قال : اني لك كما كان ابو العباس .

– اما انا فليس من اهلك احد أشد تعظيما لحقك واكثر حرصاً على ما يسرك مني وسأقضي حياتي في الدفاع عن الخلافة التي انتهت اليك .

فأراد المنصور ان يسبر الغور من ناحية اخرى فقال : أتظن ان ابن أخينـا

عيسى بن موسى كتب الى عمنا عبدالله بن علي يدعوه الى البيعة ؟

- أعتقد انه فعل

- وتظن انه يبايع ؟

- لا تفكر في هذا يا امير المؤمنين .

- وفي اي شيء نفكر اذاً ؟

- في ان تجعل دولتك اعظم دول الارض .

- وكيف تجعلها كما قلت ، واهل بيتنا اعداء لنا ؟

- ليس هنالك من الاعداء غير عمك عبدالله ، والويل له اذ لم يبايع .

- ماذا تصنع به ؟

- ما صنعته باعداء بني العباس .

قال : ان معه اهل الشام وخراسان وقد جعله ابو العباس قبل موته اميراً على الصائفة .

قال : ليكن امير العالم كله فانا لا أبالي .

قال : ومعه قواد الناس .

- اعرفهم جميعهم يا امير المؤمنين .

- وفيهم حميد بن قحطبة !

- سيكون حميد لك لا عليك .

- ويترك عبدالله ؟

- نعم ويكفي ان أشير عليه بذلك ليفعل .

ثم قال : أتعود الى الانبار يا امير المؤمنين ؟

بل الى الكوفة ثم نرى بعد ذلك .

ومشى موكب المنصور في اليوم الثاني يريد الكوفة وفيه ابو مسلم ، وامير المؤمنين يفكر في اشياء ثلاثة لا يستقيم له امر الخلافة إلا اذا تمت له ، وسترى اي رجل هو المنصور .

* * *

عزيمة ثابتة وسياسة صادقة وجرأة قد لا تجد مثلها ، ودهاء يشبه من ناحية الادارة والتدبير دهاء معاوية. وهنالك القسوة والشدة التي ليس لها حد ، وهو يمشي الى غايته بخطى هادئة ، قوية ، لا تمشي معه اليهـــا رحمة او عاطفة قلب ، فكأنه قطعة من الحديد كما يقولون . ذلك هو الخليفة ابو جعفر .

يقدم على الامر الصعب كالنمر ولا يتردد ولا يتراجع ولا يلين ، ثم هو لا يبالي بالارواح تبذل وبالدماء تهرق من اجل الغرض الذي اراد .

وقد يكون طريقـه الى غرضه حريراً ناعماً او جثثاً مخضبة بالدم . ولم يكن جواداً كما يجب ان يكون الخلفاء .

اجل كان يعطي القليل في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع ، ولكن كثرة بخله حجب قلة عطائه حتى عرف بالخليفة البخيل .

والفرق بين معاوية والمنصور أن الاول استعان بالمال ، فمد رواق ملكه فوق كل أرض وبسط الثاني نفوذه وسلطانه بالحديد والنار .

وخير للمنصور ان يقتل بريئاً من ان يعطي ديناراً ، ذلك لان المال في نظره كان اغلى من الدم البريء ، وله في البخل رأي ، غير ان رأيه لم يوافقه احد فيه .

قال لقواده وهم في مجلسه : صدق الاعرابي حيث يقول : أجع كلبك يتبعك

فقال له ابو العباس الطوسي وكان حاضراً : يا امير المؤمنين ، اخشى ان يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك .

ولو اتبع أبو جعفر وصية أبرويز الفارسي لأصاب .

قال ابرويز لابنه شيرويه : لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيق عليهم فيضجوا منك . اعطهم عطاء قصداً وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسع عليهم في الرجاء ولا تسرف عليهم في العطاء .

وهو الخليفة المتيقظ الحازم الذي لا ينسى شيئاً ولا يغفل عن شيء ، وله الجلد على العمل لا يجاريه فيه أحد من رجال الحكم والخلفاء .

يشتغل في صدر نهـاره بالامر والنهي والولايات والعزل والنظر في امر الجند

والخراج ومعاش الناس .

ثم يصلي العصر ويجلس لأهل بيته ، فاذا صلى العشاء جلس ينظر فيما ورد من كتب العمال في الأقطار ، ثم اقبل الى كتابه يأمرهم بأن يحاربوا على الصورة التي يشاء .

ثم يمضي ثلث الليل فيقوم الى فراشه وينصرف الناس ، حتى اذا مضى الثلث الثاني قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في ديوانه . ذلك كان شأن المنصور في خلافته .

وكان اسمر طويلاً خفيف العارضين يخضب بالسواد ، وتزوج ابنة منصور الحميرية فولدت له محمداً وهو المهدي وجعفراً وله من نساء أخر عشرة اولاد .

واول وزير اختاره له ابن عطية الباهلي بعد خالد بن برمك ، ثم ايوب المورياني ثم الربيع مولاه .

وحاجبه الأول عيسى بن روضة ، واتخذ له حاجباً بعده مولى له يقال له : ابو الخصيب .

والمنصور في بيته من احسن الناس خلقاً واشدهم احتمالاً لما يكون من عبث اهله ، فاذا لبس ثوبه وخرج الى رعيته اربد لونه واحمرت عيناه .

وكان يقول لخادمه سلام الابرش : اذا رأيتني قد لبست ثيابي او رجعت من مجلسي فلا يدنون مني منكم أحد مخافة ان اغره بشيء .

ولم ير في دار المنصور ايام ملكه لهو او شيء يشبه اللعب واللهو غير مرة واحدة .

قال حماد التركي : كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع قهقهة فقال : انظر ما هذا ؟

فخرج حماد فاذا هنالك خادم للمنصور قد جلس وجلست حوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن ، فعاد حماد فخبره فقال : واي شيء هو الطنبور الذي ذكرت ؟

فوصفه له فقال : وما يدريك انت ما هو ؟

– رأيته بخراسان .

فقام ومشى اليهن ، فلما رأينه تفرقن ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بطنبور، حتى تكسر ، ثم اخرج ذلك الخادم فباعه .

وقال اسحق بن عيسى: لم يكن احد من بني العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير المنصور واخيه أبي العباس وعمهما داود بن علي .

وكان فصيح اللسان ثابت الجنان له الحجة القوية والرأي الصادق في كل امر، وقد يغلب دهاءه وحيلته دهاء عدوه وعزمه وشجاعته .

وفي المنصور يقول يزيد بن هبيرة : ما رأيت رجلا قط في حرب ولا سمعت به في سلم أمكر وأشد يقظاً من المنصور .

وسئل يزيد عن ذلك فقـال : حصرني تسعة اشهر ومعي فرسـان العرب ، فبذلنا الجهد كله لننال من جيشه شيئاً فلم يتيسر لنا . ولقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء فخرجت اليه وما في رأسي شعرة سوداء .

وارسل ابن هبيرة الى المنصور وهو يحاصره يدعوه الى البراز ، فكتب اليه المنصور يقول : مثلي ومثلك ان اسداً لقي خنزيراً فقال له الخنزير : قاتلني !

فقال الاسد : انما انت خنزير ولست بكفء لي فاذا قاتلتك وقتلت قيل لي: قتلت خنزيراً وليس لك في ذلك فخر وذكر .

فقال الخنزير : ان لم تفعل أخبرت السباع انك تفر مني .

فقال : احتمال عار كذبك علي أيسر من لطخ شرابي بدمك .

وكان ابن هبيرة يقول بعد ذلك : قتلني جواب المنصور .

* * *

– ٢٧ –

دخلت السنة السابعة والثلاثون وقد قدم الخليفة الجديد من مكة على ما رأيت ، وهو يفكر في أمور دولته وليس له هم غير ثلاثة اشخاص .

عمه عبدالله بن علي وابو مسلم الخراساني ومحمد بن عبدالله الطامع بالخلافة من بني عمه آل علي بن ابي طالب .

كان عمه عبدالله أحد رجـــال الدولة الذين تخضع لهم الجيوش وتمشي وراءه الصفوف الى الميادين .

وقد بعد في ذلك العهد وارتفع ذكره .

وهو يغزو ويظفر ورايات النصر تخفق فوق رأسه .

وعبدالله يرى انه احق الناس بالخلافة بعد ابي العباس .

أفلم يقض حيــاته راكباً جواده طائفاً في كل قطر وسيفه في يده يضرب به اعداء العباسيين ؟

اذن فمن حق المنصور ان يخافه على العرش ويقضي القضاء الاخير على عظمته وطمعه دون ان يصغي الى اهل بيته الذين يشفعون فيه .

وكان مؤمناً بأن عبدالله لا يبــايع ، وان بايع كانت بيعته بيعة رياء وحيلة وغل لا تشبه في شيء بيعة المخلصين .

ثم يجيء بعد عبدالله ابو مسلم . هذا الخراساني الذي فعل مــا فعل من اجل ابي العباس فدانت له خراسان وما حولها من جبل وسهل وحمل القوم سيوفهم خلفه يهتفون باسمه .

وقــد رأى المنصور بعينه ولمس بيديه ان ابا مسلم كان خليفة في خراسان كما كان ابو العباس خليفة في الانبار ، بل رأى انه اعظم شأناً واطول سيفاً منه .

يأمر فتبرى الرقاب وتهرق الدماء وهو لا يستشير احداً ولا يسأل عن احد كأن امير المؤمنين لا وجود له ، وقد وفر له المال حتى ليستطيع ان يشتري الناس بالذهب .

واي شيء يمنع ابا مسلم من التربع في العرش ؟ انــ وثبة واحدة ترفعه الى العرش وهذا يكفي .

وقد لا يفكر ابو مسلم في الخلافة وقد لا يطمع فيها كما يظن المنصور ، ولكن يكفي ان يحمــل يوماً لواء العصيان في ذلك الاقليم الواسع فتتصدع اركان الملك ويندحرج التاج عن رأس ابي جعفر .

وهذا ما يدفع المنصور الى اخماد صوت الخراساني الى الابد .

بقي هنالك محمد بن عبدالله بن الحسن ، وللمنصور ان يخافه الخوف الشديد على الملك .

ان محمداً من اهل البيت وهو سليل الخلفاء وله من نفوذ بيته وكريم محتده وطيب عنصره ما يدنيه من الخلافة .

وبأي رجل يبدأ المنصور ، يبدأ بعمه عبدالله القائد الذي لم يترك السيف ، وكان قد عرف حين اتته البيعة وهو في مكة ان ولي عهـده عيسى بن موسى، كتب الى عبدالله يأمره بان يبايع .

فلما عاد وجلس على عرش خلافته قال لعيسى : ماذا فعل عمنا عبدالله ؟

فأجابه قائلا : الرسول الذي حمل كتابي اليه يا امير المؤمنين هو هنا .

قال : علينا به ! وكان أبو مسلم وخاصة المنصور بالمجلس .

فعندما مثل الرسول بين يديه قال له : انت الذي حملت كتاب عيسى الى عبدالله .

– نعم يا امير المؤمنين !

– هات ما عندك !

– لحقت به يا امير المؤمنين وهو بدلوك .

– ومعه الجيش ؟

– اجل وقواده حوله وفيهم حميد بن قحطبة .

– وماذا فعل ؟

– قرأ الكتاب ثم امر منادياً فنادى : الصلاة جامعة ! فاجتمع الناس .

فقاطعه المنصور وقد اصفر جبينه قائلاً : ثم قرأ عليهم ما كتبه عيسى ؟

– نعم يا امير المؤمنين قرأ الكتاب بوفاة ابي العباس ثم قال : ان ابا العباس حين أراد ان يوجه الجنود الى مروان بن محمد ، دعا اهل بيته ثم قال لهم اراد ان يسير اليه فهو ولي عهدي .

فقلت له : لا ينتدب للامر غيري .

وعلى هذا خرجت من عنده وفعلت ما فعلت .

فقال الخليفة : ولكن القوم لم يصدقوه .
- بل صدقوه يا امير المؤمنين وشهد له بعض القواد .
فاستوى جالساً وقال : أتذكر اسماءهم ؟
- اذكر اثنين لا غير هما ابو غانم الطائي وخفاف المروروزي . فجعل المنصور يردد الاسمين ويده تعبث بقلم كان في يده ثم قال :
وبايعه الناس ؟
- بايعوه يا امير المؤمنين وهم يهتفون .
فقال : فعلها عبدالله وهذا ما كنا نخشاه .. وحميد بن قحطبة ؟
- بايع كما بايع الناس من اهل الجزيرة وخراسان والشام .
فالتفت الى ابي مسلم قائلاً :
أسمعت ؟
- سمعت يا امير المؤمنين !
قال : هذا هو صاحبك بالامس !
- وصاحبك يا امير المؤمنين وصاحب أبي العباس رحمه الله ،
ثم قال : وهذا عمك عبدالله كان سيفاً من سيوف الدولة ، أفتستغرب ان يقوم احدهم فيخون مولاه والخيانة تملأ الدنيا ؟ ولكن ..
- ولكن ماذا ؟
- ستتغير الحال يا امير المؤمنين .
قال : واين عبد الله اليوم يا عيسى ؟
- يحاصر حران ، أفلا تذكر يا امير المؤمنين انك استخلفت على حران ، قبل ذهابك الى مكة ، مقاتل بن حكيم العكي ؟
- بلى ! وهو محصور الان ؟
- اجل ولم اشأ ان اوجه احداً الى قتال عبدالله قبل ان تجيء .
فقال لابي مسلم : ماذا ترى ؟
قال : انا وقوادك الساعة بين يديك فمر بما تشاء .

قال : نحن نستشيرك فلا تبخل بما تعلم .

– ليس لي في ذلك رأي يا امير المؤمنين .. اني عبدك والخادم الامين للعر ,
فان شئت جمعت ثيابي في منطقتي وخدمتك، وان شئت اتيت خراسان فار ,
اليك الجنود ، وان شئت سرت الى حرب عبدالله من ساعتي هذه .

فقال لخاصته :

أفترون ان يخرج الى قتال عمنا غير أبي مسلم .

فقالوا جميعهم : ليس لعبدالله غيره .

– اذن فاخرج وتهيأ للامر :

وطاب للمنصور ان يبرز هذا العدو الى العدو الآخر فيضعف الاثنان .

وقبل ان ينصرف ابو مسلم قال له :

انك خير من مشى في خدمة آل العباس وخير من ضرب من اجلنا ,
واهلك عدواً ، فاذا أتيت عبدالله فاعلم انك امام رجل استهان بالخلافة .

– لقد علمت اني سأحارب رجلاً هو شر اعدائك وان يكن من بني العبا

قال : احسنت ، وان استطعت ان تضربه الضربة القاضية فلا تتردد ,
تجعل نسبه وقرابته سبيلاً الى التراجع .

– ما تراجعت قط من قبل يا امير المؤمنين وانت تعلم ذلك .

– اجل نعلم ذلك ونحن مؤمنون بانك ذلك الرجل الذي يجود بنفسه .
اجل الخلافة التي وقف عليها عمره .. اخرج بارك الله فيك .

وكان المنصور عندئذ يقول في نفسه : اخرج لعنك الله .

* * *

– ٢٨ –

بدأ ابو مسلم فكتب الى حميد بن قحطبة ، يدعوه الى الدفاع تحت رايته .
خلافة المنصور . وحميد ، من اولئك الناس ، الذين احبوا أبا مسلم ، ومشوا ,
ظله الى ذروة المجد .

فلما انتهى اليه كتابه قال لقومه : من احبني فليتبعني الى حيث يشاء ابو مسلم

فقالوا له : لقد بايعت عبدالله بن علي .
– بايعت وانا مكره واني اؤثر القتال في طاعة المنصور مع ابي مسلم على الف رجل مثل عبدالله .
– وهل تظن ان الخراساني يظفر بعم المنصور ؟
– بل اظن ان الرجل الذي يثبت في وجه ابي مسلم لم يخلق بعد .
قالوا : الرأي لك ونحن فاعلون ما تفعل .
قال : نصبر بضعة ايام فنرى ما يصنعه عبدالله .
وكان ابو مسلم قد جعل على مقدمة الجيش مالك بن الهيثم الخزاعي .
وانتهى الى عبدالله ان ابا مسلم قد إقبل فقال لاركان حربه : هذه هي الحرب التي لا صلح بعدها .
وكان عطاء العتكي من قواده ، وهو يخشى ان يخونه ، وينضم الى ابي مسلم ، فوجهه مع ولديه الى عثمان بن عبد الاعلى الازدي وهو بالرقة وكتب معهم كتاباً، ثم قال لهم : اذا اتيتم عثمان فافعلوا ما يشير عليكم به .
فلما قدموا وقرأ عثمان الكتاب قال لعطاء : لقد امرني عبدالله بقتلك وانا فاعل.
ثم أمر به فقتل وجعل ولديه في السجن ، ثم قتلهما بعد ان انتهت الحرب بين عبدالله وابي مسلم .
وحول عم المنصور بعد ذلك نظره الى من معه من اهل خراسان .
وقد قام في ذهنه انهم سيتخلون عنه عندما تغير الخيل ، فجعل يدعو الجماعات منهم ، ثم يقتلهم الواحد بعد الآخر ، حتى قتل سبعة عشر الفاً من الرجال .
ثم ذكر حميد بن قحطبة فقال : هذا اول من يحمل السيف مع أبي مسلم .
ثم دعاه فقال له : لقد استعملناك على حلب وهذا كتاب تحمله الى اميرها زفر بن عاصم .
وقد جاء في كتابه الى زفر : عندما يمثل حميد بين يديك فاضرب عنقه .
فخرج حميد والكتاب معه ، فلما كان ببعض الطريق قال: ان ذهابي بكتاب لا اعلم ما فيه لخطأ ، وقرأه ، فرأى الموت بين سطوره ، فقال لخاصته : اقرأوا

كتاب الرجل الطامع بالخلافة .
ثم قال : لم أكن مخطئاً عندما فكرت في الانضمام الى ابي مسلم .
وسار على الرصافة الى العراق ومعه طوائف الناس ، حتى لحق بابي مسلم، فقال له : اني معك الى الموت .
فاجابه قائلاً : لم اشك في هذا قط ، صف لي موقف عبدالله .
فقال : ليس له موقف اصفه لك ، ولكنك ستظفر به
وكان المنصور قد كتب الى الحسن بن قحطبة امير ارمينية يأمره بان يلحق بأبي مسلم ، وامر في الوقت نفسه محمد بن صول بالمسير الى عبدالله ليمكر به .
فأقبل الحسن فانضم الى ابي مسلم في الموصل ، وخرج محمد بن صول حتى اتى عبد الله بن علي ، وعبدالله يهم بالذهاب الى نصيبين .
فلما دخل عليه هش له، ثم دعاه الى الجلوس قائلاً : ما الذي اتى بك يا محمد؟
قال : سمعت من أبي العباس كلاما اردت ان انقله اليك وانت تهم بالقتال .
– ماذا قال ابو العباس ؟
– سمعته يقول : الخليفة بعدي عمي عبدالله .
فابتسم وقال : انها وصية تكتب بماء الذهب .
واشار الى رجاله قائلاً : اضربوا عنقه فقد وضعه ابو جعفر ليقول هذا .
فقتلوه ، ثم حملوا جثته الى الحفرة التي اعدوها له ، وعبدالله يصدر أوامره بالذهاب الى نصيبين ، كأنه لم ير ولم يسمع .
واقبل الى نصيبين بعد بضعة ايام ، ثم اقبل بعده ابو مسلم واخـــذ طريق الشام ولم يعرض لعبدالله .
ثم كتب اليه : ان امير المؤمنين لم يأمرني بقتالك ، ولكنه ولاني الشام وانا اريدها .
فقال اهل الشام لعبدالله .
كيف نكون معك وأبو مسلم سيأتي بلادنا فيقتل من يقتل من رجالنا ويسبي نساءنا .. ولكن نخرج الى الشام فنمنعه ونقاتله .

فقال لهم : والله ما يريد الشام وما توجه الا لقتالكم فامكثوا فسيأتيكم .
فابوا الا المسير ، وابو مسلم قريب منهم .
فارتحل عبدالله نحو الشام ، فلما ترك مكانه نزله أبو مسلم وعسكر فيه . ثم غور ما حوله من المياه والقى فيها الجيف .
وبلغ عبدالله ذلك فقال لأصحابه : قلت لكم انه باق فلم تصدقوا .

ورجع فنزل الموضع الذي نزله ابو مسلم ، وقد بلغ الخراساني غايته واحتل الموقع الحصين الذي كان لعبدالله .

وكان عبدالله اكثر فرساناً واكمل عدة ، ولكن الموقف الحصين الذي نزله ابو مسلم جعل قلته امنع من كثرة اهل الشام .

وقد جعل عبدالله على ميمنته بكار بن سليم العقيلي ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي ، ، وعلى الخيل أخاه عبد الصمد بن علي .

وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته خازم بن خزيمة .
واقتتل الجيشان ستة اشهر ، والحرب سجال بينهما .
غير ان القوة كانت اكثر ظهوراً في أهل الشام من أصحاب عبدالله .
وقد حملوا على جيش أبي مسلم فازالوه عن مواضعه ورجعوا .
ثم حمل عبد الصمد بن علي في الخيل ، فقتل من جيش الخراساني ثمانية عشر رجلاً .
وكان يرجع في اصحابه، ثم يحمل ، حتى تضعضع جند المنصور وهم بالفرار.
فقيل لأبي مسلم : لو حولت فرسك الى هذا الموضع ، ليراك الناس ، فيرجعوا ، فانهم قد انهزموا .

فقال : ان اهل الحجى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال .
وامر منادياً فنادى : يا اهل خراسان ارجعوا فان العاقبة لمن اتقى .

فتراجع الناس ، وارتجز ابو مسلم فقال :

من كان ينوي اهله فلا رجع   فر من الموت وفي الموت وقع

ثم جعلت له منصة كان يجلس عليها اذا التقى الناس ، وينظر الى القتال فان رأى خللا سده .

فلمـا كان اليوم السابع من شهر جمـادى الآخرة ، تلاحمت الصفوف فحطم جيش ابي مسلم ، بدهاء وحكمة قائده ، جيش عبدالله ، وانهزم اهل الشام .

فقال عبدالله لأبن سراقة الازدي : يا ابن سراقة ما ترى ؟

فقال : ارى ان تصبر وتقـاتل حتى تموت ، فان الفرار قبيح بمثلك ، وقد انكرته على الخليفة الأموي مروان بن محمد .

قال : سأرحل الى العراق .

– انا معك .

فانهزموا وتركوا الجيش ، فوضع ابو مسلم يده على كل ما تركوه ، وكتب بذلك الى المنصور .

* * *

– ٢٩ –

فر عبدالله الى البصرة واستخفى عن اخيه سليمان زمناً ليس بالقصير .

ولجأ اخوه عبد الصمد الى الكوفة ، فاستأمن له ابن اخيه عيسى بن موسى، فأمنه المنصور .

وأمر ابو مسلم بالكف عن النـاس بعد الهزيمة ، وكان خبر الظفر قد بلغ ابا جعفر وانتهى اليه كتاب ابي مسلم .

فقال لمستشاريه : لقد استرحنا الآن من عبدالله وسنعلم بعد قليـل الى اي ... انتهى به فرسه .

وكان يقول في نفسه : وجاء دور الخراساني .

واقبل بعض القواد ، الذين هزموا عبدالله الى الانبـار ، ومثلوا بين يدي الخليفة . فجعل يسألهم عما يخطر له ، وقد قال احدهم لوزيره : رأيت بأبي مسلم انه يأتيه كتاب امير المؤمنين فيقرأه ، ثم يلقي الكتاب من يده الى مـالك ابن الهيثم فيقرأه ويضحك استهزاء .

فضحك الوزير ابو ايوب وقال : نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبدالله ، على انا كنا نرجو واحدة .

- ما هي !

- نحن نعلم ان اهل خراسان لا يحبون عبدالله ، وقد قتل منهم من قتل ، فاردنا ان يطلبوا بدمهم ثم ننظر في امر ابي مسلم بعد ذلك .

ونقل ما سمعه لابي جعفر ، فعمد الداهية الى تدبير خاص فكر فيه .

دعا مولى له يقال له ابو الخصيب فقال له : اذهب واحص ما اصاب ابو مسلم من اموال عبدالله بن علي ، واكتب كل شيء .

فخرج ابو الخصيب حتى اتى الخراساني، فسأله ابو مسلم: في اي شيء قدمت؟

امرني امير المؤمنين بان احصي الاموال التي غنمت .

- أهو الذي امرك بهذا أم الخاصة ؟

- هو نفسه .

- اذن يريد ان يفعل بنا كما فعلنا بعبدالله .

وأومأ الى حاجبه قائلاً : خذه واضرب عنقه .

فقال ابو الخصيب : لئن قتلتني ايها الامير ، لقد قتلت بريئاً .

- بريء وتجيء الي فتحصي اموالي والجيش ينظر اليك ؟

- ذلك امر الخليفة ، وانا عبد له .

- بل انت الذي اشرت عليه بان يفعل .

- أقسم لك انه لم يكن لي رأي فيما ذكرت فان شئت فاعف .

فقال بعض قواده : خل سبيله أيها الامير فلا ذنب عليه .

قال : تعدني يا ابا الخصيب بانك لا تحصي مالا ولا تكتب كلمة .

- بل اعدك باني انصرف الساعة راجعاً الى من أرسلني .

- وتقول له أبو مسلم أمين على الدماء خائن في الاموال ؟؟ انها والله احدى اعاجيب هذا الزمان .

وجعل يشتم ابا جعفر، ثم قال : اخرج وانقل الى المنصور ما سمعت ورأيت.

فرجع ابو الخصيب فخبر الخليفة ، فخـــاف ابو جعفر أن يمضي أبو مسلم الى خراسان ويمتنع فيهـــا ، فقال لوزيره: اكتب الى ابي مسلم: اما بعد فقد وليتك مصر والشام ، فهما خير لك من خراسان ، فوجه الى مصر مـن احببت وأقم بالشام ، فأمير المؤمنين يريد ان تكون قريباً منه .

وبعث بالكتاب مع رجل من رجال البلاط .

فلما انتهى الكتاب الى ابي مسلم غضب وقال: يوليني الشام ومصر وخراسان لي ؟ لا والله لا اطيعه.

وخرج أبو مسلم من الجزيرة يريد خراسان وهو ثائر .

فانتقل المنصور من الأنبار الى المدائن وكتب اليه : يأمرك امير المؤمنين بان تجيء فهو بحاجة اليك .

فأجابه وهو بالزاب : « اما بعد فلم يبق لك يا امير المؤمنين عدو الا امكنك الله منه ، وقد روي عن ملوك الفرس ان اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء .. فأنا نافر عن قربك ، حريص على الوفاء لك ، حري بالسمع والطاعة وانا بعيد ، حيث تقارن طاعتي السلامة . فان ارضاك ذلك فانا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا ان تعطي نفسك ارادتها نقضت ما ابرمت من عهدي ضناً بنفسي . »

وسار عن طريق حلوان ، فكتب اليه المنصور :

«قرأت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الذين يخدعون ملوكهم ، والذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم في الفوضى فلماذا سويت نفسك بهم ؟ فانت في طاعتك واضطلاعك بما حملت من اعباء هذا الأمر على مـــا انت به ، وامير المؤمنين مرسل اليك مع عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها ان أصغيت . وأسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أقرب من الباب الذي فتحه عليك » .

ودفع الكتاب الى ولي عهده عيسى بن موسى وقال له : لا اوصيك بما تقول فانت تعلم ما ينبغي ان تصنع .

فسار عيسى ، ولكنه رجع بعد غيبة طويلة دون ان يفعل شيئاً .

فقال المنصور لعمه عيسى بن علي ، ومن حضر من بني هاشم :
اكتبوا الى ابي مسلم ما ترون .

فكتبوا اليه يعظمون امره ويشكرونه ، ويسألونه ان يبقى على ما كان عليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالرجوع الى المنصور .

ودفع المنصور الكتاب الى حميد المروروزي وقال له : كلم ابا مسلم باللين ما تكلم به احداً ، وأعلمه اني رافعه وصانع به ما لم يصنعه احد انهو صلح ورجع.
- وان أبى ؟
- اذا ابى ان يرجع فقل له : يقول لك امير المؤمنين إنه ليس من العباس وهو بريء من محمد اذا وكل امرك الى احد سواه ، وان لم يتولّ طلبك وقتالك بنفسه ، ولو خضت البحر لخاضه ، ولو اقتحمت النار لاقتحمها حتى يقتلك او يموت قبل ذلك .

ثم قال : ولكن لا تقل له ذلك الا بعد ان تيأس من رجوعه .
فخرج ابو حميد حتى أتى ابا مسلم وهو بحلوان واعطاه الكتاب .
فقرأه وجعل ينظر اليه نظرات الاستخفاف .
فقال الرجل : ان النـــاس ينقلون اليك عن امير المؤمنين ما لم يقله حسداً وبغياً ، وهم يريدون ازالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ما كان منك .
قال : أولم يرسل ابا الخصيب ليحصي المال الذي غنمته من جيش عبدالله ؟
- فعل ذلك كما تعلم حفظاً لاموال المسلمين .
- بل فعله استخفافاً بحقي ، وكأنـه اراد ان يقول للناس : ان ابا مسلم غير امين على المال الذي اصاب .
قال : الخليفة الذي يوليك امر رعيته لا يخافك على ماله .
- لا ولكنه يخافني على سلطانه وقد كنت اطوع من عبده .
- يا ابا مسلم... انك لم تزل امير آل محمد يعرفك بذلك الناس، وما حفظه الله لك من الأجر عنده ، اعظم مما انت فيه من دنيـــاك ، فلا تحبط أجرك ولا يستهوينك الشيطان .

– ومتى كنت تخاطبني بمثل هذا ؟

قال : انك دعوتنـــا الى هذا الامر والى طاعة اهل بيت النبي بني العباس ، وامرتنا بقتـــال من خالف ذلك ، ثم جمعنا الله على طاعتهم واعزنا بنصرنا لهم ، أفتريد حين بلغنا الغاية ان تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلوني .

فقال لابي نصر مالك بن الهيثم : أما تسمع ما يقول لي هذا ؟

– لا تسمع قوله وليس هذا كلامه ... فامض لامرك ولا ترجع ، ووالله لئن أتيته ليقتلنك .

– فقال : قوموا . فنهضوا ثم انصرفوا .

فأرسل ابو مسلم الى صديق له يستشيره في امره ويعرض عليه كتب المنصور ، فاجابه قائلاً :

ما ارى ان تأتيه ، وخير لك ان تقيم ما بين خراسان والري ، ففيها جندا لا يخالفك احد ، فان استقام لك استقمت له ، وان ابى كنت في جندك وكانت خراسان وراءك .

فدعا ابا حميد فقال له : ارجع الى صاحبك فليس من رأيي ان اعود اليه

– وعولت ايها الامير على الخلاف والعصيان ؟

– نعم !

– لا تفعل وانا انصح لك .

– لا اعود اليه ابداً .

فاعاد عليه عندئذ كلام ابي جعفر ، ولما انتهى الى قوله :

« ولو خضت البحر لخاضه ، ولو اقتحمت النـــار لاقتحمها وراءك ، حتى يقتلك او يموت قبل ذلك » ، اضطرب ابو مسلم وارخى نظره الى الارض ، ثم امر ابا حميد بالانصراف .

وجلس بعد خروجه ساعة وهو مطرق .

وكان المنصور قد كتب الى ابي داود خليفة ابي مسلم بخراسان : ان لك

امارة خراسان ما بقيت .

فكتب ابو داود الى ابي مسلم : انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله واهل بيت نبيه ، فلا تخالفن امير المؤمنين ولا ترجعن الى خراسان الا باذنه .

واتاه كتابه وهو على الحال التي رأيت ، فزاده رعباً وهماً ، وقام في ذهنه ان الناس سيتخلون عنه اذا لم يخضع لابي جعفر .

فامر بأبي حميد فاحضر فقال له : كنت عولت على المضي الى خراسان ، ثم رأيت ان اوجه ابا اسحق فيأتيني برأيه فانه ممن اثق به .

قال : افعل ما يطيب لك .. وتأمرني بالرجوع ؟

- تخرج عندما يخرج ابو اسحق .

وانصرفا في اليوم الثاني ، حتى قدما على المنصور وقص عليه ابو حميد ما جرى.

وقد تلقى بنو هاشم ابا اسحق بكل ما يحب . ثم قال له الخليفة : ان ابا مسلم يثق بك كما علمنا ونحن نثق مثله ، فاي الرجلين احب اليك نحن ام هو ؟

قال : ليس في الامة رجل اعظم من امير المؤمنين .

- اصرف ابا مسلم عن وجهه ولك ولاية خراسان .

ثم امر له بكسوة ومال وقربه اليه .

فرجع ابو اسحق وقال لابي مسلم : ما انكرت شيئاً .. رأيت القوم معظمين لك يرون لك ما يرونه لانفسهم .

وامير المؤمنين ؟

لم يكن قط بالامس احسن منه اليوم .

- وماذا قال لك ؟

قال ، نريد ان نرى امير آل محمد .

وانت ! أتشير علينا بالرجوع اليه ؟

اجل ترجع وتعتذر مما كان منك .

فارسل يستشير ذلك الصديق ، وهو امير فارسي فقـــال له : أعولت على الرجوع ؟

قال : نعم !

قال : احفظ عني واحدة .. اذا دخلت على المنصور فـــاقتله ، ثم بايع .
شئت فان الناس لا يخالفونك .

قال : سأنظر في هذا .

ثم كتب الى المنصور يقول : اني منصرف اليك .

واستخلف مالك بن الهيثم على جيشه وقـال له : أقم حتى يأتيك كتاب
فان اتاك مختوماً بنصف خاتمي فانا كتبته ، وان اتاك بخاتم كامل فلم اكتبه .

وخرج يريد المدائن في ثلاثة آلاف رجل وترك جيشه بحلوان .

* * *

- ٣٠ -

عندما انتهى كتـــاب ابي مسلم الى امير المؤمنين قرأه ثم ألقاه الى ..
وهو يقول : سيصل الخراساني الى المدائن بعد بضعة ايام ثم قال : والله لئن ..
عيني منه لاقتلنه .

فخـــاف ابو ايوب من اصحاب أبي مسلم ان يقتلوا المنصور ويقتلوه ..
فاستأذن وخرج دون أن يقول كلمة .

ثم دعا رجلاً يقال له سلمة بن سعيد بن جابر فقال له هل عندك شكر ؟

- نعم !

قال : ان وليتك ولاية تصيب منها مثلما يصيب صاحب العراق فماذا ..

- اسأل الله ان يوليك الدنيا .

- وتدخل معك اخي حاتماً وتجعل له النصف ؟

- نعم !

وانما اراد ابو ايوب ادخال اخيه ليستأنس الرجل به ولا يستسلم الى ..
والظنون فقال :

لقد كانت كسكر عام اول بكذا وكذا من المال ، أما اليوم فهي اضعاف
وسأدفعها اليك بالامانة فتصيب المال الكثير .

– وكيف لي بهذا ؟

– تأتي ابا مسلم وتطلب اليه ان يسأل امير المؤمنين قضاء هـذه الحاجة له ، فامير المؤمنين يريد ان يوليه وهو لا يبخل عليه بما يسأل .

– ومن يأذن لي في لقاء ابي مسلم ؟

– امير المؤمنين نفسه وانا استأذن لك .

واذن له المنصور ، ثم امره بان ينقل سلامه وأشواقه الى الخراساني .

فسار سلمة حتى لقي ابا مسلم في الطريق فقال له : جئت قبل ان تنتهي الى المدائن اسألك قضاء حاجة لي ، وانا اعلم من انت .

وكان سيد خراسان حزيناً لا تفارق الكآبة وجهه فقال: وما هي حاجتك؟ فحدثه بأمر كسكر ثم قال : فان رأيت ان يوليني إياها امير المؤمنين فانت قادر على ذلك .

– انا ؟؟

– نعم ايها الامير .

– ولكن امير المؤمنين تغير على أبي مسلم وهو لا يطيق أن ينظر اليه .

– كذب الذي قال لك ذلك ، ان القوم من خاصة المنصور يقولون : اذا قدم ابو مسلم وهب له امير المومنين ما يشاء ، ذلك مـــا سمعته ، وانا احلف لك .

فطابت نفسه ووعده بانه سيفعل .

وكانت غاية أبي ايوب ان يؤمن أبو مسلم برضى المنصور عنه قبل ان يدخل عليه ، فينجو هو وينجو المنصور من القتل . وهي حيلة من حيل الوزراء .

واقبل الخراساني بعد بضعة ايام الى المدائن ، فقـــال الخليفة لبني هاشم : اخرجوا للقائه .

فتلقاه الهاشميون والناس كما تلقوه يوم قدم ألانبار في عهد السفاح قبل ان يحج .

ثم استأذن على المنصور ودخل ، فمد اليه المنصور يده وهو يبتسم .

فقبلها وهو مطرق لا يتكلم ، والخليفة لا تفارق الابتسامة شفتيه .

ثم قال المنصور : انصرف الان وامكث ثلاثة ايام حتى تستريح ، فخ
وهو يظن ان الغضب قد زال .

فلما كان الغد دعا الخليفه عثمان بن نهيك واربعة رجال من حرسه ، م
شبيب بن واج وحرب بن قيس وامرهم بقتل ابي مسلم عندما يصفق لهم بيد

ثم قال لهم : امكثوا خلف الرواق .

وكان الحاجب قد استدعى ابا مسلم ، فلما دخل قال له المنصور : خبرني
سيفين أصبتهما مع عبد الله بن علي .

فأومأ الى سيفه قائلا : هذا احدهما .

قال : اعطني اياه .

فجرده وسلمه اليه ، فجعل الخليفة يهزه ثم وضعه تحت فراشه .

وانما فعل ذلك خوفاً من ان يفتك به اذا احس بالشر .

ثم اقبل يعاتبه فقال :

اذكر لي كتابك الى السفاح تنهاه عن الموات أفأردت ان تعلمنا الدين ؟

قال : ظننت ان أخذه لا يحل ، فلما اتاني كتابه علمت انه من بيت هو معد
العلم .

قال : افلم تتقدمني بطريق مكة في العام الماضي ؟

قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق .

– وجارية عبدالله بن علي اردت ان تتخذها ؟

– لا ولكني خفت ان تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها .

– ومن اشار عليك بالخروج الى خراسان قبل ان نأذن لك ؟

– خفت أن يكون قد دخلك مني شيء فقلت آتي خراسان فاكتب اليا
بعذري فيذهب ما في نفسك .

– والمال الذي جمعته ؟

– انفقته على الجند تقوية لهم واستصلاحاً .

قال : الست الكاتب الي تبدأ بنفسك ، وتخطب عمتي آمنة ابنة علي ، وتزعم انك ابن سليط بن عبدالله بن العباس ؟ ؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً .

ثم قال : وما الذي دعاك الى قتل سليمان بن كثير ، مع أثره في دعوتنا ، وهو احد فتياننا قبل ان تدخل انت في هذا الامر .

- اراد الخلاف وعصياني ، ثم خفت ان يبايع بني الحسن بن علي فقتلته .

فلما طال عتاب المنصور قال ابو مسلم: لا يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني .

فرفع امير المؤمنين صوته وقال :

يا ابن الخبيثة والله لو كانت مكانك امة لفعلت ما فعلت ، انما عملت في دولتنا ، ولو كان الامر اليك ما قطعت فتيلا .

وظهر الحقد والغضب في عينيه ، فاخذ ابو مسلم يده يقبلها ويعتذر اليه .

فقال المنصور : ما رأيت كاليوم والله ما زدتني الا غضباً

فاستيقظت في صدر ابي مسلم عزة الامارة فقال : كفى يا امير المؤمنين فقد اصبحت ما أخاف الا الله .

فشتمه ابو جعفر ، ثم صفق بيده على الاخرى .

فخرج الحرس ، وضربه عثمان بن نهيك فقطع حمائل سيفه .

فصاح ابو مسلم : استبقني لعدوك يا امير المؤمنين .

فقال :

لا ابقاني الله ان ابقيت عليك .. وهل لي عدو اعدى لي منك ؟

واومأ الى الحرس بان يتخطفوه بالسيوف .

فأحاطوا به وجعلوا يضربونه حتى قتلوه وهو يصيح !

العفو ، العفو .

فقال ابو جعفر : لم يبق في الصدر متسع للعفو ، لقد اعتورتك السيوف وانتهى الامر .

وكان مقتله في شهر شعبان لخمس بقين منه .

فقال الخليفة :

زعمت ان الدين لا يقتضي　　كذبت فاستوف ابا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقي بها　　امر في الحلق من العلقم

ويقول بعض المؤرخين ان ابا جعفر نفسه اشترك في قتله وضربه بسيفه مع الذين ضربوه .

كذلك يقولون ان ابا مسلم قتل في دولته ستمائة الف .

وكان اهـل خراسان عندما قتل سيدهم في الرواق وهم ينتظرون خروجه ، فدخل ابو الجهم على المنصور فرأى امير خراسان قتيلاً فقال : ألا تأمرني بان ارد الناس ؟

– بلى مر بمتاع يحمل الى رواق آخر وقل للناس ما شئت .

فخرج فقال : انصرفوا فان الامير يريد ان يبقى الآن عند امير المؤمنين .

ورأوا المتاع ينقل فظنوه صادقاً ، فانصرفوا وهم يحملون الجوائز وهبها لهم المنصور في تلك الساعة .

ودخل عندئذ ولي العهد وقد جعل الحرس جثة ابي مسلم في بساط كان في القاعة .

فقال عيسى : يا امير المؤمنين اين ابو مسلم ؟

– قد كان ههنا .

قال : قد عرفت طاعته ونصيحته ورأي الامام فيه .

فقال : يا احمق ، والله ما اعرف في الارض عدواً اعدى لك منه ، ها هوذا في البساط .

فخفض ولي العهد صوته وجعل يقول : انا لله وانا اليه راجعون .

فقال ابو جعفر : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك او سلطان او امر او نهي مع ابي مسلم ؟

ثم دعـا بجعفر بن حنظلة فدخل عليه فقال : ما تقول في امر ابي مسلم ؟

فقـال : يا امير المؤمنين ، ان كنت اخذت على رأسه شعرة ، فاقتل ثم اقتل .

فقال له : وفقك الله .

ثم دله على جثته فقال : هذا اول يوم من ايام خلافتك .

ثم دعـا المنصور ابا اسحق ، الذي بعثه اليه ابو مسلم من حلوان ، وفاجأه بقوله : انت المانع عدو الله من ان يجيء الينا ؟

فجعل ابو اسحق ينظر يميناً وشمالاً خوفاً من ابي مسلم .

فقال المنصور : قل ما شئت فقد قتل الله الفاسق .

وامر باخراج الجثة . فلما رآه خر ساجداً لله فاطال .

ثم رفع رأسه وهو يقول : الحمد لله الذي امنني بك اليوم، والله ما امنته يوماً وما اتيته يوماً الا وقد اوصيت وتكفنت وتحنطت .

ورفع عندئذ ثيـابه الظاهرة فرأى المنصور تحتها ثياب اكفان وقد تحنط ، فرثى لحاله ثم قال: استقبل طاعة خليفتك، واحمد الله الذي اراحك من الفاسق.

ثم قال : فرق هذه الجماعة . وهو يعني اهل خراسان. فخرج ففعل وساعده الناس وساد الهدوء .

فدعا المنصور اهل الانبار وخطب قائلا :

ايها الناس ، لا تخرجوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ، ولا تمشوا في ظلمة الباطل بعد سعيكم في ضياء الحق ، ان ابا مسلم احسن مبتدأ واساء معقباً واخـذ من الناس بنا اكثر مما اعطانا ، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا في قتله وعنفنا في امهاله ... ثم قال :

ما زال ابو مسلم ينقض بيعته ويخفر ذمته ، حتى احل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمنا بموته . ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه .

وما احسن ما قاله النابغة الذبياني للنعمان :

فمن اطاعك فانفعه بطاعته   كما اطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعـاقبه معاقبة   تنهى الظلوم ولا تقصد على حمد

وكتب بعد ذلك بلسان ابي مسلم ، الى مالك بن الهيثم ، خليفة الخراساني يقول له :

اذا اتاك كتابنا فاحمل ما عندك ولا تتردد في المجيء .

وختم كتابهِ بخاتم ابي مسلم كاملاً .

فلما رأى ابنِ الهيثم ذلك الخاتم عرف ان ابا مسلم لم يكتب فقال : لقد فعلوها .

وانحدر الى همذان وهو يريد خراسان

وبلغ ذلك المنصور فكتب اليه : لقد ولُيتك شهرزور

ثم كتب الى زهير بن التركي عامله على همذان :

اذا مر بك ابو نصر مالك بن الهيثم فاجعله في السجن حتى يأتيك كتاب

فسبق كتاب زهير كتاب ابي نصر وهو بهمذان .

فقال له زهير : قد صنعت لك طعاماً فلو اكرمتني بدخول منزلي .

فأتاه فأخذه زهير وامر به فوضع في سجنه .

ثم كتب ابو جعفر الى زهير وامر به فوضع في سجنه .

ثم كتب ابو جعفر الى زهير كتاباً آخر جاء فيه : اذا اتاك كتابنا هذا .. ابا نصر ..!

وقبل ان ينتهي هذ الكتاب الى صاحبه انتهى الى ابي نصر كتاب الـ.. الذي يوليه فيه شهرزور .

فدفعه الى زهير فخلى سبيله وكان له في ذلك غاية وهوى .

ولم يستطع ابن الهيثم الا ان يقدم الانبار ، وقد استأذن عـلى المنصو.. غير خائف .

فلما مثل بين يديه قال المنصور والغضـب في عينيه :

يا ابن الهيثم ، اشرت على ابي مسلم بالمضي الى خراسان ونحن نأمره .. اليـنـا ؟

– نعم يا امير المؤمنين .

– ولم فعلت ذلك ؟

– كانت له عندي يد فنصحت له .

– ولم تخف امير المؤمنين ؟

– ان امير المؤمنين يضع العـــدل في موضعه ، فاذا اصطنعتني نصحت لك وشكرت .

قال : انصرف فقد عفونا عنك وسنرى اي رجل انت .

وانصرف المنصور بعد مقتل ابي مسلم الى بسط نفوذه فياقاليم الدولة بالحزم والقوة والاستبداد والعنف لا يبالي بما يقوله الناس .

وكلما رفع خـــارجي رأسه خفض السيف ذلك الرأس وسالت الدماء حوله لحمل الى خصوم ابي جعفر الرعب والذعر .

وابو جعفر يفكر في طلاب الخلافة بني الحسن بن علي .

وكان يقول في نفسه :

لقد دنت ساعتهم فالويل لهم .

حتى اقبلت السنة التاسعة والثلاثون وهو يعد عدة القضاء عـلى من تحدثـه نفسه بان يمد الى دولته يد سوء .

* * *

– ٣١ –

عندما كان انصار بني العباس ، يمهدون الامر للعباسيين ، ويبنون لهم هـذا الملك الواسع الذي جلسوا على عرشه ،

وعندما كان عمال بني امية في خراسان يسجنون ويقتلون خصوم التـــاج الاموي، كانالامراء ، ووجوه الناس فيالاندلس، يتنازعون الامارة والسلطان، في ذلك القطر .

قتل عبد الرحمن الغافقي ، في حربه مع شارل مارتل ، في السنة الرابعـــة عشرة بعد المئة، فولي الاندلس بعده، عبد الملك بن قطن الفهري، سنتين كاملتين ثم عزل .

وقام بالامر بعده عقبة بن النعمان السلولي ، حتى السنة الحادية والعشرين

حيث ثار اهل الاندلس به ، فخلعوه ، وولوا عبد الملك الذي عزل، وهي الولاية الثانية .

ثم بويع بلج بن بشر القشيري ، وقامت اليمن تسأله ان يقتـــل عبد الملك وكادت نار الثورة تحرق الاندلس .

فأمر به فقتل وعمره تسعون سنة .

وكان له ولدان قطن وامية وهما من ابطال الناس .

فحملا السيف يطلبان بدم القتيل ، غير ان القشيري هزمهما عند قرطبة ، ثم رجع فمات بعد ايام .

وجاء عندئذ دور اهل الشام ، فاختاروا للامارة ثعلبة بن سلامة العاملي ، ولم يستشيروا في ذلك الخليفة الاموي .

ولكن الخليفة ولى رجلاً يقال له ابو الخطار .

فقدم الاندلس في السنة الخامسة والعشرين ودان له النـــاس ، واقبل اليه ثعلبة بن سلامة وامية وقطن ابنا عبد الملك فأمنهم واحسن اليهم .

وكان شجاعاً ذا كرم ورأي فاستقام له الامر .

كثر اهل الشام عنده فلم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد .

أنزل اهل دمشق «البيرة» وسماها دمشق، وانزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص ، واهل قنسرين «بيجان» وسماها قنسرين .

وجعل اهل الاردن في برية سماها الاردن، واهل فلسطين في شذونة ودعاها فلسطين ، واهل مصر في تدمير ودعاها مصر .

ولكن الفتنة لم تلبث حتى قامت يضرم نارهـا الصميل بن حـاتم بن شمر بن ذي الجوشن .

قدم الصميل الاندلس مع الذين قدموها من اهل الشام ، فلمع فيها ، ثم امسى رئيس قومه ، وابو الخطار لا يطيق ان يرى ذلك .

ومرت ايام فدخل الصميل على الامير وعنده الجند ، فامر به فشتم واهين ، فخرج وعمامته مائلة . فقال له بعض الحجاب : ما بال عمامتك مائلة ؟ فقال: ان

كان لي قوم فسيقيمونها .

وبعث الى قومه يشكو اليهم امره فاقبلوا يقولون له : نحن لك .

ثم كتبوا الى ثوابة بن سلامة الجذامي وهو من سادة فلسطين ، فأجابهم الى ما طلبوه وتبعتهم لخم وجذام .

ثم استعرت النار واسر ابو الخطار ، فدخل ثوابة قصر قرطبة وابو الخطار في قيوده وولي ثوابة سنتين ، ثم مات ، وكانت عندئذ فتنة اخرى .

ارادت اليمن ان تعيد ابا الخطار ، فامتنعت مضر وعلى رأسهم الصميل بن حاتم .

وافترقت الكلمة حتى مرت اربعة اشهر وليس على الاندلس امير .

ثم اجمعوا على يوسف بن عبد الرحمن الفهري يتولى الامر سنة ثم يتولاه في السنة التي بعدها رجل من اليمن يختاره قومه .

فلما انقضت السنة التاسعة والعشرون اقبل اهل اليمن جميعهم يريدون ان يولوا احدهم وقد عولوا على القتال .

فقتل الصميل منهم خلقاً كثيراً وقتل ابو الخطار .

تطاعنوا بالرماح حتى تقطعت .. وبالسيوف حتى تكسرت واجتمع الناس بعد ذلك على يوسف بن عبد الرحمن لا يعرض له احد .

وبينا الناس في الاندلس على ما رأيت كان عبدالله بن علي عم السفاح يطارد مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين .

ثم قتل مروان كما رأيت ، وقام العباسيون في كل بلد يبيحون دماء بني أمية ويذبحونهم كما تذبح النعاج .

والامويون يطلبون الحياة فلا يجدونها ولم ينج منهم غير العدد القليل .

* * *

- ٣٢ -

عبد الرحمن

كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك يوم كثر القتل في قومه

مستخفياً عن العيون في مكان ناء يقال له ذات الزيتون .

ثم فر منه واستخفى في فلسطين، ومعه مولاه بدر وهو ينقل اليه اخبار بني العباس ، ويصف له احوال الامويين المساكين الذين يفنيهم السيف .

وعبد الرحمن خائف لا تطمئن نفسه ولا يهدأ له بال، حتى وهب الامان لبني امية ، ثم نكث بهم بنهر ابي فطرس في فلسطين كما عرفت .

فازداد خوف عبد الرحمن سليل الخلفاء ، ورجع الى منزله والكآبة تملأ قلبه ، ثم عول على الخروج من بلاد لا يجسر من بقي من قومه فيها على الظهور ، ونظر فيما يصلحه ويصلح اهله ، ثم خرج ومعه اهل بيته حتى انتهوا الى قرية على الفرات ذات شجر وغياض .

ومكثوا بها زمناً قصيراً لا يغمض لهم جفن من شدة الخوف .

فبينا عبد الرحمن جالس في فنـاء داره ، وولده سليمان وعمره اربعة اعوام يلعب بين يديه سمع في القرية اصوات .

فخرج الصبي ثم عاد باكياً وتعلق بابيه وابوه يدفعه وهو لا ينصرف .

فأطل عبد الرحمن ليرى فابصر الرايات السود رايات بني العباس قد اقبلت ، واقبل من النـاحية الاخرى اخ له صغير السن يقول : النجاة النجاة فهذه رايات العباسيين .

فعرف عبد الرحمن ان القوم خرجوا في طلبه ، فدعـا شقيقاته فقال لهن : ساضرب في الارض حتى ابلغ الاندلس فاذا رأى مولاي بدر ان يلحق بي اليها بعد زمن فليفعل .

واخذ بعض المال ثم قال لاخيه : هيا بنا فليس لنا في هذه الارض حياة .

وخرجا فأتيا رجلاً من انصار الامويين ، وقد احاطت الخيل بالقرية والقوم يبحثون عن عبد الرحمن فلا يجدون له اثراً .

وكان الرجل الذي لجئا اليه قد اعد لهما الدواب وما يحتاجان اليه.

غير ان عبداً له دل الجند على مكان عبد الرحمن ، فاقبلوا في الخيل يطلبونه ويطلبون اخاه .

واي شيء يفعله عبد الرحمن وقد فاجأوه ؟
لم يبق الا ان يخرجا راكضين هاربين من الموت .
وفعلا والخيل تبصرها حتى دخلا في بساتين عـــلى الفرات وسبقا القوم الى النهر فسبحا ،
فجعل القوم ينادونهما بالامان وهما لا يرجعان ، حتى عجز اخو عبد الرحمن من السباحة فرجع اليهم بالامان فاخذوه فقتلوه ، وعبد الرحمن ينظر اليه مـــن الضفة الاخرى والدمع في عينيه ، وكان القتيل في الثالثة عشرة من عمره .
ولكن الدموع يذرفها الامير الاموي لا تنفعه في شيء ، والحكمة تقضي عليه بان يفر من وجه مطارديه .
توارى في غيضة كثيفة على الشاطيء حتى انقطع الطلب .
فخرج متوكلا على الله لا يحمل غير دنانير له وجراب فيه طعامه
ومشى اشهراً حتى بلغ افريقية وعاملها عبد الرحمن الفهري والد يوسف بن عبد الرحمن امير الاندلس .
وقد لحق به مولاه بدر ومعه جواهر له ومال .
فلج الامير الافريقي في طلبه واشتد عليه ، فهرب منه الى مكناس وفيهـــا قبائل من البربر ، فلقي عندهم عذابا لم يرا شد منه في حياته .
وليس لنا ان نصف ذلك العذاب الذي عرض له .
ثم اتى بلداً يقال له نفزاوة فيه اخواله وبدر معه ، فأحسنوا قبوله واكرموه .
فلما اطمأن جعل يكتب الى الامويين من اهل الاندلس يعلمهم بقدومـــه ويدعوهم الى نفسه .
ثم وجه اليهم مولاه بدراً ، والناس في الاندلس ملت نفوسهم الفتنة والقتال ، وكانوا يفكرون في اختيـــار امير لهم تعود معه حال الاندلس الى الهدوء والاستقرار .
وكأن السماء ارسلت اليهم هذا الامير الاموي الذي كان جده هشام بن عبد الملك من ألمع الخلفاء الامويين .

أتاهم بدر فحدثهم ووصف لهم أخلاق اميره وبسالته ومروءته ودهاءه وعلو نفسه ثم دعاهم اليه .

ولم يبالغ بدر في وصفه ، ان عبد الرحمن من اولئك الرجـــال الذين مشوا بالعزيمة الصادقة والارادة الجبارة الى العلاء ، وبنوا لهم ولاحفادهم ملكا تحدث بعظمته كتب التاريخ في كل جيل .

وهو ذلك العصامي الذي استقبل الشدائد بالصدر الرحب واستهان بالخطر خطر الموت من اجل الامر الذي رغب فيه .

نفس طامحة ، وقلب جريء ، ودهاء سياسي ، انتقل اليه ، من اجداده الخلفاء .

وان رجلا قتل العباسيون قومه وسلبوهم نعمتهم التي رافقتهم زهاء جيل يثب وحيداً من المشرق الى المغرب ؛ ليضع بيديه الحديديتين دعائم العرش الأموي في الاندلس ..... ان هذا الرجل بعيد الاثر في التاريخ .

دعا بدر وجوه الناس الى عبد الرحمن فأجابوه ، ثم وجهوا اليه مركبا تمام بن علقمة ووهب بن الاصفر وشاكر بن أبي السمط الذين خرجوا يدعونه الى المجيء باسم اخوانهم الاندلسيين .

وانتهوا اليه بعد ايام وفي صدورهم طاعة لا حد لها ، ورغبة في حمل السيف يقاتلون به اعداءه . واخذوه ورجعوا الى الاندلس .

وفي شهر ربيع الاول ، من السنة الثامنة والثلاثين ، بعد المئـــة ، رسا مركبهم في مرفأ اندلسي ، فأتته الجماعات من اهل اشبيلية ، تعرض عليه السيوف .

وكان اهل اليمن قد غضبوا على الصميل بن حـــاتم ويوسف بن عبد الرحمن الفهري امير البلاد ، فأتوه ثم بايعوه .

* * *

- ٣٣ -

اقام المنصور بمدينة الهاشمية التي وضع السفاح الحجر الاول منهـــا بجوار الكوفة ، ومع المنصور خاصته وجنده ووجوه الناس وطوائف العامة .

قائد حرسه عثمان بن نهيك، ووزيره ابن عطية الباهلي، وحاجبه ابو الخصيب وخادمه الخاص سلام الابرش .

وحوله جماعة من القواد بينهم خازم بن خزيمة الذي قرأت في الجزء السابق شيئاً عنه ، والذي قص حلمه على السفاح قبل ان يسيره الى عمان .

ولخازم ولدان وفتـــاة تدعى عاتكة هي سيدة الجمال في الهاشمية ، بل هي احدى سيداته في بلاد العراق .

وكانت في السنة الاربعين بعد المئة في الخامسة عشرة مـــن العمر سن المرح والصبا والشباب .

وابوهـا خازم ، شديد الاعجاب بها ، حتى ليتيه عجباً وعزاً بجمالها الخلاب كلما حدثه بامرها قائد من قواد المنصور او امير من امراء البلاط .

ولم ينس ان يقص عليهم ذلك الحلم الذي قصه على امير المؤمنين السفاح .

حتى انتهى خبره الى المنصور فقال لسلام الابرش : نحن بحاجة الى ابن خزيمة فاذا اصبحنا فادعه الى القصر قبل ان نجلس للناس .

– وتأذن له في الدخول عليك قبل ان تخرج الى المجلس .

قال : كنت يا ابرش ولم تزل ابله كثير الكلام ، ان الخليفة لا يستقبل احداً في منزله الخاص ، ادعه الى القاعة الكبرى التي تعلم ، وقل لأبي الخصيب حاجبنا ان لا يأذن الا للخاصة .

ثم قال لخالد بن برمك وابن عطيه : ما هذا الحلم الذي يقصه ابن خزيمة عـلى الناس ؟

فقال خالد : أخبرني به اكثر من مرة ولم احفظ شيئاً منه .

– وانت يا ابن عطية ؟

– لا اذكر غير ناحيه واحدة منه ، هي ان فتى من ولد العبـــاس سيحب ابلته عاتكة .

قال : امرنا باحضاره غداً وسنسأله عن ذلك .. انا نحب الرجـل لأنه مخلص

لدولتنا وقد ابلى في حروبنا البلاء الطيب ، أفلا ترى انت يا ابن عطية ، ما نراه نحن ؟

– بلى يا امير المؤمنين !

– وانت يا ابن برمك ؟

– لولا اعجابه الغريب بعاتكة لكان خير الناس .

– ان في هذا الاعجاب شيئاً من الخفة ، ولكن لا عيب فيه ، ومن لا يعرف عاتكة ؟

فقال الاثنان : لم نرها قط .

– سنسأله عنها وعن حلمه .. والآن فاكتب يا ابن برمك الى علي امير البصرة انا قد عزلناه وولينا سفيان بن معاوية .

فقال الوزير في نفسه :

لقد جاء دور عبدالله بن علي ثم قال : وماذا صنع عبدالله يا امير المؤمنين ؟

– لجأ الى اخيه سليمان وهو عنده ، وسيستخفي في مكان آخر عندما يبلغه اننا عزلنا أخاه .

– ويريد أمير المؤمنين ان يظل عبدالله بعيداً عنه؟!

– ليس لنا غنى عن عبدالله، سندعوه الينا وننزله قصرنا وهذا خير ما نصنع مع رجل شهر السيف في وجه أمير المؤمنين .

واطرق ملياً ثم قال :

اكتب وابعث بالكتاب الساعة .

ثم نادى :

يا ابا الخصيب علينا بقائد الحرس .

فأقبل عثمان بن نهيك بعد لحظة وهو يقول : مر يا امير المؤمنين .

قال: تتكلم كثيراً ولا تفعل شيئاً . ماذا عرفت عن الرجل الذي ذكرناه لك أمس

– معن بن زائدة ؟

- اجل معن بن زائدة الشيباني ، لقد قبضنا على جميع رجال يزيد بن هبيرة الذين لم يستسلموا بعد مقتل يزيد ، الا معنا فقد فر ومضت الاعوام ونحن نبحث عنه ، وانت تعدنا من يوم الى آخر ، ثم تنصرف وابن زائدة لا أثر له .... قل ماذا صنعت ؟

- اعترف لامير المؤمنين اني لم اسمع شيئاً عنه .

- قيل لنا انه في الكوفة .

- لو كان في الكوفة لما استطاع الاحتجاب ، سنجعل يا أمير المؤمنين أهل الكوفة جميعهم عيوناً عليه .

- كانك انت عين عليه ... اسمع ... ان امير المؤمنين يبذل الكثير لمن يحمل اليه معنا حياً ، ولك انت ان تبذل من بيت المال ما تشاء .

ثم قال لابن عطية :

لقد عرفت معناً فما رأيك فيه ؟

- وتأذن لي ان اقول ما اعلم ؟

- نأذن لك .

ان الرجل يا امير المؤمنين سيد بني شيبان وهو بطل مغوار لا ينثني ولا يغمد سيفه الا اذا كسر في يده .

اصبت فهكذا يصفه الناس ثم يزيدون انه الكريم الجواد الذي يعطي ما لديه ويهب ثوبه لمن يسأله اياه .

وهذا صحيح يا أمير المؤمنين .

وأي شي دعاه الى الاستخفاء وقد استسلم الناس ؟

كره ان يذل وهو العزيز في قومه ، ثم انتهى اليه بعد ذلك انــــه سيقتل فآثر الاحتجاب على الموت .

فقال لعثمان : افعل مـــا امرناك به وابذل المال لكي تقضي عليه ، وهؤلاء (الراوندية) الذين حدثتنا بامرهم منذ بضعة ايام من هم ؟

قوم من خراسان من انصار أبي مسلم .

– عرفنا ذلك ولكن اي مذهب لهم ؟
– يقولون بتناسخ الارواح يا امير المؤمنين .
فقال ابن عطية :
وهم يزعمون ان روح آدم في قائد حرسك عثمان بن نهيك .
فضحك المنصور وقال :
اذن فاذا حدثنا عثمان فكأننا نحدث آدم عليه السلام
- وتعلم يا امير المؤمنين من هو رب الراوندية .
– لا !
– هو أنت يا امير المؤمنين .
– نحن ؟
– نعم فانت تطعمهم وتسقيهم والهيثم بن معاوية عندهم هو جبريل .
قال : لقد كفر القوم فاحذرهم يا عثمان ولا تكتمنا من امرهم شيئاً .
واذن بعد ذلك للناس وجعل ينظر في امورهم على عـــادته حتى جن الليل فانصرف الى منزله .

وعند الصباح دخل عليه ابن خزيمة فقــال له : كنا نعلم يا ابن خزيمة من قبل انك من قواد الجيش اصحاب البلاء الحسن في الحرب .
– وهل علم امير المؤمنين اليوم غير ذلك ؟
– علمنا انك تؤمن بالاحلام وقد يخطر لك غداً ان تفسرها متشبهاً بيوسف ابن يعقوب .
وابتسم ابتسامة الاستخفاف .
فقال : لا والله لا أؤمن بهـا يا امير المؤمنين ولكن يطيب لي ان اقص على الناس حلماً رأيته في عهد اخيك امير المؤمنين ابي العباس .
– لو لم تكن مؤمناً بحلمك لما حدثت الناس به ولما وصفت لهم جمال ابنتك عاتكة الذي احبها في الحلم فتى من آل عباس .
ثم قال : من هو العباسي عاشق ابنتك ؟

- لم يذكر الحلم لي .
- لعله ولدنا محمد (المهدي) .
- لا يا امير المؤمنين .
- ومن اذن ... ولدنا جعفر ؟
- لا وانما هو فتى من اهل امير المؤمنين ، وقد رأيته بعيني الاثنتين جـالساً مع امير المؤمنين على سريره وابو العباس رحمه الله ينظر اليه نظرات الحب كأنه من بليه .
- ولكنك كنت سيء الحظ يا ابن خزيمة .
- وكيف ذلك ؟
- استيقظت فلم تر احداً وانتهى امر حلمك .
- نعم يا امير المؤمنين وتلك هي نهاية الاحلام .
قال : احمد الله فقد بقيت عاتكة لك .. صفها لنا .
قال : ليس في الهاشمية بين بنات القواد اجمل من عاتكة .
- وتطمع ان تزفها الى فتى من اهل البيت ؟
لا يا امير المؤمنين لقد كان ذلك حلماً كما قلت .
- واذا رغب امير المؤمنين في هذا ؟
اني وولدي عبيد امير المؤمنين .
- وتقدر ان تصف الفتى الذي رأيت ؟
- خيل الي انه من ابناء ... الخلفاء .
قال سننظر قريباً في امر عاتكة انصرف الآن .
ثم قال له قبل خروجه : لا تقل لاحد من الناس انا سألناك عن حلمك وعن ابنتك .
وكان قد خطر للمنصور عندما استدعاه ان يتبين جمال عاتكة وأدب نفسها واخلاقها ثم يخطبها بعد ذلك لواحد من بنيه .
ولكنه نسي الخطبة والزواج كما نسي ابن خزيمة بعد انصرافه ، وجعل يفكر

في امر عبد الرحمن الاموي الذي انتهت اليه أخبار جلوسه على عرش الاندلس ا
ثم ينتقل في تفكيره الى عمه عبدالله بن عـــلي اللاجيء الى البصرة ثم الى محمد بن
عبدالله بن الحسن الطامع بالخلافة .

واقبل عندئذ ولده المهدي وقد ارخى نظره الى الارض .

فقال المنصور : في اي شيء تفكر يا محمد ؟

– في هذا الاموي الذي وثب من الشام الى الاندلس ليصير ملكا .

– وتفكر في شيء آخر ؟

– اجل ارسل نظري الى عمك عبد الله بن علي الذي ينزل البصرة آمناً بعد
ان حارب أمير المؤمنين ليسلبه الخلافة .

– ولم انس قط آل علي بن ابي طالب الذين يزعمون ان الخلافة لهم وحدهم
ولا حق لبني العباس .

فابتسم ابتسامة الرضى وقال :

مثلك من يلي الخلافة بعد المنصور .

– ولكن الخلافة بعدك لعيسى بن موسى .

قال : اسكت فليس لابيك هم غير ولاية العهد وسيعد لها عدتها بعـــد زمن
قصير ان شاء الله .

قالها وانصرف مع المهدي الى قراءة الكتب الواردة من الاقاليم، ويعد لكل
كتاب جوابه قبل ان يدخل الوزراء والخاصة .

وكان يسأل ولده محمداً رأيه فيما يقرأ .

* * *

– ٣٤ –

انتقل عبد الرحمن الاموي بعد ان بايعه اهل اليمن في الاندلس الى النواحي
البعيدة والقريبة ، يبايعه اهلها ويعرضون عليه السلاح والمال ، حتى اتى قرطبة
وامير الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري غائب عنها ومقيم بطليطلة .

فلما بلغه الخبر وهو راجع رأى أن الامر قد خرج من يده وخير له ان يعمد الى

الدهاء واللين ليسترجع ما خسر .

على أن الأموي كان اسبق الى الدهاء ، ارسل الى الفهري يسأله الصلح ، فأجابه الآخر الى طلبه وأمر رجاله بالبقاء على ضفة نهر .

ثم اقبل عبد الرحمن في اصحابه الى الضفة الاخرى وفي نفسه الخداع والرياء ، وطلب ليوسف الفهري أن يعد الطعام للناس يوم الأضحى .

ولكن عبد الرحمن عبر النهر ليلاً ، ونشب القتال ليلة الاضحى واصحاب الفهري يظنون ان الصلح قد تم .

حتى طلع الصبح ، فركب عبد الرحمن على بغل لئلا يظن الناس انه يهرب ، واسرع القتل في اصحاب الفهري فانهزم ، وبقي الصميل بن حاتم يقاتل مع جماعة من عشيرته . غير انهم انهزموا بعد قليل وظفر عبد الرحمن .

وبعد يومين دخل قرطبة واخرج أهل الفهري وخاصته من القصر ، ثم خرج في طلبه وقد لجأ الى ماردة .

وكان الخبر قد انتهى الى يوسف فمشى من ناحية اخرى يريد قرطبة ، ثم دخلها فأخذ أهله وماله ولحق بمدينة تدعى البيرة .

فلم يبق الا ان يلحق به عبد الرحمن الى المدينة التي ذكرنا .

وقد انضم فيها الصميل الى يوسف ، وانضم اليهما جيش من العشيرتين والانصار الذين كانوا اتباعاً لهما .

وتراسل الفريقان في الصلح من جديد وكانت الشروط ان ينزل الفهري قرطبة بامان ، ويجعل ابنيه محمداً وعبد الرحمن رهناً عند الامير الاموي .

ثم سارا الى قرطبة بعد ذلك ، ولم يلبث الفهري والصميل بن حاتم حتى نكثا العهد فقتلا ، واستقام امر الاندلس لعبد الرحمن وكان يدعو على المنابر للخليفة المنصور . وبدأ ببناء القصر والمسجد الجامع العجيبين .

* * *

- ٣٥ -

عندما عزل المنصور عمه سليمان عن البصرة اختفى عمه الاخر عبدالله بن علي

ومن معه من اصحابه لا يجسرون على المرور ، فأرسل المنصور الى نسيبيه سليمان وعيسى ولدي عبدالله بن علي بن عباس يسألها ان يوجها اليه عبدالله واصحابه واعطاهما الامان لهم .

وكتب اليهما : ليس لكما عذر فلا تترددا وقد أمنا عبد الله .

وسليمان وعيسى يعلمان موضع عبدالله بن علي ، فأتياه وعنده خاصته فقالا : ان امير المؤمنين يأمرنا بان نحملك اليه ، ولك ولاصحابك الامان .

واطلعاه على الكتاب فقال : اخشى ان يغدر بي كما غدر بأبي مسلم .

فقال عيسى : لم يبق لك بعد امانه ما تعتذر به . وهكذا قال سليمان .

فلم يستطع عبدالله الا ان يفعل ما اشارا به عليه ، وكيف لا يسير الى المنصور وقد ملت نفسه الاستخفاء وملأ الخوف قلبه .

اجمعوا على الذهاب الى الهاشمية بعد اسبوع يمر على وصول الكتـــاب . الا خفاف بن منصور احد رجال عبدالله فقد قال : اسير معكم على شرط .

فقال عبد الله : ما هو ؟

— ان اطعتموني شددنا شدة واحدة على المنصور ، فوالله لا يحول بينه وبيننا حائل حتى نأتي عليه ولا يعرض لنا احد حتى نقتله وننجو بانفسنا .

فعصوه قائلين : خير لنا ان نسير مستسلمين .

فلما كان شهر ذي الحجة قيل للمنصور : هذا سليمان وعيسى قد اقبلا ومعهما عبدالله بن علي وقواده ومواليه .

فقال في نفسه : لقد اعددنا العدة لعبدالله .

ثم قال لحجابه : يدخل عيسى وسليمان ، اما عبدالله فاذهبا به بعد دخولهما الى المكان الذي هيأناه له في القصر دون ان يعلم الاثنان .

ودخل الرجلان فهش لهما قائلا : لقد فعلتما ما امرناكما به ، اجلسا .

فقال عيسى : وكنت تشك فينا يا امير المؤمنين ؟

— لا ولكنا علمنا ان عمنـــا عبدالله لا يأتينا الا اذا أشرتما عليه بذلك .. اين هو ؟

– في الرواق .

– ومن معه من قومه ؟

– قواده ومواليه .

– وفيهم خفاف بن منصور ؟

– نعم !

فأراد ان يشغلهما بالحديث ريثما يحمل عبدالله الى مكانه فقال : صفا لنـا حال البصرة .

فقال سليمان : البصرة واهلها بخير يا امير المؤمنين .

– واميرها الجديد سفيان بن معاوية ؟

– لقد دخل البصرة منذ شهر فلا نستطيع ان نصفه لك .

– واي الاميرين اقرب الى الناس عمنا سفيان او ابن معاوية ؟

فقال دون ان يتردد : ابن معاوية اقرب الى الناس واحب .

فعرف المنصور من سرعته في الجواب انه يؤثر سليمان عـلى الف رجل مثل سفيان ، ولكن خوفه من غضب المنصور منعه من اظهار هذا الحب .

فقال المنصور : نحن نؤثر سليمان على ابن معاوية ، ولكنه اخفى اخاه عبدالله ولم ينصح له بالمجيء الينا فولينا سفيان .

ثم قال : ولاتنـا في الاقاليم هم : زياد بن عبيدالله الحرثي عـلى مكة والمدينة والطائف ، وولي العهد عيسي بن موسى على الكوفة وهو قريب منا ، وسفيان على البصرة ، وابو داود خالد بن ابراهيم الذهلي على خراسان. فما رأيك يا سليمان في هؤلاء ؟

– انهم وجوه الناس يا امير المؤمنين .

– وقاضي البصرة سوار بن عبدالله كيف تراه ؟

– يضع العدل في موضعه واهل البصرة راضون عنه .

فجعل يقول : الحمد لله الحمد لله لقد ولينا الاكفاء .

وكان قد عرف عندئذ ، ان عمه عبدالله، قد انتقل الى القصر، فنهض قائلاً:

انصرفا وخذا عبدالله معكما .

– ولا يأذن له امير المؤمنين في المثول بين يديه ؟

– اما اليوم فلا .

فخرجا فلم يجدا عبدالله ، فرجعا الى المنصور .

ولكن الحجاب تصدوا لهما وهم يقولون : لقد دخل امير المؤمنين منزله فلا نأذن لأحد في الدخول .

فقال عيسى : كلمة واحدة نقولها ثم ننصرف .

– دع الكلام الى وقت آخر فلا سبيل اليه الآن . ومنعا من الدخول ،

وكان الحرس في تلك الساعة قد احاط بقواد عبدالله ومواليه ، واخذت منهم سيوفهم ودفعوا الى السجن الذي اعده المنصور لأعداء العرش .

فانصرف عيسى وسليمان وهما يقولان : هذا هو الأمان الذي يبذله المنصور لخصومه ؟!

ثم جلس المنصور في اليوم الثاني وامر بأصحاب عبدالله فحملوا اليه ،

فجعل يسأل كل واحد منهم سؤالا ثم يأمر بضرب عنقه ،

حتى ضربت اعناق بعضهم وعيناه تنظران الى الدم المسفوك .

ثم كف عن البعض الآخر قائلا : ابعثوا بهؤلاء الى ابي داود عامل خراسان واكتبوا اليه ان يقتلهم .

ففعلوا وكانت خراسان قبراً لهم .

وفي العام نفسه مات ابو داود فولى المنصور عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى .

* * *

- ٣٦ -

كان سليمان بن حبيت بن المهلب ، في اواخر دولة بني امية ، عاملا لهم على الأهواز .

وموريان قرية من قرى الاهواز وهي التي ينسب اليها ابو ايوب سليمان بن سليمان الخوزي .

وابو ايوب كان كاتباً لابن المهلب وهو رجل ذكي قدير يحسن الادارة كما يحسن الكتابة وقد جعله ابن المهلب من المقربين اليه .

والمنصور نفسه ، نعم امير المؤمنين نفسه ، كان في ذلك الزمن ينوب عن سليمان بن المهلب في بعض نواحي الاهواز ،

يقوم بادارة بعض اموره ويجبي له الخراج .

فاتهمه في احد الاعوام بانه احتفظ لنفسه ببعض المال ، ولم يبعث به اليه ، وقد نهاه عن ذلك من قبل .

والمنصور يدافع ولا يعترف بهذا المال الذي اتهم به، فدعاه ابن المهلب ثم أمر به فضرب بالسياط ضرباً شديداً ، وعول على الفتك به ، والمنصور لا يجد من يشفع فيه .

حتى قام ابو ايوب فقال للامير : استحلفك باسم المهلب ان تكف عنه وتنسى ذنبه .

ولج في طلبه حتى عفا عنه ، فخرج المنصور في ذلك اليوم ، وهو شاكر لابي ايوب شفاعته ، وقد رأى انه نجا من الموت .

ودار الزمان دورته بعد ذلك ، فتربع المنصور في عرش الخلافة ودانت له الدنيا كما رأيت .

استوزر خالد بن برمك ، ثم أستوزر بعده ابن عطية الباهلي ، ومرت السنون حتى انتهينا الى العام الحادي والاربعين .

وكان المنصور قد رآه يوم كان ابو مسلم الخراساني يقاتل عبد الله بن علي فقال له : دعني اليوم وارجع في وقت آخر .

وقد فكر في ان يرد جميله بجميل مثله ، وكان اهون عليه ان يجعل له المقام العالي في بلاطه من ان يهب له شيئاً من المال .

واقبل ابو ايوب، في العام الواحد والاربعين بعد المئة ، فنزل ليلة في الهاشمية

دون ان يظهر نفسه ثم مشى في اليوم الثاني يستأذن على المنصور .

ومثل بين يديه وعنده الخاصة وجماعات الناس ، فابتسم له واستدناه ثم قال: أتذكر ذلك اليوم يا ابا ايوب ؟

فخجل الرجل وتمتم يقول : انه يوم لا يذكر مثله يا امير المؤمنين .

– بل نذكره على مسمع من هؤلاء ، اسمعوا ايها الناس ، ان امير المؤمنين مدين بحياته لأبي ايوب .

فقال عمرو بن العلاء وهو من اعظم قواد الدولة : والامة مدينة بالعظمة والمجد لأمير المؤمنين .

– ما لنا ولهذا الآن ... نحن نقول ان حياتنا بقيت لنا بفضل الله وفضل هذا الرجل ، ولو لم يقف بيننا وبين سليمان بن حبيب بن المهلب ، امير الاهواز في عهد بني امية ، لكنا اليوم تحت التراب ... اذكر حاجتك يا ابا ايوب .

– لم اجيء يا امير المؤمنين لحاجة لي .

– وماذا اذن ؟

– اتيت لاقول لامير المؤمنين اني ابذل دمي من اجله ثم اعود الى البلد الذي اتيت منه .

– الى موريان ؟

– نعم !

– وما تصنع فيها ؟

– لي ضيعة صغيرة اعالج فيها امري وامر اهل بيتي .

– ولا يطيب لك ان تقيم بالهاشمية بالقرب من الخليفة ؟

– الخليفة يعلم اني عبده واني اؤثر القرب منه على الدنيا وما فيها .

فجعل المنصور ينظر الى الناس ثم اومأ الى ابن عطية ان يدنو منه ، فلما فعل هامسه قائلاً : لقد اتعبتك الوزارة على ما نرى أليس كذلك ؟

فاضطرب الرجل ثم قال : اني على الطاعة وهذا حسبي .

– لك ان تختار منصباً غير هذا ونحن نوليك ، هذا خالد بن برمك لقد كان

وزيراً فنحيناه وهو لا يزال من خاصتنا ومن مستشاري القصر .

وحول وجهه عنه ثم قال : يا ابا ايوب ، كنت كاتباً لسليمان بن المهلب ، وقد خبرت الزمان ونحن نعلم اي رجل انت ، فاطرق ولم يجب .

ثم قال المنصور : وانت تحسن الادارة ، وعندك من الفطنة ما يرفعك في عيون الناس ، لقد جعلك امير المؤمنين وزيره وهذا ابن عطية قد تنحى .

قال : اني اضعف من ان اصير وزيراً لك ، فالتفت الناس الى ابن عطية وكان يبتسم .

اما المنصور فقال : لكم الآن ان تحدثونا بغير هذا .

فقال عثمان بن نهيك: يا امير المؤمنين ، ان هذه الجماعة التي يقال لها الراوندية تروح في الهاشمية وتجيء ، وقد كثر رجالها ، وكأن في النفوس سراً لم تبح به الايام .

فخفض صوته قائلاً : انها بشرى تزفها الينا بارك الله فيك ... وهل علمت من امرها اليوم غير ما علمت بالامس ؟

– لا يا امير المؤمنين .

اما نحن فقد علمنا وأمير المؤمنين لا يغفل عما تغفل عنه انت .

فأصغى الناس فقال : يقول هؤلاء بتناسخ الارواح ، ويزعمون ان روح آدم فيك يا ابن نهيك ، وان الخليفة ربهم الذي يطعمهم ، وهنالك أشياء اخرى يتظاهرون بها على مرأى من الناس .

– وماذا علمت يا امير المؤمنين ؟

انهم من رجال ابي مسلم وهم يريدون ان يثأروا به ويقتلوا الخليفة .

فوضع عمرو بن العلاء يده على سيفه وقال : مرنا بضرب رقابهم في ساعة واحدة .

وكان المنصور يأذن لقواده في المثول بين يديه وعليهم السيوف فقال :

ليست القضية قضية حرب يا ابن العلاء ، وانما هي حكمة ودهاء ، اجعل عيونك في الهاشمية يا ابن نهيك واحص على القوم انفاسهم ولا تستخف .

– سأفعل يا امير المؤمنين .
– واحذر فالهاشمية لا جيش فيها اليوم .
– فيها الشرطة والحرس .
– ولكن الراوندية اكثر من هؤلاء .
– ومع ذلك فهم لا يجولون جولة حتى يسقطوا تحت اقدام حرسك .
قال : وثقنا بك فانصرف .
وأومأ الى الناس فانصرفوا .

وبدأ أبو أيوب عمله ، ولكنه كان خائفاً على رغم قربه من المنصور ومقامه عنده ، حتى ان فرائصه كانت ترتعد هلعاً ورعباً كلما دعاه اليه .

ذلك لانه كان يعلم ان الانسان عندما يدنو من المنصور يزداد الخطر دنواً منه، وقد تذهب حياته في ليلة يشتد فيها الظلام .

روى ابن خلكان : « ان خالد بن يزيد الارقط قال : بينا ابو ايوب جالس في امره ونهيه أتاه رسول المنصور ، فتغير لونه ، وبدت على وجهه دلائل الذعر .

ثم رجع فقلنا له : نعجب لخوفك الذي رايناه .

فضرب لنا مثلاً قال : زعموا ان البازي قال للديك : مـا في الارض حيوان اقل وفاءً منك .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : اخذك اهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت عـلى ايديهم واطعموك في اكفهم ونشأت بينهم ، فلما كبرت صرت لا يدنو منك احد الا طرت هنا وهنا .... اما انا فقد اخذوني كبيراً من الجبال فعلموني والفوني ، ثم يخلى سبيلي فآخذ صيداً في الهواء واجيء به الى صاحبي .

فقال له الديك : لو رايت البزاة ، في السفافيد المعدة للشي ، كما رايت الديوك في سفافيدها لكنت انفر مني .

ثم قال ابو ايوب لجلسائه : وانتم لو علمتم ما اعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من مقامي » .

واتخذ ابو ايوب ابان بن صدقة كاتباً له .

* * *

- ٣٧ -

معن بن زائدة

كان معن الجواد العربي والبطل الذي تشهد له الميادين يتنقل ايام بني امية في الاقاليم . ثم انقطع الى يزيد بن عمر بن هبيرة امير العراقين .

فلما استولى بنو العباس على الملك وحوصر يزيد بن هبيرة بواسط على ما رايت ، ابلى معن معه يومئذ بلاءً حسناً انتهت اخباره الى ابي جعفر .

ولم يكن ابو جعفر خليفة في ذلك العهد ، ثم استسلم ابن هبيرة وبذل له الامان ثم قتلوه ، فخاف معن وآثر الاحتجاب .

وبقي زماناً طويلاً يستخفي هنا، ثم يلجأ الى مكان آخر ، حتى تولى المنصور. وكان ذلك العهد اشأم عهد رآه ابن زائدة .

لج المنصور في طلبه وبذل لمن يقبض عليه المال الكثير ، وهو يجود بما له ويملأ الموضع الذي يقيم به من مظاهر كرمه وبذله .

لكن خوفه يشتد كلما اشتد المنصور في الطلب ، حتى ضاقت الأرض به فتنكر وركب جملا له يريد ترك البصرة الى البادية .

وعندما خرج من باب المدينة تصدى له عبد اسود متقلد سيفاً ، ثم قبض على خطام الجمل فاناخه ووضع يده على يد معن قائلاً له : انت طلبة امير المؤمنين ، انت معن بن زائدة .

فكره معن ان يعمد الى سيفه فقال له: خذ هذا ولا تكن سبباً لسفك دمي. واخرج عقد جوهر يبلغ ثمنه اضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن .

فجعل الاسود ينظر الى العقد ثم قال : لست اقبله حتى اسألك عن شيء فان صدقتني اطلقتك .

قال : اسأل

قال : ان الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله ؟

ـ لا ؟

ـ فنصفه ؟

ـ لا !

ولم يزل حتى بلغ العشر ، فقال معن : نعم وهبت عشر مالي .

فقال : انا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهما ، وهذا الجوهر قيمته الوف الدنانير ، وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ، لجودك المأثور بين الناس ، ولكي تعلم أن في الدنيا من هو اجود منك ، فلا تعجبك نفسك .

ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وانصرف .

فقال له معن : لقد فضحتني ، ولسفك دمي اهون علي مما فعلت ، فخذ ما دفعته لك فاني في غنى عنه .

قال : اردت ان تكذبني في مقالي ، والله لا اخذته ولا اخذت لمعروفي ثمنا .

فأقبل ابن زائدة ينظر اليه وهو راجع لا يلتفت الى الوراء حتى توارى .

فخاطب نفسه قائلاً : هذا هو الجواد الذي تنحني له اجواد العرب .

ودفع جمله الى البادية واستخفى فيها زمناً ليس بالقصير .

ثم مل هذا الصنف من الحياة وعول على المجيء الى الهاشمية نفسها مدينة المنصور ، فقد يرى فيها ملجأ له ، وقد يجد صديقاً مقرباً الى الخليفة يشفع فيه .

وهذا هو الخطر خطر الموت يقدم عليه معن ولا يبالي .

وكان ابو الخصيب حاجبُ المنصور صديقاً له ، فأتاه في ليلة سوداء وكان الليل قد ذهب نصفه .

فلما رآه ابو الخصيب قال : هذا معن ام خياله ؟

وجعل يتفرس فيه ، فقال بل هو معن يا ابا الخصيب ، وقد اتاك مستجيراً طالباً اليك ان تسأل له الامان ، فالمنصور يسمع لك .

- انه يصغي الي في كل شيء الا فيك . اين كنت ؟

ـ وتسألني ايضاً اين كنت ؟ كنت في البادية تحت السماء اجعل الارض

فراشاً لي وعباءتي الغطاء .

– وفي اي شيء قدمت الآن ؟

– كرهت الحياة فقدمت ليضرب المنصور عنقي او يغفر لي .

قال : انصح لك بان تعود الى المكان الذي اتيت منه ، فامير المؤمنين يلج في طلبك اليوم وقد بذل فيك المال الكثير .

– اعرف ذلك وأنا لا ارجع .

– ولكن بقاءك يكلفني حياتي .

قال : أتردني يا ابا الخصيب وانا قد آمنت بانك ستنقذني مما انا فيه ؟

– وهل تظن اني قادر على ذلك ؟ اما والله لو قيـــل لي ان امير المؤمنين لا يرضى عنك الا اذا اديت الف الف لأديت انا المال دون ان اسألك .

– وماذا اصنع ؟

– تعود الليلة كما قلت لك لأني اخشى ان يطلع الصباح فتراك العيون .

قال : لست براجع حتى يتم لي واحد من امرين ، اما الامان او الموت . وتدخل انت على المنصور فتسأله ان يؤمنك ؟

– لا بل تسأله انت وتقول له ان معناً في منزلك ، وهو لا يترك الهـــاشمية حتى تجود عليه بالامان .

– اذن تهيأ للقاء ربك فالمنصور لا يعفو .

- لقد تهيأت واوصيت ، وقد يخلق الله الليلة ما لا نعلم واني قد توكلت عليه عز وجل .

فدله على مخدع له قائلاً : ادخل ونم انا لله وانا اليه راجعون .

وكانت جماعة الراوندية في تلك الليلة تتهيأ للظهور ، وقد خلت الهاشمية من الجيش وليس فيها غير الشرطة والحرس .

فلما طلعت الشمس خرجوا صفوفاً فاتوا قصر المنصور وهم يقولون : هذا قصر ربنا .

وبين يدي المنصور خازم بن خزيمة وعثمان بن نهيك .

فقال لهما : ما هذا ؟

فخرج عثمان ثم رجع وهو يقول :

هؤلاء الراوندية يا امير المؤمنين .

فقال وهو هادىء : وما صياحهم ؟

يطوفون حول القصر ويقولون : انه قصر ربنا .

بل يطوفون حوله ليدخلوه ويقتلوا امير المؤمنين .. يا ابن خزيمة ويا ابن نهيك انظر فيما تصنعان :

فقال عثمان : مرنا يا امير المؤمنين .

قال : اقبضا على رؤسائهم واجعلوهم في السجن .

فخرجت الغلمان ينادون الشرطة والحرس حتى اجتمعوا وجعلوا الراوندية داخل نطاق من السيوف والحراب .

ثم قبضوا على مئتين وتفرق الآخرون .

ولكن هذا التفرق كان حيلة منهم، فقد حملوا نعشاً وليس فيه احد وساروا به حتى انتهوا الى باب السجن . وكانوا ستمائة رجل .

فرموا بالنعش وحملوا على الناس ثم دخلوا السجن واخرجوا اصحابهم ومشوا والسيوف في الايدي يريدون القصر .

وقد ظهرت غايتهم ، فتنادى الناس وغلقت ابواب المدينة لا يدخلها احد .

فنهض المنصور وخرج من قصره ماشياً ، ولم يكن في القصر عندئذ دابة يركبها . وامر رجاله ان يجعلوا السيف في الرقاب .

ومشى معه الربيع بن يونس من حجابه ، واتى المنصور بدابة فركبها ثم ركضها وهو يريد القتال .

فعرفه القوم فكثروا حوله حتى كادوا يقتلونه ، وابو الخصيب بركابه وكان يهم بان يسأله الامان لمعن .

وجعل المنصور ينادي : احفظوا باب القصر .

فبينا الخليفة على دابته وقد اشتد الخطر أقبل فارس متلثم لا يرى من وجهه

عينيه ، ومشى الى ناحية المنصور .
فلما انتهى اليه رمى بنفسه وسيفه في يده ، ثم ادخل ذيل قبائه في منطقته واخذ لجام دابة الخليفة وقال له : انشدك الله يا امير المؤمنين الا رجعت .
فاجابه قائلا دع عنك هذا .
وهم الربيع ان يأخذ بلجام الدابة فقال له الرجل : ليس هذا من ايامك ، وجعل يقاتل الرجال الذين كانوا يحاولون الوصول الى المنصور حتى قتل اربعة وهو لا يترك اللجام .
وحمل خازم بن خزيمة على القوم حتى الجأهم الى جدار القصر ، فثبتوا له فشلوه مرتين .
فقال عندئذ للهيثم بن شعبة : اذا كروا علينا فاحتم انت ورجالك بالجدار وادفعهم الي .
وهاجم القوم خازماً ، فتراجع قليلاً حتى صار الهيثم من ورائهم
ورمي عثمان بن نهيك قائد الحرس في تلك اللحظة بسهم بين كتفيه ، فحمل الى داره وهو يعلم ان ساعته قد دنت .
ثم قتل الراوندية جميعاً ، واشرق وجه المنصور ، ثم التفت الى الرجل المتلثم فلم يره .
فقال لخاصته : أقتل عثمان ؟
لا يا امير المؤمنين ولكنه جريح .
قال احملوا اليه شكر امير المؤمنين والحقوا بنا الى القصر .
وما هي الا ساعة حتى جلسوا عن جانبيه .
فقال للربيع : من هو الرجل الذي اخذ بلجام الدابة ؟
لا اعلم يا امير المؤمنين .
وانت يا ابا الخصيب ؟
فقال . انه معن بن زائدة :
فجعل ينظر الى الناس وشفتاه تتحركان ، ثم قال : معن بن زائدة يدافع

عن امير المؤمنين ثم ينصرف دون ان نعرفه .
قال : يظهر ان الخوف املى عليه بان يفعل .
ويظن اننا لا نغفر له ذنبه بعد بلائه ؟
– هذا ما خطر له .
– وتراه انت ؟
– قد يكون ذلك يا امير المؤمنين .
– اذا رأيته فاعطه الامان وادخله علينا بدون اذن .
فاستأذن ابو الخصيب وانصرف ، ثم لم يلبث حتى عاد ومعه معن .
فقال الخليفة : اين كنت يا أسد الرجال ؟
فقال : والله يا امير المؤمنين لقد اتيتك وانا خائف ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بالقوم وشدة الاقدام عليهم رأيت أمراً لم اره قط من احد ، فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت .
قال نسألك اين كنت الساعة ؟
– سرت الى دار ابي الخصيب اطلب اليه ان يسألك الأمان لي .
قال : لقد اعطيناك اماننا ونأمر لك بعشرة آلاف درهم .
فأثنى معن وشكر ثم قال المنصور : اختر لك ولاية .
– قد لا احسن ادارة الولاية يا امير المؤمنين .
– نحن اعلم الناس باحوال الرجال ولنناك اليمن فما تقول ؟
– اسأل الله ان يتم نعمته عليك ويظفرك باعدائك .
– الخليفة الذي يرى حوله ابطال العرب مثلك لا يتخلى الله عنه ..... ان في اليمن يا معن قوماً يخرجون عن الطاعة مرتين في العام .
– اما انا فسأردهم الى طاعتك مرة واحدة .
ودخل عندئذ المهدي كبير انجال المنصور ،
فقال له ابوه : ان عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل خراسان يقتل قوادنا والمخلصين لنا ، ولم يفعل ذلك الا وهو يريد ان يخلع الخليفة .

فقال : انهه عن ذلك يا امير المؤمنين .

قال: اشار علينا ابو ايوب ان نكتب اليه اننا نفكر في غزو الروم، فليوجه الينا الجنود من خراسان على رأسهم الوجوه والفرسان . وغاية ابي ايوب ان يخرج الجيش من خراسان فنبعث اليه عندئذ ما نشاء .

- وفعلت ؟

- اجل فعلنا ، ولكنه اجابنا ان الترك يحملون علم الثورة ، وان الجنود اذا تفرقت ذهبت خراسان.. فكتبنا اليه بعدئذ ان خراسان لها مقامها عندنا ونحن موجهون اليه الجيش ليحموها ويردوا عنها الاعداء .

- وما هو الغرض من هذا ؟

- غرضنا ان يأخذ جندنا بعنقه اذا هم بخلعنا .

- وهل اجاب ؟

- نعم وكان جوابه ان خراسان لم تكن قط اسوأ حالاً منها في هذا العام ، فاذا دخلها الجيش هلك جوعاً لما هي فيه من الغلاء .

- اذن فالرجل يريد الخلع !

- هو ذاك ، ولكن اعددنا له ما يعيده الى الهدى .

- ماذا يا امير المؤمنين !

- تسير انت اليه ومعك خازم بن خزيمة احد قوادنا ، وهو يكفيك امره.

- وتأمرنا بقتله اذا ظفرنا به ، ام نبعث به اليك ؟

- نؤثر ان نذله قبل ان نقتله .

ودعا بابن خزيمة فقال له: تذهب مع ولدنا محمد الىقتال عبد الجبار بخراسان ويجب ان تعلم ان امير المؤمنين يريد ان ينتهي من امر هذا الرجل .

قال : لقد انتهى امره يا امير المؤمنين .

قال : ان محمداً ينزل الري ، ثم ينتقل منهـــا الى نيسابور ، وتسير انت الى قتال عبد الجبار . واوصاهما باستعمال القوة والجلد ليبلغا الغاية .

ثم رحلا ، فوجه المهدي خازم بن خزيمة لحرب الرجل ، واقام هو بنيسابور كما امره المنصور .

وقد بلغ اهل مرو ، خبر قدوم خازم والمهدي ، فثاروا على عبد الجبار وقاتلوه قتالا شديد اكرهه على الفرار ، ثم لحقوا به فأسروه .

واقبل خازم بعد ذلك فدفعوه اليه ، فألبسه جبة صوف ، وحمله على بعير الى المنصور ، ومعه ولده واصحابه ،

وهذا معناه ان خازماً دفع القوم الى اتون النار .

فلما مثلوا بين يديه ، عذبهم عذاباً لم يروا مثله حتى استخرج منهم الاموال ، ثم امر بعبد الجبار فقطعت يداه ورجلاه .

ثم ضرب عنقه ، وسير ولده الى جزيرة باليمن ، فمكثوا بها حتى اغار عليهم قوم من الهنود فسبوهم ، الا عبد الرحمن بن عبد الجبار ، فقد نجا ، وصحب الخلفاء بعد ذلك ، ومات في عهد هرون الرشيد .

* * *

- ٣٨ -

كان الفريق الكبير من الشيعة يقولون : ان بني هاشم ، انتخبوا للخلافة ، في آخر عهد بني امية ، محمد بن عبد الله ، بن الحسن ، بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبايعوه .

وقد عرفت ذلك من الاجـــزاء التي قرأت. وابو جعفر المنصور نفسه بايع محمداً في ذلك العهد .

فلمـــا انتهى الامر الى العباسيين ، لم يبايع محمد بن عبدالله لا لأبي العباس السفاح ولا لأبي جعفر .

وحج ابو جعفر ايام اخيه السفاح ، فمثل بين يديه بنو هاشم جميعهم الا محمداً واخاه ابراهيم .

فسأل المنصور عنهما ، فقال له زياد بن عبدالله الحارثي امير المدينة : ما يهمك من أمرهما . انا آتيك بهما .

فقال له : تبقى عاملاً على المدينة على هذا الشرط .

ثم امسى المنصور خليفة ، وجعل يدعو بني هاشم رجلاً رجلاً ويسألهم عن محمد فيقولون : لقد علم يا امير المؤمنين انك تظن به الظنون فاستخفى ، وهو لا يريد الخروج عن الطاعة . الا حسن بن زيد بن حسن بن علي فانه قال : والله ما آمن وثوبه عليك يا امير المؤمنين فهو يطلب الخلافة لنفسه .

فوثق المنصور بما اخبره به الرجل ، وجعل يحتال ليعرف اخبار محمد ، من ابيه عبدالله بن حسن .

وحج في السنة الاربعين بعد المئة ، وسأل عبد الله عن ابنيه محمد وابراهيم فقال له : لا علم لي بأمرهما يا امير المؤمنين .

فأيقن عندئذ ان الرجل يكذب ، فأمر به فوضع في السجن ، وصودر ماله.

ثم رأى انزياداً امير المدينة، لم يكن صادقاً في وعده، فعزله وعهد بالامارة الى محمد بن خالد بن عبدالله القسري .

ولم يستطع ، وقد طال أمر محمد ، الا ان يبسط يده ويبذل المال الكثير من اجل غايته .

ولكن ما له لم ينفع، فان امير المدينة الجديد، كان اعجز عن ان يجد محمداً.

واقبلت السنة الرابعة والاربعون ، والمنصور يلج في طلبه ، ومحمد بن عبد الله لا يبين له أثر .

فعزل محمد بن خالد ، وقال لخاصته : دلوني على رجل اوليه ، فقيل له : ولّ رجلا من آل الزبير ، فان بين آل الزبير وآل علي عداوة سابقة ، وهو يضمن لك امره .

قال : اعاهد الله ألا اثأر من اهل بيتي بعدوي وعدوهم ، ولكن ابعث الى المدينة صعلوكاً من صعاليك العرب .

ودعا رياح بن عثمان بن حيان المري فقال له : ان امير المؤمنين ولاك المدينة فهل تعلم لماذا ؟

قال : نعم اعلم يا امير المؤمنين ، انك تريد ان ارهق الاعراب الذين يستخفي

محمد بن عبد الله عندهم ، وان اضع السيف في الرقاب حتى ابلغ الغاية .

قال : احسنت فاذهب الساعة .

فاتى رياح المدينة ، وكان اول عمل اتاه انه استهان بالأمير السابق محمد بن خالد ، وعذبه وعذب كاتبه . ثم اخذ بني الحسن ، وهم ثلاثة عشر رجلاً ، وجعلهم في السجن ، بل جعلهم داخل نطاق من الشدة والظلم ، فلما كان الغد ، اقبل رجل فدخل على رياح ، فقال له : مرحباً بك ، ما حاجتك ؟

قال : اتيتك لتضمني الى قومي في سجنك .

قال : من انت ؟

- علي بن الحسن ، بن الحسن .

فابتسم قائلاً : ضموه الى قومه .

وحج المنصور في ذلك العام، فلما نزل المدينة، ارسل محمد بن عمران ، ومالك ابن انس الى بني الحسن وهم في السجن يسألهم ان يدفعوا اليه محمداً وابراهيم ابني عبدالله .

فدخلا عليهم ، وعبدالله قائم يصلي ، فلما فرغ من صلاته نقلا اليه رغبة امير المؤمنين .

فقال : لا والله لا ارد عليكما حرفاً ، ان أحب ان يأذن لي فألقاه فليفعل .

فانطلق الرسولان وأخبرا المنصور ، فقال : أيسخر بي ، لا والله لا ترى عينه عيني حتى يأتيني بابنيه .

ومشى الى مكة يقضي حجه ، فعرف محمد بن عبدالله، ان اباه واهله في سجن رياح ، فأقبل متنكراً الى امه هند ، فقال لها : اني قد حملت ابي واعمامي ما لا طاقة لهم به ، ولقد هممت بأن اضع يدي في ايديهم، فعسى ان يخلي عنهم المنصور .

فقالت : صبراً يا بني ، وقامت فتنكرت ولبست اطماراً ، ثم اتت السجن وهي في هيأة رسول واستأذنت في الدخول .

فلما رآها زوجها عبدالله عرفها، فخبرته بما قال محمد، فقال: كلا، بل نصبر ، فوالله اني لأرجو ان يفتح الله به خيراً، قولي له فليدع الي امره فان فرجنا بيد الله.

وبعد ايام عـــاد المنصور من الحج ، ولكنه لم يدخل المدينة ، بل مضى الى الربذة . فلحق به امير المدينة ، فرده قائلاً : ارجع وارسل الينـا بني الحسن ، ومعهم محمد بن عبدالله «حفيد عثمان بن عفان» فهو اخو بني الحسن لأمهم .

فرجع فأخذهم وبعث بهم الى الربذة على محامل لا وطأ لها ، والقيود والسلاسل في الأرجل والأعناق ، ومحمد وابرهيم ابنا عبدالله يعلمان كل شيء .

فلما توسط القوم الطريق ، اتيا اباهما وهما يلبسان لباس الاعراب ، وجعل الثلاثة يتحدثون .

والحرس ذاهل ، وهو يرى محمداً وابراهيم فيحسبهما اعرابيين .

واستأذن محمد اباه في الخروج على الخليفة واظهـار الدعوة ، فنصح له بان لا يعجل في ذلك .

ثم ودعهما قائلاً : ان منعكما المنصور ان تعيشا كريمين فلا يمنعكما ان تموتا كريمين .

وانتهى القوم الى الربذة ، فامر المنصور ، فادخل محمد بن عبدالله حفيد عثمان ابن عفان ، وقد بان الغضب على وجه الخليفة وهو يتمتم قائلاً لمحمد : يا خائن .

فقال الرجل : سبحان الله... لقد عرفتني أميناً صادقاً وانا صغير ، وعرفتني الملك وانا كبير .

قال : ألم تعطني الايمان ان لا تغشني ولا تمالىء علي عدوي ؟

قال : أما ايماني فهي علي ان كنت دخلت لك في امر غش .

فاغتاظ ابو جعفر ، واومأ الى غلمانه بان يضربوه ، فضرب مئة وخمسين سوطاً ، واصاب سوط منها وجهه ، فرفع صوته قائلاً : ويحك اكفف عن وجهي فان له حرمة برسول الله .

فقال عندئذ للجلاد : الرأس الرأس .

فضرب على رأسه ثلاثين سوطاً ثم اخرج وكأنه زنجي ، وكان من احسن الناس.

ثم قتله المنصور بعد ذلك وأرسل رأسه الى خراسان ...

ومشى موكب المنصور الى العراق وبنو الحسن في قيودهم يسيرون في الطليعة .

ثم خطر للخليفة ان يمر بهم ، وهو على بغلته الشقراء .

فناداه عبدالله بن الحسن : يا ابا جعفر ما هكذا فعلنـــا باسرائكم يوم بدر ا

فنظر اليه نظرة غضب ، ولم يجب .

ومضوا حتى قدموا الكوفة ، فجعلهم المنصور في قصر ابن هبيرة شرقي البلد

بالقرب من الفرات . وبدأ يعذبهم عذاباً لم ير الناس افظع منه .

وكان بنو العباس يقولون من قبل : انما خرجنا على بني امية ، انتقاماً من قتلة

الحسين بن علي ، وزيد بن الحسن ، ويحيي بن زيد ...

ثم دعا المنصور محمد بن ابراهيم بن الحسن ، وكان احسن الناس وجهاً ، فقال

له : انت الذي يقال لك الديباج الأصفر ؟

قال : نعم !

قال : لأقتلنك قتلة لم اقتلها احداً .

فرفع الفتى نظره الى السماء وقال : افعل ما يطيب لك .

ثم امر به فبني عليه بناء وهو حي ، فمات فيه .

ثم مات ، ومات بعده عبدالله بن الحسن ، ثم لحق بهما الآخرون ، لم ينج منهم

غير خمسة رجال .

***

- ٣٩ -

كان المنصور قد ابتنى مدينة الهاشمية ، بالقرب من الكوفة ، كما عرفت .

فلما ثارت «الراوندية» اتباع أبي مسلم الخراساني فيها ، كره الاقامة بهـــا ،

وجعل يفكر في مكان آخر يبني فيه عاصمة ملكه .

وهنالك سبب آخر دعاه الى التفكير فيما قرأت ، هو ان الهاشمية قريبة من

الكوفة ، وهو يكره ان يجـاور الكوفيين الذين افسدوا جنده ، فخرج بنفسه

يختار له موضعاً ، من المدائن الى الموصل الى الجبل ، حتى انتهى الى موضع بغداد

عند دير هنــــاك ، فنزل الدير ، ودعا بصاحبه ، وبالبطريق ، واصحاب ذلك

الموضع وشاورهم في الامر .

فخبروه بمـــا يعلمون وكان الرأي ان تبنى المدينة بين دجلة والصراة ، وقد قال احدهم :

يا امير المؤمنين ، اذا بنيت مدينتك في هذا المكان ، اتاك الخراج والمؤونة في السفن من الشام والرقة والغرب في طوائف مصر ، وتأتيك الميرة مـــن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم في دجلة ، فانت بين انهـار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر لم يصل اليك ، ودجلة والفرات ، والصراة ، خنادق هذه المدينة ، وانت متوسط للبصرة والكوفة ، وواسط والموصل ، والسواد ، وقريب من البر والبحر والجبل .

فعول المنصور على النزول في ذلك الموضع، وكتب الى الشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة يأمر عماله بان يبعثوا بالعمال والصناع .

ثم امر باختيار قوم من ذوي الامانة والمعرفة والهندسة والفضل ، ثم دعـا اربعة من قواده وعهد الى كل واحد في الاشراف على ربـع من الارباع .

وامر ابا حنيفة بان ينظر في امر البنــاء ، ويعد الآجر واللبن بالقصب ، وهو اول من فعل ذلك . وبدىء بالعمل في السنة الخامسة والاربعين بعد المئة .

جعل عرض اساس السور من اسفله خمسين ذراعاً ، ومن اعلاه عشرين ذراعاً، ووضع في البناء الخشب والقصب ، ووضع بيده اول لبنة وهو يقول :

بسم الله والحمد لله ، والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله .

فلما بلغ السور ، زهاء ثلاث اذرع ، اتاه الخبر من خاصته وقواده يقولون له: لقد ظهر محمد بن عبدالله في المدينة .

فقال لقومه : اتركوا البناء ، وانثنى راجعاً الى الكوفة .

* * *

– ٤٠ –

لج رياح بن عثمان ، امير المدينة ، في طلب محمد بن عبدالله وسد في وجهه

منـــافذ الفرار ، فضاق صدر محمد ، وعول على الظهور في المدينة ، قبل الموعد الذي ضرب لأخيه ابراهيم .

وكان عبدالله بن عمرو ، وعبد الحميد بن جعفر ، يقولان لمحمد : ما تنتظر ؟ اخرج فوالله ما على هذه الامة اشأم منك .. اخرج ولو وحدك ..

فتحفز للوثوب .. ولكن امير المدينة ، عرف إنه خـــارج ، فدعا محمد بن عمران قاضي المدينة ، والعباس بن عبدالله بن الحرث بن العباس وغيرهما من اهل الوجاهة والرأي وقال : يا اهـــل المدينة ، امير المؤمنين يطلب محمداً في شرق الارض وغربها ، وهو في مدينتكم ، فأقسم بالله لئن خرج لاقتلنكم اجمعين .

ثم قال لمحمد بن عمران : انت قاضي المدينة ، فادع عشيرتك .

فارسل فجمع طوائف من بني زهرة ، ثم دعـــا رياح طوائف اخرى من العلويين ، من احفاد الحسن والحسين ، ورجالاً من قريش .

فبينا هم عنده ، ظهر محمد وسمعوا التكبير ، فقال ابن مسلم بن عقبة للامير : اطعني واضرب اعناق هؤلاء .

فقال له الحسين بن علي ، بن الحسين بن عـلي : ليس لك هذا إنا على السمع والطاعـة .

واقبل محمد بن عبدالله من المذار ، في مئة وخمسين رجلاً ، الى سجن المدينة . فكسر بابه واخرج من فيه .

ثم اتى دار الامارة وهو يقول لاصحابه : لا تقتلوا أحداً منهم الا اذا قتلوا احداً منكم .

وكان رياح قـد استخفى في قصره ، فدخلوا القصر ، واخذوه اسيراً ، مع اخيه عباس وابن مسلم بن عقبة ، وسجنوا في دار الامارة .

ثم خرج محمد الى المسجد فصعد المنبر وخطب قائلاً :

احمد الله واثني عليه عز وجل ، اما بعد فـانه قد كان من امر هذا الطاغية عدو الله ابي جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه ، وتصغيراً للكعبة الحرام وانمـا اخذ الله فرعون حين قال : « انا ربكم

الاعلى » وانما احق الناس بالقيام في هذا الدين ابناء المهاجرين والانصار .. اللهم انهم أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك ، وامنوا من أخفت واخافوا من آمنت، اللهم فاحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم احداً .

ايهـــا الناس ، والله ما خرجت بينكم وانتم عندي اهل قوة وشدة ولكني اخترتكم لنفسي . والله ليس في الارض اقليم يعبد الله فيه الا وقد اخـــذ لي فيه البيعة . قالها وهو مؤمن ، بان الناس يبايعونه في كل قطر ، عندما ينتهى اليهم خبر خروجه .

ذلك لان المنصور الداهية ، كان يكتب بلسان قواده ، الى محمد كتباً يدعوه فيها اولئك القواد الى الظهور ، ويخبرونه انهم عون له على المنصور.. وهو دهاء لم ير اغرب منه .

وقد وثق محمد بأن هذه الكتب ، يرسلهـا قواد الخليفة من وراء الستار ، والخليفة غافل لا يعلم شيئاً .

ومن اجـل ذلك كان يقول : ان قواد المنصور جنود لي وعندما نلتقي يميل جميعهم الي لا يبقى للمنصور احد .

واستولى محمد على المدينة ، واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعهد الى طائفة من اصحابه في ادارة الامور .

على أنه اخطأ في خروجه على الصورة التي رأيت ، ذلك لأنه كان قد عاهد اخاه ابراهيم ، عـــلى ان يخرج في البصرة يوم يخرج هو في المدينة ، فيتضعضع المنصور ، ويقوم في ذهنه ان الثورة استعرت نارها في كل قطر .

ولكن ابراهيم لم يخرج في ذلك اليوم لمرض اصيب به ، والمدينة في النـاحية الاخرى ، لم تكن المعقل الحصين الذي يقف في وجه العدو ، واهلها يعيشون من الخارج فلا يستطيعون الحصار .

زد على ذلك ان جيش محمد كان قليلاً ، وهو اضعف من ان يتصدى للجيش الكثير الذي يبعث به المنصور .

وكان اهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع حفيد علي بن ابي

طالب كرم الله وجهه وكانوا يقولون: ان في اعناقنا بيعة لأبي جعفر ، فقال : انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين .

فأقبلوا يبايعونه ، الا نسيبه اسمعيل ، بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ، وفريقاً من وجوه الناس .

فدعا محمد اسمعيل الى بيعته ، فقال له : يا ابن اخي ، انت والله مقتول فكيف ابايعك ؟

فتردد الناس قليلاً في البيعة ، وكان بنو معاوية ، اخي اسمعيل ، قد بايعوا محمداً .

فاقبلت حمادة بنت معاوية الى عمها اسمعيل قائلة : يا عم ، ان اخوتي قد بايعوا ابن خالهم فاذا قلت انه مقتول، تراجع الناس عنه ، وقد يقتل مع اخوتي.

قال : قلت الذي اعلم ولا سبيل الى غير ذلك ..

فما لبث اسمعيل حتى قتل ، وقيل ان حمادة سبب قتله .

وعندما اراد محمد الصلاة عليه ، منعه ابنه عبدالله قائلاً : تأمر بقتل ابي وتصلي عليه ؟

فنحاه الحرس ، واتم محمد صلاته ، وعند المساء ، اقبل اليه محمد بن خالد القسري فقال : لقد انقذتني يا امير المؤمنين من سجن رياح بن عثمان ، وسمعت دعوتك التي دعيت اليها على المنبر وآمنت انها دعوة حق ، فهل تسمع لي ؟

قال : هات !

قال : لقد خرجت في هذا البلد ، ووالله لو وقف أحد على نقب من انقابه لمات أهله جوعاً وعطشاً .

– وماذا ترى ؟

– ارى أن تنهض معي فنخرج ، ولا تمر عشر ليال حتى اضرب المنصور بمئة الف سيف فيستقيم لك الامر .

فأبى عليه ، وكان يردد قوله : اذا التقينا فقواد المنصور انصار لي ...

* * *

ترك المنصور بغداد الى الكوفة كما قرأت ، وجعل يشاور قومه .

قال لوزيره أبي أيوب : هل من رجل تعرفه ، يجمع رأيه الى رأينا ؟

قال : بالكوفة بديل بن يحي ، وكان السفاح يشاوره .

قال : مره بان يجيء .

ثم قال لاعمامه : استشيروا اخاكم عبدالله بن علي في أمر محمد دون ان تقولوا له اني ارسلتكم اليه .

فلما دخلوا عليه في سجنه ، قال : لامر ما جئتم ، ما جاء بكم وقد هجرتموني منذ زمن .

قالوا : استأذنا امير المؤمنين فاذن لنا .

- ليس هذا بشيء فما الخبر ؟

- خرج محمد بن عبدالله .

فأطرق ملياً ثم قال : فما ترون ابن سلامة صانعاً ؟

« وهو يعني المنصور » ، فقالوا : لا ندري .

قال : ان البخل قد قتله فمروه فليخرج الاموال وليعط الاجناد ، فان غلب فما اسرع ما يعود اليه ماله ، وان غلب لم يأخذ صاحبه لا درهماً ولا ديناراً ، ثم قال :

ليقفل ابواب الكوفة فمن خرج منها الى وجه من الوجوه واتاها من وجه من الوجوه فليضرب عنقه .. ان اهلها شيعة آل علي وانصاره .

ودخل على المنصور عندئذ بديل بن يحيي ، فقال المنصور : لقد ظهر محمد بالمدينة .

قال : اشحن الاهواز بالجنود .

- قلنا لك انه ظهر بالمدينة .

لقد فهمت ، وانما الاهواز الباب الذي تؤتون منه .

فالتفت الى خاصته قائلاً : خير لنا ان نكتب الى محمد ندعوه الى الطاعة ،

قبل ان نجرد السيف .

فقال ابو ايوب : ذلك لك يا امير المؤمنين .

قال : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم ، ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ان اؤمنك وجميع ولدك واخوتك واهل بيتك ومن اتبعك ، واسوغك ما اصبت من دم او مال ، واعطيك الف الف درهم وانزلك من البلاد حيث شئت . واقضي لك ما شئت من الحاجات ، وان أطلق من في سجني من اهل بيتك وشيعتك وانصارك ، فان شئت ان تتوثق لنفسك ، فوجه الي من احببت يأخذ لك مني الامان والعهد والسلام » .

وهذا بعض ما جاء في جواب محمد الى المنصور :

من عبدالله محمد المهدي امير المؤمنين الى عبدالله بن محمد : اما بعد فانا اعرض عليك من الامان مثل ما عرضت علي ، فان الحق حقنا وانكم انما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا ، وان ابانا علياً عليه السلام كان الوصي والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن احياء ؟ وقد علمت انه ليس احد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ويفخر بمثل قديمنا ونسبنا !

الى ان قال :

ولك عهد الله ان دخلت في بيعتي ان اؤمنك على نفسك وولدك ، فانا اوفى بالعهد منك واحرى لقبول الامان ، فأما امانك الذي عرضت علي فأي أمان هو ؟ أأمان ابن هبيرة ، ام امان عمك عبدالله ، ام امان أبي مسلم والسلام .

فأجابه المنصور جواباً ذكرت فيه العيوب والانساب ، ثم دعا ولي عهده عيسى بن موسى فقال له : نأمرك بالمسير الى المدينة لقتال محمد .

قال : شاور عمومتك يا امير المؤمنين .

قال : امض ايها الرجل ، فوالله ما يراد غيري وغيرك وما هو الا ان تسم انت او اسير أنا .

وبعث معه بالجنود ، فلما خرج قال المنصور : لا ابالي ايهما قتل صاحبه ، ثم

ودعه قائلاً :

يا عيسى اذا ظفرت بالرجل فاغمد سيفك وابذل الامـــان ، وان استخفى فليضمنه قومه فانهم يعرفون مذاهبه ، ومن لقيك من آل أبي طالب فاكتب الي عنه ، ومن لم يلقك ، فاقبض ماله وضع يدك على ما يملك .

وسار عيسى يريد المدينة حتى انتهى الى فيد ، فبعث الى رجـــال من اهل المدينة برسائل من خرق الحرير .

فلما وردت كتبه تفرق بعض النـــاس عن محمد ، وخرج بعضهم الى عيسى يظهرون الخضوع بينهم فريق من آل علي .

واستشار محمد اصحابه في الخروج او البقـاء ، فأشار عليه بعضهم بان يخرج واشار البعض الآخر بالمقام .

فأقام ، واستعان بخندق حول المدينة ، ثم اقبل عيسى ، وجعل جنوده على طريق مكة خوفاً من ان يفر محمد .

ثم دعـــا محمداً الى الطاعة فلم يجبه ، ثم استعرت النار فظهرت شجاعة محمد ظهوراً عجيباً ، ولكن عدوه كان كثيراً فلم يلبث حتى قتل .

واستسلم المحاربون لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان .

وعندما حمل رأس محمد الى عيسى ، قـال لاصحابه : ما تقولون ، أنبعث به الى امير المؤمنين ، مع رجل من آل علي بن ابي طالب ؟

قال : افعل .

فعهد الى محمد بن ابي الكرام من احفـاد جعفر بن ابي طالب في حمل الرأس الى الكوفة ، والى القـــاسم بن الحسن بن زيد ، من احفاد علي ، في ان يبشر المنصور ، بقتل محمد .

ثم امر ، فنصبت في مواضع بالمدينة ، ألوية كثيرة ونادى مناديه : من دخل تحت لواء منها فهو آمن .

فاقبل الناس الى امانه ، وامسوا ، وكأن محمداً لم يكن .

وكان المنصور قد بلغه ان عيسى قد هزم ، فقال : كلا ان عيسى لم يهزم بعد .

ثم قيل له : ان عيسى لم ينهزم بل هرب من الساحة ، فقال : انا اهل بيت لا نفر .

ثم حملت اليه الرؤوس ، فأمر فطافوا برأس محمد في الكوفة ثم سيره الى الآفاق والتفت الى رؤوس بني شجاع فقال: هكذا فليكن الناس ، طلبت محمداً فانضم اليه هؤلاء ثم انتقلوا معه ، ثم قاتلوا بين يديه حتى قتلوا .

وكان محمد اسمر بل كان شديد السمرة ، وهو الرجل الشجاع ، الكثير الصوم والصلاة ، الشديد القوة .

وقد قبض عيسى ، بعد موت محمد ، اموال بني الحسن كلها ، ولم يلبث حتى ترك المدينة يريد مكة ، مستخلفاً على الامارة كثير بن خضير ، غير ان المنصور استعمل عليها ، بعد شهر ، عبدالله بن الربيع .

* * *

- ٤٢ -

ثار محمد بن عبدالله في الحجاز ، وثار اخوه ابراهيم في العراق ، حتى صفت له البصرة ، وانضم اليه الناس . وكان يستشير اصحابه في امره .

يقول له اهل البصرة : امكث هنا ووجه الجنود ، فاذا انهزم لك جند امددته بغيره حتى يستقيم لك الامر وتبلغ الغاية .

اما اهل الكوفة فكانوا يقولون : ان بالكوفة قوماً رأوك ماتوا دونك، وان لم يروك قعدت بهم عنك اسباب كثيرة ، وانت بغنى عن هذا .

وكان المنصور يومئذ في قلة فقال : والله ما ادري كيف اصنع ، ما في جيشي الا الفا رجل . لقد فرقت جندي مع المهدي بالري ثلاثون الفاً ، ومع محمد بن الأشعث بأفريقية اربعون الفاً ، والباقون مع عيسى بن موسى ، والله لو سلمت هذه المرة لا يفارق بلدي ثلاثون الفاً .

وكتب الى عيسى يأمره بالرجوع ، وكتب الى سلم بن قتيبة فاقبل من الري، فقال له : ان ابراهيم سيقدم الكوفة ، فامش اليه ولا تخفه ، فوالله انه مع اخيه

محمد حملا بني هاشم المقتولان ...

وضم اليه غيره مـن القواد ، ثم كتب الى المهدي يقول له : اذا اتاك كتابنا فوجه الينا خازم بن خزيمة وليقدم الأهواز .

فاقبل هؤلاء القواد يقولون للمنصور : ابعث بنا الى حيث تشاء فالنصر لك .

فقال لعيسى بن موسى : اين حميد بن قحطبة ؟

– هو معي يا امير المؤمنين .

قال : اجعله على المقدمة وسر وراءه الى البصرة لقتال ابراهيم .

وعندما ودع عيسى قال له : ان المنجمين الخبثاء يزعمون انك اذا لقيت ابراهيم يجول اصحابك جولة حتى تلقاه ثم يرجعون اليك . ولكن العـــاقبة ستكون لك .

قال : النصر لنا يا امير المؤمنين ان شاء الله .

وعرف ابراهيم ان عيسى في طريقه الى البصرة ، فخرج للقائه ، ثم ندم على خروجه . وامسى مؤمناً بأن القتال في البصرة اسلم عاقبة .

وقد قال له قواده : خذ غير هذا الوجه وسر الى الكوفة ، فان القوم فيهـا ينضمون اليك ولا يبقى للمنصور مرجع غير حلوان .

ولكن ابراهيم لم يفعل ، فقالوا له : بيت عيسى .

فقال : اكره ان ابيته الا بعد الانذار ...

وقام عندئذ احد اهل الكوفة فقال : مرني بالمسير الى الكوفة ادع النـاس اليك سراً ، ثم جهراً ، فيهرب المنصور .

فاستشار احد خاصته فقال له : لو وثقنا بالذي يقوله هذا الكوفي لكان رأياً ، لكنا لا نأمن ان تبايعك طائفة فيرسل المنصور اليهـــا الخيل فيأخذ البريء والصغير والمرأة ، فيكون ذلك تعرضاً للمآثم .

فقال الكوفي : تريدون قتـال المنصور وتخـافون ان يقتل الضعيف والمرأة والصغير ، او لم يكن رسول الله يبعث رجاله ليقاتل ؟

فأجابه الرجل قائلاً : كان رسول الله يفعل ذلك مع الكفار وهؤلاء مسلمون .

واتبع ابراهيم رأيه ومشى حتى اتى بلداً يقال له اخمرى وهو يبعد ستة عشر فرسخاً عن الكوفة .

ووقف العدوان صفين ، ثم اقتتلا ، وكان القتـــال شديداً جداً انهزم بعده حميد بن قحطبة وانهزم الناس .

فعرض لهم عيسى بن موسى يناشدهم الله والطاعه فلا يسمعون له .

واقبل ابن قحطبة منهزماً فقال له عيسى : الله الله والطاعة يا ابن قحطبة .

قال : لا طاعة في الهزيمة .

ثم امر الناس فلم يبق مع عيسى غير العدد القليل، فقيل له : تنح عن مكانك حتى يرجع الناس ، فقال : لا انتقل من هنا حتى اقتـــل او يفتح الله على يدي، والله لا ينظر اهل بيتي الى وجهي ابداً وقد انهزمت .

وجعل يقول لمن يمر به : اقرىء اهـــل بيتي السلام وقل لهم لم اجد فداء افديكم به أعز من نفسي وقد بذلتها دونكم .

وبينا الناس على ذلك لا يلوي أحد على أحد ، اقبل جعفر ومحمد ابنا سليمان ابن علي من وراء اصحاب ابراهيم الذين يتبعون المنهزمين ، وهم لا يشعرون .

حتى رأوا القتال من الوراء ...

فانثنوا يقاتلون

ولكن اصحاب المنصور رجعوا عندئذ وجعلوا جيش ابراهيم بن محمد بين نارين . .

وما هي غير ساعة ، حتى بان الضعف في صفوف ابراهيم ، ولم تلبث هـذه الصفوف حتى اركنت الى الفرار .

ولولا جعفر ومحمد ، ابنا عم المنصور ، لقتل عيسى واضمحل جيشه ...

وثبت ابراهيم مع فريق من رجاله ، ولكن القـــلة لا تستطيع ان تقف في وجه الجيش الكثير ، اكثر من ساعة .

والرؤوس تتدحرج ... وابن قحطبة يرسل بهـــا الى عيسى ، حتى اصيب ابراهيم بسهم في حلقه ، فتنحى عن موقفه وقال : انزلوني .

فانزلوه وهو يقول: وكانامر الله قدراً مقدوراً ، اردنا امراً واراد الله غيره.

واجتمع عليه اصحابه يحمونه ويدافعون عنه، فقال حميد بن قحطبة لرجاله: شدوا على هذه الجماعة حتى تزيلوها عن مواضعها وتعلموا ما اجتمعت عليه .

فجردت السيوف ، وكثر القتـــل حتى فرقوهم عن ابراهيم. وانتهوا اليه ، فحزوا رأسه وحملوه الى عيسى ، فقال عيسى لابن أبي كرام الجعفري . اهــذا هو رأس ابراهيم ؟

قال نعم ايها الامير .

فنزل الى الارض وسجد ، ثم بعث بالرأس الى المنصور .

وكان المنصور عندئذ مضطرباً كريشة في مهب الريح فلما وضع الرأس بين يديه ، بكى حتى تساقطت دموعه على خد ابراهيم .

ثم قال : امـــا والله اني كنت لهذا كارها ، ولكنك ابتليت بي ، وابتليت بك ...

ثم جلس واذن للناس، فكان الداخل يتناول ابراهيم ويسيء القول فيه التماساً لرضى الخليفة .

والمنصور ساكت وقد تغير لونه ، حتى دخل جعفر بن حنظلة الدارمي ، فوقف فسلم ثم قال : أعظم الله اجرك يا امير المؤمنين في ابن عمك ، وغفر له ما فرط فيه من حقك .

فاصفر لون المنصور واجابه قائلاً : يا ابا خالد ، مرحباً مرحباً .

فعلم الناس ان ذلك يرضيه ، فجعلوا يقولون مثل قوله .

وكان مقتل ابراهيم ، يوم الاثنين لخمس ليـــال بقين من ذي للقعدة في السنة الخامسة والاربعين ، وعمره ثمان واربعون سنة .

وابراهيم ، واخوه محمد ، من احسن الطالبيين خلقا ، وانظفهم تاريخـــا ، لم يعرف عنها ما يشينها ، في امور الناس ، وصدق العزيمة ، ولكن الحظ خانها...

* * *

ان مثل المنصور ، يعرف كيف يبرر موقفه مع انسبائه بني الحسن ، بل كان

يعرف ان يستهوي الناس ، ويفوز بمنطقه ، ودهائه ، برضى الرأي العام .

وفي خطبته التي تقرأ ، دليل على دهائه وفنه في الاستهواء .. وانها لخطبة لا نذكرها لما فيها من مظاهر الحق .. بل لما فيها من مظاهر السياسة والدهاء .

خطب في شيعته من اهل خراسان وغيرهم قال :

يا اهل خراسان ، انتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وان اهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن ابي طالب تركناهم والخلافة ، لم نعرض لهم فيها بقليل او كثير .

فقام علي بن ابي طالب فتلطخ وحكمت الحكمين، فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ، حتى وثبت عليه شيعته واصحابه وانصاره وثقاته فقتلوه .

ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل ، عرضت عليه الاموال فقبلها ، فدس اليه معاوية اني اجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه ، فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه .

ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه اهل العراق واهل الكوفة واهل الشقاق والنفاق والفتن ، اهل هذه المدرة السوداء « واشار الى الكوفة » فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فاسالمها، فرق الله بيني وبينها، فخذلوه واسلموه.

ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخدعه اهل الكوفة ايضاً وغروه ، فلما اخرجوه اظهروه واسلموه .

ومنها :

ثم وثب علينا بنو اميه فأماتوا شرفنا واذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة ، حتى ابتعثكم الله شيعة لنا وانصاراً ، فعاد شرفنا وعزنا بكم اهل خراسان ، واظهر الله حقنا واصار ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم .

ومنها :

فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا ،

وابوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم واكرمنا به من خلافته وميراث نبيه .

ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية :

« وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل باشياعهم من قبل ، انهم كانوا في شك مريب »

ومات من مات من بني الحسن ، وقتل منهم من قتل ، وبقيت منهم بقيـة فرقهم عنف المنصور وشدته في كل ارض ، وظلوا مشردين حتى مات .

* * *

بنى المنصور بغداد وجعلها اعظم مدن الشرق ؛ بناها مستديرة الشكل ، وكان ذلك رأي اصحابه ، وفيهم خالد بن برمك .

ثم قال لخالد :نرى ان ننقض المدائن وايوان كسرى وننقل مــــا ننقض الى بغـداد .

فقال ابن برمك : لا ارى ذلك يا امير المؤمنين !

– لماذا ؟

لانه علم من اعلام الاسلام يستدل به الناظر على انه لم يكن ليزال مثل اصحابه عنه بأمر الدنيا .

- وماذا ايضاً ؟

– ولان فيه مصلى علي بن ابي طالب،فابتسم قائلاً : لم تستطع يا خالد الا ان تميل الى اصحابك العجم ...

فسكت البرمكي ولم يجسر على الجواب .

وامر المنصور بنقض القصر الابيض ، فنقضت ناحية منه ، وعندما ارادوا ان يجعلوه في قصور بغداد رأوا ان المال الذي يحتاجون اليه في ذلك ، اقل من ثمن الجديد .

فدعا المنصور خالداً فقال له : لقد انفقنا في استعمال ما نقضنا ، اكثر مما كنا نظن ، فما ترى ؟

قال : يا امير المؤمنين ، قد كنت ارى ان لا تفعل ، اما وقد فعلت ، فمن الرأي ان تهدم لئلا يقال انك عجزت عن هدم ما بناه غيرك .

فاعرض عنه قائلاً : لقد تركنا الهدم الان .

وجعل للمدينة اربعة ابواب كل اثنين فيها متقابلان ، ولكل منها باب آخر بين الاثنين دهليز طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون . والابواب الاربعة على صورة واحدة ، وهي من الحديد القوي .

وبنى لبغداد سورين : سور المدينة وعرضه من اعلى خمس وثلاثون ذراعاً وعليه الابراج ، وعرض السور الخارجي عشرون ذراعا وبين الاثنين فاصل عرضه ستون ،

وعند هذا السور الخارجي خندق ، وجعل قصره الذي يسمى الخلد ، في وسط المدينة ، والمسجد الجامع بجانب القصر والحجاج بن ارطاة هو الذي خط المسجد .

ومد القني داخل البلد ، من دجلة والفرات ، وجعل في صدر قصره ايوانا طوله ثلاثون وعرضه عشرون ، وفي صدر الايوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين .

وقد انفق على بغداد ، ثمانية عشر الف الف دينار ، على رواية ياقوت .

وبعد ان تم البناء ، دعا اليها العلماء من كل بلد وكل اقليم ، فأتاها الناس من كل قطر ، وهي تزداد بهاء وعمرانا حتى امست ام الدنيا ومهد حضارة الاسلام في عهد بني العباس . وزاد سكانها ، في ذلك الزمان ، على المليونين .

قال الخطيب البغدادي :

لم يكن لبغداد في الدنيا نظير ، في جلالة قدرها وفخامة امرها ، وكثرة علمائها ، وسعة ارجائها وكثرة دورها وشوارعها واسواقها ومساجدها ، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها الى آخر ما قال :

وانتقلت الى بغداد ، في السنة السادسة والاربعين ، دواوين الدولة ، واصبحت

في ذلك العام ، داراً لخلافة الاسلام .

واهم حادث سياسي ، رأته بغداد في ذلك العام ، هو الوفد الفرنسي ، الذي ارسله ببين القصير ملك فرنسا الى دار الخلافة سنة ٧٦٢ مسيحية ، ١٤٦-١٤٧ هجرية .

وكان المنصور قد جمل بغداد حتى اضحت عروس المشرق .

على ان المؤرخين العرب ، لم يذكروا هذه البعثة السياسية في كتبهم ، واما الفرنج فقد ذكروها باختصار دون ان يعرضوا لغاية الملك الفرنسي منها، وقصروا قولهم ، ان رحلة السفراء دامت ثلاثة اعوام .

وزار بغداد في ذلك العام بطريق الروم، ترافقه طائفة من خاصته ومشيريه فاستوعب المؤرخون اخبار زيارته ، ووصفوها باسهاب، وذكروا ما لاقاه الروم في مدينة المنصور

وكان البطريق ، يمثل قسطنطين الخامس ملك الروم ، وببين القصير ملك فرنسا ، هو والد الامبراطور العظيم شارلمان .

وجاء في التاريخ العربي ، ان المنصور امر حاجبه الربيع بن يونس ، بان يخرج الى المدينة مع الوفد الرومي ، ويطوف به في الشوارع والساحات .

فلما انتهى الطواف قال الربيع لرئيس الوفد : - كيف رأيت ؟

- رأيت بناء حسناً ولكن خليفتكم جعل اعداءه معه .

- ومن هم هؤلاء الاعداء ؟

- هم السوقة !

واقبل الربيع فأخبر المنصور .

فصبر حتى رحل الوفد ، فقال لخاصته :

ما قولكم في هؤلاء السوقة والغرباء الذين يبيتون في بغداد .

فلم يقل احدهم كلمة ، فقال :

اخرجوهم الى ناحية الكرخ ، فقد يكون بينهم الجاسوس الذي لا يؤمن جانبه .

فنقلت اسواق المدينة ، وجرّ لاهل الكرخ اربعة انهر ، وبنى لهم مسجداً ومنعهم من دخول مدينته وسميت مدينتهم الشرقية .

وفي السنة الحادية والخمسين بعد المئة ، بنى الخليفة الرصافة ، لابنه المهدي وجعل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبساتين وأجرى لها الماء .

* * *

- ٤٣ -

خلا الجو للمنصور واستقام له الامر ، ففكر في السنة السابعة والاربعين ، في خلع عيسى بن موسى ولي العهد والبيعة لابنه محمد المهدي .

وكان يكرم عيسى ويجلسه عن يمينه ، ويجلس المهدي عن يساره .

وقد خطر له ان يحدث عيسى بالامر ، ويكرهه ، بدهائه ومرونته ، على خلع نفسه ، دون ان يلجأ الى العنف .

فقال للربيع حاجبه : اذا أقبل ولي العهد عيسى بن موسى فادخله علينا وحده وامنع الناس .

فلما جاء ، اذن له ، واغلق باب المجلس ، والناس ينتظرون الاذن ، وهم لا يعلمون السبب في هذا المنع ، الذي لم يعمد اليه المنصور من قبل .

ودخل عيسى فسلم على عادته وجلس ، فقال المنصور : كيف انت اليوم يا أبا موسى ؟

– بخير ، كما كنت امس ، في ظل امير المؤمنين .

قال : لنا الان ما نقوله لك ، ونحن واثقون بانك ستفعل ما نقوله دون ان تشك في عطف امير المؤمنين عليك ، وعلى اهل بيتك ...

فعرف عيسى ان في الامر ما فيه ، فقال :

اطيع امير المؤمنين في كل شيء الا في معصية الله ...

– وهل رأيت ان امير المؤمنين يدعوك الى المعصية ؟

– لا ولكني احسست انك ستكلفني امراً لا استطيعه ...

– اذن ظننت شراً وهذا خطأ ... قل أتحب بنيك ؟

– واي والد يا امير المؤمنين لا يحب ولده !

– وتحبهم اكثر مما تحب اعمامك وبني قومك ؟

– نعم يا امير المؤمنين ، احب بني اولا ، ثم احب اعمامي وعشيرتي ...

– ويطيب لك ، ان يؤثر امير المؤمنين بنيه ، على اعمامه وبني الاعمام ؟

– امير المؤمنين يؤثر خير الخلافة والدولة على كل شيء ...

– نحن ندنو يا ابا موسى ، وانت تبعد ... أفلا تجلس انت عن يمين الخليفة ويجلس المهدي عن يساره ؟

– بلى !

– وما معنى ذلك ؟

– معناه اني ولي عهدك ، والمهدي ولي عهدي ..

– وما تقول اذا أحببنا المهدي اكثر مما نحبك، واجلسناه عن يميننا ونقلناك انت الى اليسار ؟

اي ان امير المؤمنين يريد ان يجعل المهدي ولي عهده ..

– ونجعلك انت ولي عهد المهدي ..

– وتفعل ذلك برضاي ؟

– اجل ، فما كنا لنغضب ابا موسى ، وهو سياج الخلافة ، وحامي الملك ، والقائد الذي اخضع بسيفه ، اعداء بني العباس ...

فاطرق ملياً ، وشفتاه ترتجفان .. ثم قال :

أرى امير المؤمنين يدعوني سيـــاجاً للخلافة ، ثم يحطني عن ولاية العهد ، ويرفع اليها من لا فضل له مثلي ..

قال : يا ابا موسى ، أليس للمهدي فضل على الدولة ؟

– لقد كنت اسبق منه الى امتشاق الحسام من اجلك ...

– ذلك لانك اكبر سناً منه .. واما انك اكثر فضلاً فلا ..

ولمعت عندئذ عيناه ...

فخفض عيسى صوته قائلاً : لم يخطر لي من قبـل ، ان امير المؤمنين ينسى

اخلاصي ووفائي له .

– لم نقل هذا ، ولم ننس شيئاً مما ذكرت ... ان ابا جعفر المنصور ، خليفة المسلمين ، يريد ان يؤثر ابنه محمداً ، على ابن عمه عيسى بن موسى وهذا حق له.

– بل تؤثر عهدك ووعدك على المهدي .

– عهدنا اليك في ولاية العهد ، وستبقى .. ولكن بعد المهدي كما سمعت .

– لا استطيع ذلك يا امير المؤمنين .

– بل تفعله وتخلع نفسك ..

قال : وما اصنع بالايمان علي وعلى المسلمين من العتق والطلاق ؟

قال : ذلك شأنك ..

فصاح قائلاً : والله ، لا استطيع ان اتخلى عن هذا يا امير المؤمنين ..

فتغير لون المنصور وهم بالكلام فلم تخرج الالفـــاظ من شفتيه ، فأومأ اليه بالخروج ، فخرج دون ان يقول كلمة .

وبعد ساعة ، قال لحاجبه : يا ربيع ، ادع الناس ، فاذا أقبل المهدي فقدمه على عيسى ، ففعل الربيع ما امره به .

ودخل المهدي قبل عيسى ، فقال له المنصور : هنا هنا يا محمد .

وأشار الى المقعد عن يمينه ، وهو مقعد عيسى بن موسى ..

وكان عيسى وراء المهدي ، فلم ينتظر الاذن من المنصور ، بل ظل ماشياً في قاعة المجلس حتى جلس الى جانب المهدي ولم يجلس عن يسار الخليفة ، ذلك لانه أراد ان يقول للمنصور : اني لا اجلس عن يسارك .

فتميز الخليفة من الغيظ .. ولكنه اخفى غضبه ..

وعمد المنصور بعد ذلك الى تدبير آخر .

كان اذا اقبل الناس الى مجلسه ، يأذن للمهدي ، ثم لعمه عيسى بن علي ، ثم لعمه الآخر عبد الصمد بن علي ، ثم لعيسى بن موسى .

وعيسى يظن ، ان الخليفة يقدم اذنهم لحاجة له ، حتى عرف اخيراً ان الامر مظهر من مظاهر الاستخفاف ، فلجأ الى السكوت لا يبوح بسره ولا يشكو ..

ثم انتقل من حاله التي رأيت ، الى حال اعظم خطراً وابعد اثراً ..

كان يجلس في مجلس المنصور ، فينثر عليه التراب من السقف ، وينظر الى الخشبة فوق رأسه ، ويسمع الحفر عن جانبها ليسقط التراب على قلنسوته وثوبه ، فيأمر من معه من ولده بالتحول ويقوم هو يصلي .

ثم يؤذن له ؛ فيدخل والتراب على رأسه وثيابه ، فيقول له المنصور : يا عيسى ما يدخل علي احد بمثل ما تدخل انت أفكل هذا من الشارع ؟

فيقول عيسى : احسب ذلك يا امير المؤمنين .

وقيل ، ان المنصور امر بان يسقى عيسى بعض ما يقتله ، فأحس الرجل ان به مرضاً ، فاستأذن في الرجوع الى الكوفة ، فأذن له .

ومرض في الكوفة واشتد مرضه ، ثم عوفي .

فقال عيسى بن علي للمنصور : ان عيسى يتربص بالخلافة لابنه موسى وهو الذي يمنعه .

قال : خوفه وتهدده .

فلما فعل الرجل ذلك ، خاف موسى بن عيسى واتى العباس بن محمد فقال له : يا عم ، اني ارى ما يدفع ابي الى اخراج ولاية العهد من عنقه ، وهو يؤذى بجميع انواع الاذى والمكروه حتى يفعل .. يهدد مرة ، ويؤخر اذنه مرة ، وتهدم عليه السقوف مرة وهو لا يتخلى عن ولاية العهد ولا يكون ذلك ابداً .

– والمنصور لا يرضى الا بأن يخلع نفسه .

– اجل ولكن هنالك وسيلة يبلغ بها المنصور غايته .

– ما هي ؟

– هي ان يقبل عليه امير المؤمنين وانا حاضر فيقول له : انا اعلم انك لا تتخلى عن ولاية العهد لا لنفسك ، بل احتفاظاً بها لابنك موسى ، أفتراني ادع ابنك يبقى بعدك واحرم ابني ؟؟ كلا والله لا يكون ذلك ابداً .

– وتعتقد ان اباك يترك حقه اذا فعل المنصور ما تشير به ؟

– هذا ما يخطر لي .

فأتى العباس المنصور فأخبره ذلك .

فلما اجتمعوا عنده ، قال ذلك ، ثم امر الربيع بن يونس بان يخنق موسى بن عيسى بحمائل السيف .

فقام الى موسى يتظاهر بانه سيخنقه ، وموسى يصيح قائلاً : الله الله في دمي يا امير المؤمنين ، ان ابي ما يبالي ان تقتلني وله بضعة عشر ذكراً .

والمنصور يقول : يا ربيع ازهق نفسه !..

والربيع يرفق به وكأنه يحاول خنقه .

فلما رأى ذلك عيسى بن موسى قال : والله يا امير المؤمنين ما كنت اظن ان الأمر يبلغ منك هذا كله ، فاكفف عنه ، فانا اشهدك ان نسائي طوالق ان لم اخلع نفسي وهذه يدي بالبيعة للمهدي ...

فقال المنصور : المهدي ولي عهدنا وعيسى بن موسى ولي عهده ..

ثم قال : انا نريد الحج فاذا كانت لاحدكم حاجة فليذكرها ..

فقالوا : نريد ان يعود امير المؤمنين بخير الى دار خلافته ، فأومأ اليهم بالانصراف ثم اشار على عيسى بن موسى بالبقاء ، وخرج الناس ، فقال لعيسى: نحن خارجون الى مكة ، وسندفع اليك عمك عبدالله بن علي .

– وماذا اصنع به يا امير المؤمنين ؟

– ألا تعلم ماذا تصنع به ؟ ان الخلافة صائرة اليك بعد المهدي ، فاضرب عنقه واياك ان تضعف فتفسد علينا الأمر الذي رأيناه .

– وافعل ذلك يا امير المؤمنين على مرأى من الناس ؟

– بل تفعله سراً لا يعلم به احد .

وخرج في اليوم الثاني يريد مكة ، فلما كان في بعض الطريق كتب الى عيسى يقول له : ماذا فعلت بالامر الذي عهدنا اليك فيه ؟

فأجابه قائلاً : لقد انتهى كل شيء ...

ولكن عيسى كان كاذباً .

أخذ عبدالله بن علي من عند المنصور، ثم دعا كاتبه يونس بن فروة وقال له:

لقد دفع الي المنصور عمه عبدالله بن علي لاقتله سراً .

– ولماذا لم يقتله هو قبل خروجه ؟

– لا اعلم !

– اما انا فأعلم !

– ماذا ؟

– أراد ان تقتله ، ثم يعود من الحج فيسألك عنه على مسمع من اخوته وابناء عمه .

– واذا سأل ؟

– ما تقول اذا سأل ؟

– اقول اني قتلته ..

– وتعرف ماذا يصنع عندئذ ؟ انه يقتلك به ويقول للناس : لقد قتل عيسى بن موسى عمنا عبدالله ونحن في الحج ، فقتلناه ، او يدفعك الى اعمامه اخوة عبدالله ليقتلوك ...

فأطرق ولي العهد المخلوع ثم قال : أصبت فما الرأي ؟

– احتفظ به ، ولا تقتله ، واكتم الناس امره .

ثم كتب المنصور الى عيسى كما رأيت ، فقال يونس لعيسى : اكتب الى المنصور أنك انفذت الامر ..

ففعل وقام في ذهن امير المؤمنين ان عبدالله قد قتل .

وعاد المنصور الى بغداد بعد زمن قصير ، فأقبل الناس يسلمون عليه وهو يسألهم عن احوال بغداد .

ثم انصرفوا ، فقال لاحد رجال البلاط : اتستطيع ان تقوم بما يأمرك به امير المؤمنين ؟

اقتحم الموت من اجل امير المؤمنين .

فخفض صوته قائلا :

اذا جالت اعمامنا فاسألهم ان يشفعوا الينا في اخيهم عبدالله ، ويسألوننا ان

نغفر له ذنبه ونغض الطرف عنه .
– وتغض طرفك عنه يا امير المومنين اذا فعلوا ؟
– اجل فقد طاب لنا ان نرسل عمنا عبدالله حراً كما كان.. ولكن احذر ان يعلم احد اننا حدثناك بهذا .
فخرج الرجل حتى اتى اخوة عبدالله وهم مجتمعون ، فرحبوا به ، لما يعلمون من منزلته في قصر المنصور .
ثم اقبلوا يسألونه عما لقيه الخليفة في حجه ، وهو يحدثهم ويقص عليهم ما يخطر له ، ثم قال : سمعت امير المؤمنين يسأل خاصته عن اخيكم عبدالله ، وقد انست فيه الرضى عنه .
فقال احدهم : يسأل عنه ولكنه لا يخرجه من سجنه .
– ذلك لانكم لم تطلبوا اليه ذلك .
– لقد طلبنا غير مرة فلم يفعل .
– اطلبوا اليوم فقد اثر فيه الحج على ما ظهر لي .
وجعل يعدهم حتى قبلوا ذلك منه ، وعولوا على ان يشفعوا في اخيهم السجين المغضوب عليه .
. وفي اليوم الثاني مثل الناس بين يدي المنصور ، وبينهم عيسى بن موسى .
فقام احد اعمام الخليفة فقال :
يا امير المؤمنين ، لنا اليك حاجة أفتأذن لنا ان نذكرها لك ؟
– هات !
– نستحلفك بالله الذي لا إله الا هو وبصلة الرحم ان تعفو عن عمك عبدالله
قال : لولا رحمة الله لانتزع عمنا الخلافة منا كما تعلم . ان ذنبه كان كبيراً ولو عدلنا لقتلناه وصلبناه على باب الانبار .
– ولكن عفو امير المؤمنين اكبر من ذنبه .
فحنى رأسه ينظر الى الارض كأنه يفكر ، ورأى اعمامه ان العفو قريب ، فلجوا في طلبه واستعطفوه .

فالتفت عندئذ الى عيسى بن موسى قائلاً : كنا قد دفعنا اليك عمنا وعمك عبدالله ليكون في منزلك .

قال : نعم يا امير المؤمنين .

– نأمرك باحضاره فقد صفحنا عنه .

فقال : يا امير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته؟

فأجابه وهو هادىء : ما امرناك ...

– بلى ، وكتبت الي وانت سائر الى مكة تأمرني بان لا اتردد في قتله .

– بل كتبنا اليك نسألك عما فعلت بالامر الذي عهدنا اليك فيه .

– وما هو هذا الامر ؟

– هو ان تسجن عبدالله في بيتك .

قال . تأمرني بقتله يا امير المؤمنين ، ثم تقول انك لم تفعل ؟!

فانتهره قائلاً : كذبت ..

ولم يشأ ان يزيد كلمة ، ثم قال لاعمامه : ، لقد سمعتم كل شيء .. ان عيسى يعترف بقتل اخيكم عبدالله .

قالوا : ادفعه الينا نقتله به .

فحول وجهه قائلاً : خذوه !

فامتدت الايدي الى عيسى ، وخرجوا به الى ساحة القصر ، واجتمع الناس ثم قام احدهم وسيفه بيده ليضرب عنقه .

فقال له عيسى : أفاعل انت ؟

قال : اي والله !

فقال : ردوني الى امير المؤمنين فلي ما اقوله .

فردوه اليه ، فقال له :

اردت ان اقتل عبدالله لتقتلني به ، ان عبدالله حي ...

قال : ائتنا به !

فخرج ، ثم رجع ومعه عمه عبدالله .

فقال المنصور للربيع : يدخل عبدالله وحده حتى نرى رأينا فيه .

فانصرف القوم ودخل عبدالله ، فلم يوجه اليه كلمة ، بل امر بان يجعل في بيت أساسه ملح .

ثم امر بعد ذلك بان يجري المــاء في اساس ذلك البيت ، فسقط السقف والجدران على السجين المنكود الحظ ، فمات ، ودفن في مقابر باب الشام ، وهو اول من دفن فيها .

ولم يذكر المنصور، عمه عبدالله منذ ذلك اليوم ، كما ان اعمامه لم يجسروا على ان يذكروه له . وسكت ابو جعفر عن عيسى بن موسى ، مستخفاً به ...

* * *

– ٤٤ –

كان صاحب البريد ، في كل قطر ، يخبر المنصور بكل ما يسمع ويرى ، من احوال الناس ، وادارة الحكام ، وسيرتهم في الرعية .

بل كان يكتب اليه ، ذاكراً له اسرار الاشخاص اللامعين، الوجوه في ذلك القطر ،

يفعل ذلك بأمر المنصور لا ينسى شيئاً ولا يغفل عن شيء .

وكان المهدي ولي العهد بالريّ، واخبار المهدي نفسه، تنقل الى ابيه كل يوم، او كل اسبوع ، او كل شهر .

والمهدي كريم جواد ، على غير ما يريده امير المؤمنين ، فقــام عليه وهو بالري ، الشاعر المؤمل بن أميل ، وامتدحه بقصيدة .

فأمر المهدي صاحب ماله ، بان يعطيه عشرين الف درهم، وانتهى خبر عطائه الى صاحب البريد .

فكتب الى المنصور يقول : يا امير المؤمنين ، ان الامير المهـدي امر لشاعر بعشرين الف درهم .

فغضب الخليفة على ولي عهده ، وكره ان يبذل ماله على الشعراء ، وكتب اليــه :

انما ينبغي لك ان تعطي الشاعر بعد ان يقيم ببابك سنة كاملة اربعة آلاف درهم .

ولامه على عمله ، ثم كتب الى كاتب المهدي ، يأمره بان يوجه اليه الشاعر .

فطلبه فلم يره ، وقيل له انه قد خرج يريد بغداد .

فأجاب الخليفة قائلاً : ان الشاعر خرج الى عاصمة خلافتك .

فقال المنصور لقائد من قواده :

اجلس على جسر النهروان وتصفح الناس رجلاً رجلا حتى تظفر بالمؤمل .

فمكث القائد على الجسر بضعة ايام حتى رآه ، فقال له : من انت ؟

– انا المؤمل بن اميل من زوار الامير المهدي ، فقال : اياك طلبت .

فاضطرب الرجل ، وكاد يسقط خوفاً من ابي جعفر .

فقبض عليه ، ثم اتي به وسلم الى الربيع حاجب المنصور .

فدخل الربيع فقال : هذا الشاعر قد ظفرنا به يا امير المؤمنين .

قال : ادخلوه

فلما دخل سلم ، فرد المنصور السلام ثم قال المؤمل : ليس هنا الا الخير ...

قال : انت المؤمل بن اميل ؟

– نعم اصلح الله امير المؤمنين .

قال : هيه ، اتيت غلاماً غراً فخدعته .

قال : نعم اصلح الله امير المؤمنين ، اتيت غلاماً كريماً ، فخدعته فانخدع فاعجبه جوابه ، فقال : انشدنا ما قلت فيه ، فانشد :

هو المهدي الا ان فيـــه	مشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فهما اذا مـا	انارا مشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل	وهذا في النهار سراج نور
ولكن فضل الرحمن هـذا	عـــلى ذا بالمنابر والسرير
وبالملك العزيز ، فذا امير	وما ذا بالامير ولا الوزير
ونقص الشهر يخمد ذا وهذا	منير عند نقصان الشهور

فيــا بن خليفة الله المصفى | به تعلو مفاخرة الفخور
لئن فت الملوك وقد توافوا | اليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك ابوك حتى | بقوا من بين كاب او حسير
وجئت وراءه تجري حثيثاً | وما بك حين تجري من فتور
فقال الناس مــا هذان الا | بمنزلة الخليق من الجــدير
لئن سبق الكبير فاهل سبق | له فضل الكبير على الصغير
وان بلغ الصغير مدى كبير | لقد خلق الصغير من الكبير

فقال : والله لقد احسنت ، ولكن هذا لا يساوي عشرين درهما ، ثم قال ا
اين المال ؟

– ها هوذا يا امير المؤمنين !

فقال : يا ربيع ، انزل معه فاعطه اربعة الاف درهم وخذ الباقي .

فخرج الربيع فوزن له اربعة آلاف واخذ ما بقي .

واستأذن على المنصور عندئذ ، ابو ايوب فقال : ان ديوان خلافتك يا امير المؤمنين يحتاج الى كاتب للرسائل .

قال : هذا رأي كاتبك ابان بن صدقة اليس كذلك ؟

– بلى يا امير المؤمنين وان الرأي ما رآه .

– لماذا ؟

– لان اشغال الخلافة قد كثرت وامير المومنين ابقاه الله ، أعلم الناس بذلك

– لقد تعب ابان بن صدقة من الكتابة فطلب ما تقول .. انه يأخذ من بيت المال مالا لا يستحقه ، فليشتغل نهاره وليله ليكون ما يأخذه حلالا له ...

– ولكن ابن صدقة لا يخرج من الديوان يا امير المومنين الا اذا انتصف الليل

– بحياتي يا أبا ايوب ؟

- بحياتك يا امير المومنين .

واي فتى تختاره لهذا ؟

فتى من فتيان الموصل يقال له جعفر .

ممن هو ؟
- من الازد .
وكيف عرفته ؟
دلني عليه خازم بن خزيمة .
- اذا كان من الموصل فلا بأس به .. اجعله في الديوان فلا اهل له في بغداد .
ولكن ايستطيع ان يقوم بالامر ؟
- رأيته يا امير المؤمنين ، اهلاً لثقتك وثقة وزيرك .
- اذن فافعل ، واجعل له من بيت المال ما شئت . ولكن بلغنا ان الموصل ثائرة اليوم ، والاكراد فيها خارجون على الخلافة .

ودخل في تلك اللحظة رجال القصر ، فقال لهم : ان الموصل في فوضى ، فمن لها ؟

فقال بعضهم : وجه اليها المسيب بن زهير .
اما عمارة بن غمرة فقال : عليك يا امير المومنين بخالد برمك .
وكان خالد حاضراً ، فقال له المنصور :
أسمعت يا ابا يحي ؟
- سمعت يا امير المومنين واطعت ...
وكان ذلك في السنة الثامنة والاربعين .
وسار خالد الى الموصل ، فقهر المفسدين ولم يترك لهم ، بشدته وحكمته ، سبيلاً الى الثورة ...
ولكنه احسن الى الناس من الناحية الاخرى، ونصح لهم بان يبعدوا اولئك الاكراد الذين خرجوا عن الطاعة .
وبينا هو في الموصل ، انتهت اليه البشرى ، ان الله انعم على ابنه يحي بولد سماه الفضل .
وقد ولد الفضل ، قبل ان يولد الرشيد بن المهدي بسبعة ايام ، فارضعته الخيزران ام الرشيد بلبن ابنها ، وكان الفضل بن يحي ، اخا الرشيد بالرضاع ،

ولذلك يقول سلم الخاسر :

اصبح الفضل والخليفة هرو　　ن رضيعي لبان خير النساء

وقال ابو الجنوب في الفضل :

كفى لك فضلاً ان افضل حرة　　غذتك بثدي والخليفة واحد

* * *

- ٤٥ -

جعفر كاتب ابي ايوب الجديد ، فتى من احسن فتيان بغداد وجهاً ، واكملهم عقلاً ، واقربهم الى الناس .

اقبل الى بغداد ، يوم اقبل الناس اليها ، وهو لا يعرف فيها احداً وليس فيها احد من اهله .

ولكن ، ليس لجعفر اهـــل ... انه يعرف اخواله من بني الأزد .. ولا يعرف اباه .

وتقول له امه ، ان اباه مـات ، وهو طفل ، كما كانت تقول، ان ذلك الوالد أزدي ، واسمه عبدالله ...

ربته امه وهو وحيد ، وقد نشأ حراً ابياً ، صادق العزيمة كريم الخلق،وتعلم الكتابة فنبغ فيها ، على الوجه الذي يحتاج اليه اهل ذلك الزمان .

ونظر جعفر الى الموصل ، مسقط رأسه ، فرآها البلد الضيق الذي لا يتسع لمطامعه ، وكره ان يروح ويجيء ، مع فتيان البلد ، ولا عمل له ..

وفي أي شيء يطمع جعفر ?

لم يكن رجل حرب ، ولم يخطر له ان يحمل السيف ، ويخرج الى قتـال الاعداء ، كما انه لم يحلم بمنصب من مناصب الدولة يعهد اليه فيه الخليفة المنصور

لقد كان له امـل واحد ، هو ان يمسي كاتباً في ديوان الوزارة ، الذي هو ديوان امير المؤمنين .

وفي الموصل ديوان امير ، وهو ارفع من ان يكون كاتباً للامراء ...

وذكر حلمه لأمه ، فقالت له :

ان في بغداد طوائف من الكتاب وليس لك فيها رجل تستند الى نفوذه .
فقال : ومع ذلك فسأرحل اليها متوكلا على الله .
قالت : اخاف عليك يا بني رجال السوء ؟
قال : لا يستطيع رجال السوء أن يمدوا أيديهم الي لاني لست منهم ..
- والمال الذي يحتاج اليه الغريب في غربته ؟
- تعطيني من المال ما تستطيعين ..
- ويكفيك ؟
- نعم وسيحمل الي قلمي المال الكثير .
فأطرقت قليلاً ثم قالت : سأبوح لك يا بني ، بسر كتمتك اياه من قبل ..
- الآن ؟
- اجل واني لا اطيق ان ترحل وانت تجهل سر مولدك .
فرفع الفتى رأسه قائلاً : يظهر ان ابي حي ...
- لا اعلم .. لقد اتى ابوك الموصل مستتراً مستخفياً عن عيون الناس ، كأن الناس جميعهم يطلبونه ..
- وبعد ذلك ؟
- تزوجني فحملت منه ، ثم فارقني قائلا لي :
اذا سمعت بدولة بني هاشم فارسلي هذا الرق الى صاحب الامر فهو يعرفه ..
واعطاني رقاً لم يكتب عليه غير كلمة واحدة ..

وقامت فأحضرت ذلك الرق وقد كتبت عليه هذه الكلمة : تذكر ...
قال : وكيف كان ابي ؟
- كان في جميع مظاهره خير الرجال .
- وتظنين انه اليوم ببغداد ؟
- الله وحده يعلم ذلك .
قال : لقد امرك بان ترسلي هذا الرق الى صاحب الامر ، في دولة بني هاشم وصاحب الامر يعرفه عندما يراه .

– اجل قال لي ذلك .

– ان المنصور صاحب الامر ، وكان اخوه السفاح قبله، فهل عنى ابي بكلما صاحب الامر ، امير المؤمنين ام سواه ؟

– لا ادري !

– وتأذنين لي في حمل الرق الى بغداد ؟

– خبرتك بامره لتحمله الى حيث تشاء .

فأخذه ثم قال : اني ذاهب غداً .

قالت : اسألك يا بني ان تبعث الي باخبارك كل يوم اذا قدرت .

– سأفعل !

وقضى ليلته وهو يفكر فيما يحمل .

* * *

– ٤٦ –

قامت الفتنة بالاندلس ، فأخمد نارهـا عبد الرحمن الاموي ، ثم قامت فتنة اخرى بافريقيا فأخمدها رجـال المنصور ، ولم يلبث الخوارج في خراسان حتى ثاروا ، يقودهم رجل يقال له استاذ سيس .

فعلوا ذلك مستخفين بالمهدي ، امير خراسان ، وولي عهد المسلمين .

فتن لم تنقطع ، من السنة الثـامنة والاربعين ، الى السنة الحادية والخمسين ا بعد المئة .

والمهدي ، يولي القواد ويرسلهم الى قتال عدوه ، فيرجعون متعثرين بالفشل حتى رأى المنصور اخيراً ان يضع اصبعه ويولي بطلاً من ابطال الفتح .

دعا خازم بن خزيمة فقال له: تسير الى المهدي فتفتك بخوارج خراسان أفقادر على هذا ؟

– نعم يا امير المؤمنين .

– وتعلم ان عدونا في ذلك القطر كثير العدد ؟

– اعلم ذلك ولا اخافه .

قال : تعودت ان تخوض الجـــال رجلاً وتعود رجلاً .. قم فارحل فنحن مؤمنون بانك ظافر ان شاء الله .

فخرج خازم حتى اتى المهدي فولاه ، ثم ضم اليه القواد المجربين الذين تعودوا خوض الميادين .

ومـــا هي الا بضعة ايام ، حتى حطم ابن خزيمة قوى عدوه ، واستسلم القوم نادمين على ما فعلوه .

ولم يبق الا ان يكتب المهدي الى امير المؤمنين ، ذاكراً له عظمة خـــازم في القتال ، وصدق عزيمته ، ثم ترك خراسان وخازم معه ، وقدما بغداد .

* * *

اقبل الناس في بغداد يهنئون ولي العهد ، وخازم بن خزيمة . .

وبينا المنصور على باب الذهب ، ثار الجند وحاربوه ، غير ان حراسه تصدوا لرجال الثورة واكرهوهم على الفرار .

ولكن المنصور لم يقف عند هذا الحد ، كان يخاف ان تجتمع كلمة الجند ، وهم من مضر واليمن ، فيخرج الامر من يده ، وتضمحل دولة بني العباس .

وجعل يفكر في امر ويشاور المقربين اليه ، حتى دخل عليه قثم بن العباس ، ابن عبيدالله بن عباس ، وهو شيخ له حرمته ومقامه .

فقال له المنصور : أما ترى ما نحن فيه يا شيخ ؟

قال : وما الذي تخشاه يا امير المؤمنين ؟

– اخشى ان تهتز اركان العرش .

قال : يا امير المؤمنين ان عندي رأياً لا اظهره لك .

– لماذا ؟

– لاني اخاف ان تفسده علي .

– واي خير في رأي يبقى في صدر صاحبه ؟

قال : اذا تركتني مضيت فيه ، فصلحت خلافتك وهابك الجند .

– وتمضي في خلافتي شيئاً لا اعلمه ؟

قال : أمتهم عندك يا امير المؤمنين ؟
– انت ؟
– نعم انا قثم بن العباس ..
– لا ، بل انت من اصدق المخلصين .
– اذن دعني افعل ما اشاء .
قال : افعل على ان تتعجل في الأمر .

فانصرف ابن العباس إلى منزله فدعا غلاماً له فقال : اذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار امير المؤمنين .
– ثم ماذا ؟
– فاذا رأيتني قد دخلت وتوسطت اصحاب المراتب ، فخذ بعنان فرسي واستحلفني بحق رسول الله وبحق العباس، وبحق امير المؤمنين، ان اقف واصغي الى سؤالك واجيبك .
– وماذا اقول ؟
– اسمع ، اني سأنتهرك واغلظ لك فلا تخف وعاود السؤال ولو ضربتك ، وقل لي :
اي الحيين اشرف ، اليمن ام مضر ، فاذا اجبتك فاترك الفرس وانت حر .
فلما كان الغد ، فعل الغلام ما امره به وسأله والناس يسمعون : اي الحيين اشرف ؟
فقال قثم : مضر اشرف ، لان منها رسول الله ﷺ ، وفيها كتاب الله ، وبيت الله ، ومنها خليفة الله .
فامتعضت اليمن ، وقام احد قوادهم فقال : لا والله ليس الامر كذلك .
ثم قال لغلام له : قم الى فرس الشيخ فاكبحها .
فقام ففعل ، فامتعضت مضر بدورها وقال بعضهم : لا والله لا يفعل هذا بشيخنا .
ونهض احدهم فضرب يد الغلام فقطعها ، فثار الحيان ...

فدخل قثم على المنصور قائلاً : لقد افترق الجند الآن يا امير المؤمنين .
قال : وكيف ذلك ؟
– جعلتها احزاباً وفرقاً، فاذا احدثت احداها حدثاً ضربتها بالفرقة الاخرى حتى تلين .
– وانتهى الامر ؟
– بقي عليك ان تأمر المهدي فينزل في الجـانب الآخر من دجلة ومعه قطعة من الجيش .
– والحكمة من هذا ؟
– ان يصير الموضع الذي ينزله المهدي بلداً ، وبغداد بلد ، فـان فسد عليك اولئك ضربتهم بهؤلاء .

فابتسم المنصور قائلاً : اي والله هذا هو الرأي .

وعول على بناء الرصافة للمهدي ، ثم بناها على طراز يشبه من بعض وجوهه طراز بغداد ، وامست الرصافة بعدئذ مقراً لولي العهد .

* * *

– ٤٧ –

هنأ الناس المهدي ، ثم اقبلوا يهنئون قائد جيشه الظافر ، خازم بن خزيمة ، بينهم ابو ايوب ، وزير المنصور ، وكاتبه جعفر الذي لا نسب له .

وجعفر يفكر في نهاره وليله في ذلك الرق الصغير الذي دفعته اليه امه ، قبل خروجه من الموصل ، بل كان يفكر ، في ان يدفعه الى امير المؤمنين ، الذي هو صاحب الامر .

ولكن بينه وبين امير المؤمنين هوة بعيدة الغور .

أفيستطيع كاتب في الديوان ، ان يمثل بين يدي المنصور ، ويسلم إليه رقاً لا معنى لما كتب فيه ، ثم يسأله ان يحل اللغز الذي كتب على ذلك الرق ؟ ومـاذا يقول للمنصور اذا اذن له في الدخول عليه ؟..

أيقول له اتيتك يا امير المؤمنين طالباً اليك ان تدلني على ابي ؟ ومن يضمن له

ان المنصور لا يقول له عندئذ : اخرج من الديوان ، فالخليفة لا يطيق ان يبقى في ديوان خلافته فتى مثلك مجهول النسب !

ان في الامر ما فيه ، ومن الرأي ان يستعين جعفر بالصبر ، ويرضى بما قسم له القدر ، من نسب ضائع ، ومنصب لا بأس به .

على ان نفسه كانت مضطربة ، وهو لا يرى في بغـــداد من يشكو اليه الهم الذي يملأ صدره .

وهنالك شيء آخر يملأ قلب جعفر ، شباب نضير ، وخلق عـــال ، ونفس عزيزة ترتفع الى العلاء . وهو لم يجد ، على الرغم مما رأيت ، فتاة يسند الى يدها رأسه ، في ايام محنته .

اجل ، كانت عاطفة جعفر ، عـاطفة شاب بعيد الهمة مؤمن بمستقبله ، وقد امسى في سن يتزوج فيهـا فتيان المسلمين ، من عامة وامراء ، وفي قلبه فراغ .. هو فراغ الصبا والشباب .

جلس بين المهنئين ، والقـــائد الظافر خازم بن خزيمة يرحب بهم ، ويبتسم لعاطفتهم ، ويثني على الوزير ابي ايوب وكاتب ديوانه ، الذي كان قد عرفه من قبل. وهو معجب باباء جعفر ، وعظمة نفسه ، وهدوئه الذي يشبه هدوء الشيوخ المجربين .

وكانت عاتكة ، ابنة خزيمة ، من اولئك الفتيـات اللواتي لا يحتجبن وراء الستر ، فهي قد نشأت في ظل ابيها ، كما تنشأ نساء البادية ، في جو حر ودنيـا واسعة ترسل اليها الشمس نورها الوهاج ..

وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فأبوها ابن البـادية ، وامها تنتسب الى قبيلة لا يطيب لابنائها العيش الا في الصحراء .

على انها لم تكن تجالس الناس الا اذا دعاها ابوها الى ذلك ، وابوها لا يفعل ، الا اذا كان جلساؤه ، من الصف الاول في بغداد ...

ان ذلك الحلم الذي رآه ، والذي قرأت شيئاً عنه في الجزء الثـالث من هذه الرواية ، ان ذلك الحلم ، كان يملأ ذهنه ، ونفسه ، ويغذي روحه الوثابة الى المجد ..

لقد قال له ذلك الحلم .. ان فتى من ولد العباس سيحب عاتكة .. وقد رى هذا الفتى جالساً مع الخليفة على سرير الخلافة. وامير المؤمنين ينظر اليه نظرات الحب كأنه قطعة منه ..

اجل ، لقد كان خزيمة مؤمناً بحلمه !. وهو يرى ان عاتكة تستحق ان تمسي زوجة لامير من امراء البيت المالك .

ومن اجل هذا ، كان يريد ان يلفت نظر رجـــال البلاط الى جمال ابنته ، فيدعوها الى الجلوس بينهم ، ليلفتوا بدورهم نظر امير المؤمنين الى هذا الجمال ..

وعاتكة تستحق الجلوس على عرش .. فهي في شبابها ، وجمالها ، وادبهـــا ، وكريم خلقها ، من احسن عذارى مدينة المنصور ، وقلبها ، قلب مطمئن خلي .. لم يعرف الحب ..

تنظر الى فتيان بغداد كأنها تنظر الى قطع الجيش .. لا يخفق قلبها على واحد من هؤلاء ولا ينبض فيها عرق من عروق الغرام ...

* * *

انصرف الناس من منزل ابيها الا ابا ايوب وكاتب الديوان ، لم ينصرفا ، لأن خزيمة سألهما ان يبقيا ، ثم اومأ الى غلام له فدعا عاتكة .

فلمـــا اقبلت وسلمت ، جعل ينظر الى الاثنين كأنه يقول لهما : اخبرا امير المؤمنين بما رأيتما .

وجلست عاتكة وهي تبتسم بأدب ، ثم لم تلبث حتى أحست بقشعريرة الغرام تتمشى في دمها وخفق قلبها على الحب .

نظرة واحدة ، جعلت عاتكة وجعفراً عاشقين وهكذا يخلق الهوى ...

وانها لساعة عذبة ، في حياة جعفر .

لقد امتلأ في تلك اللحظة فراغ قلبه ؟ وامتلأ في الوقت نفسه قلب عاتكة ، فكأنهما تحـــابا منذ زمن طويل ، وجعلا يتحدثان بتلك اللغة الصامتة ، لغة العيون .. كما يقول الشعراء .. وقد تلألأ الحب عـلى الوجهين .. وخزيمة ، وأبو ايوب ، غافلان .

- من هو هذا الفتى يا ابي ؟
- قلت لك انه جعفر الكاتب في الديوان .
- ولكنك كنت تقول ، أن أبان ابن صدقة هو كاتب الوزير ابي ايوب !
- اجل أبان كاتب ابي ايوب وجعفر كاتب في ديوانه ، وهو كما ترين ، مليح الوجه حسن الشمائل والوزير يثق به ويؤثره على أبان .
- وهل كان بالانبار ؟
- لا ، وانما قدم بغداد من الموصل وليس له ببغداد اهل .
- يظهر ان امير المؤمنين يحبه ويعطف عليه .
- ليس له صلة بأمير المؤمنين ... ثم قال ، وهو يبتسم : اراك تسألين كثيراً عن جعفر ...
- لقد خطر لي ، عندما رأيته ، انه من ابناء الخلفاء ...
فاضطرب خزيمة قائلاً : مسكين ... انه لا يعرف اباه ...
فاهتز جسم عاتكة وارخت نظرها الى الارض لا تقول كلمة ..
ثم جعلت تتنهد كأنها تبكي ، اجل، كانت تبكي ، وهذه دموعها تتساقط على الخدين ... فقال خزيمة :
عاتكة ، أتبكين ؟
فتمتمت تقول : نعم ، هذه اول دمعة تذرفها عيناي .
- لماذا ؟
- لأني أحببت جعفراً !!

فأجابها وهو هادىء : تحبين فتى مجهول النسب ولا عشيرة له ؟ واي شيطان اوحى اليك بهذا الحب ؟
- لا اعلم يا ابي... لقد دخلت هذه القاعة وانا لا اعرف الهوى ، فلما وقعت العين على العين أحسست ان هذا الهوى يتردد في قلبي بل أحسست ان جعفراً قطعة من روحي .
واخفت وجهها بيديها وقد خجلت من هذا الاعتراف .

فذكر خزيمة حلمه فقال : ولكني انصح لك بان تتراجعي قبل ان يستعصي الداء .

– لقد استعصى وانتهى الامر ..

– وجرى كل ذلك في لحظة ؟ ..

– في لحظة كما ترى ..

قال : لم اكن اظن ان لك مثل هذه الجرأة تحدثيني بها .. انسيت ان اباك يفكر في ان يجعلك ملكة على عرش ؟

– ما نسيت شيئاً وانما هي قوة خفية تملي علي ما اقوله لك ..

قال : اذكري ان جعفراً لا اب له .

– ولكن له الخلق العالي واباء الرجال .

– ومن دلك على ذلك ؟

– جبينه الزاهي وعيناه الصافيتان ..

وسكتت قليلاً ثم قالت : الا تطمع يا ابي بان يصير احد الامراء صهراً لك ؟

– بل اطمع بان يمسي احد ابناء امير المؤمنين صهراً لي ..

قالت : لامير المؤمنين ، واخوته وابناء اخوته ، واعمامه البنون الذين يملأون العصور ويطوفون كل يوم في بغداد امامهم ووراءهم الخيل ، افرأيت ان احدهم فكر في عاتكة او سألك سؤالا واحداً عنها ؟

فتردد خزيمة في الجواب ، فقالت :

ماذا يا ابي ، افطلب اليك احدهم ان تزف اليه ابنتك ؟

– لا ...

– والخليفة ؟ هذا الخليفة الذي يبعث بك كل يوم الى الميادين تحطم اعداءه وتحمل اليه بشرى الظفر ، أفخطر له يوماً أن يخطبني لاحد بنيه ؟

– لا ..

– أفلا ترى، انه نسي ذلك الحلم الذي قصصته عليه وانت في الانبار ، وهو لا يذكر غير أمر واحد هو تثبيت العرش لولي عهده المهدي ؟

- بلى .. بلى .. لقد نسي حلمي ولم يبال به .

- وهل يطيب لك ان تطلب اليه تحقيق حلمك ؟

- لا اجسر على ذلك .

- اذن فقد كتب لعاتكة ابنتك، ان تقضي العمر كله صنما لا يشعر ولا يحس ولا يخفق قلبه على هوى، وان خفق، فعلى امير من أمراء بني العباس!. أفتريد هذا؟

فدمعت عينا القائد وجعل يقول : لالا .. ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

خير لك ان تختاري فتى من نبلاء المسلمين .

- ومن قال لك ان جعفر ليس من النبلاء .. كل ما فيه نبيل يا مولاي ... وجهه ، وعيناه وابتسامته وهدؤه ، جميعها مظاهر نبالة وشمم فيه وقد يكون في مولده سر لا يلبث حتى يظهر ..

ومسحت دمعها وهي تقول : ومع ذلك فالقضية ليست قضية اختيار يا مولاي .. انها قضية حب لا عهد لي به من قبل .. وأنا لم أفكر في أن أختار أحداً قبل أن أرى جعفراً ، كما اني لم أظن عندما دخلت هذه القاعة ، إن الحب سيجد سبيلاً إلى هذا القلب.

واستسلمت الى البكاء وهي تردد : احبه يا ابي .. نعم احبه ، وانا اشعر اني لن احب سواه .

فرأى خزيمة ، وهو القائد المجرب الذي خبر الزمان ، ان الهوى هو الذي سيتكلم ، وان الحكمة تقضي عليه ، بأن يعمد مع عاتكة ، الى التؤدة واللين ، حتى ينظر في امر جعفر ، ويتبين نسبه الضائع .

فنهض قائلاً : كفي عن البكاء الآن وقصي على امك حكاية هذا الحب، وتوكلي على الله .

قالت : ان شئت فاسأل أبا أيوب عن جعفر ...

- سأسأل ، وسأفعل كل شيء من اجل هذه الغاية .

- واذا تبين لك غداً ان ابا جعفر مجهول ؟

– اطلب اليك عندئذ ان تخنقي هذا الحب وتتناسي جعفراً .. أتعدين بهذا ؟
– قد لا استطيع ذلك يا ابي !
– بل تستطيعين ، لأن أباك اذا رضي بان تحبي ، فهو لا يرضى بان ينتهي به هذا الحب ، الى الفضيحة والعار .. قومي .

فانصرفت عاتكة الى امها تخبرها بما جرى ، وخرج خزيمة يريد ان يزور المهدي ، ثم يعود عند المساء الى الديوان .

* * *

– ٤٨ –

كان للمنصور ثمانية بنين : المهدي ولي العهد ، وجعفر الاكبر ، من أم ، وسليمان وعيسى ويعقوب من أم اخرى ، وجعفر الأصغر ويقال له ابن الكردية ، وصالح والقاسم .

وعين المنصور ترعاهم جميعاً ، وهم البنون البررة الذين لا ينقلون قدماً الا بأمر امير المؤمنين .

والزمان صاف لهم وللخليفة الوالد . غير ان هذا الزمان لا يلبث حتى يجفو .. يبتسم ثم يتنكر ، ويلين ثم يقسو ، وتلك هي سنته لا تتغير منذ وجد العالم الى اليوم .

والمنصور ، لا يهابه الزمان ، ولا يعبأ به ، فهو في يد القدر يعبث به وان يكن سيد المسلمين .

اخضع اعداءه في الحجاز وخراسان، واستراح من عمه عبدالله بن علي ، ومهد للمهدي بعد خلع عيسى بن موسى ، سبيل الوصول الى العرش ، واقام ببغداد يستغل ملكه ، ويهضم مجده .

والقدر ينظر اليه ويسخر به .. ثم تمادى في سخريته ، ومد يده الى جعفر الاكبر فصرعه وهو في حضن ابيه ..

اجل ، مرض جعفر ، وانشبت الحمى مخالبها فيه واطباء المنصور والخبراء يعالجون المريض ، ولو استطاعوا لاعطوه من دمهم ، ولكن جعفراً مات ...

مات ، بعد ان قضى المنصور الليـــالي السود ، عند فراشه ، يسمعه صوت عاطفته ، ويبذل له ما يبذله الاب لابنه ، في مثل هذا الموقف الرهيب .

ولكن لا تنس ، ان المنصور ، امير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، وان الخلافة ، تقضي عليه ، بان يبقى ، وهو عند جثة ولده ، ملكاً يحف به الجلال ، ولا تأخذ العاطفة والحزن شيئاً من هيبته ..

نعم ، بقي ملكاً معتصماً بالعظمة والصبر ، وهو الذي صلى على ولده الميت، وامر فدفن ليلاً في مقابر قريش ..

ثم جلس للناس في اليوم الثـاني كأن جعفراً لم يمت ، وفي قلبه ما فيه ، من كآبة وألم .

وبعد بضعة ايام ، فوجىء المنصور بموت الامـام الاعظم أبي حنيفة ، واسمه النعمان بن ثابت ، فقال للناعي : انا لله وانا اليه راجعون .

ثم اقبلت السنة الحـادية والخمسون بعد المئة ، فحمل اليه من سجستان خبر مقتل اميرها معن بن زائدة ، وقيام ابن اخيه مزيد بن زائدة بالأمر بعد عمه .

وقد قتل معن في منزله ، بخناجر بعض الخوارج الذين انكروا عليه سيرته .

ثم انتهى الى المنصور نعي عمر بن حفص امير افريقية ، الذي قتـله البربر في واقعة بينهم وبينه .

وكثرت الحادثات بعد ذلك ، والخليفة يعزل ويولي ويعالج الجراح ..

* * *

اروى، من النساء اللواتي لا تأخذهن المفاجآت. كانت تقول لابنتها عاتكة: انا لا اعرف جعفراً ولم اره من قبل .

- ولكن ابي يعرفه كما تعرفه بغداد ، وابي يقول انه فتى حسن الشمائل ، كبير الهمة ، عف اللسان .

- ثم يقول انه مجهول النسب وهذا يكفي .. ثم قالت : انا لا اسألك ان تخنقي العـــاطفة التي اختلجت الآن في صدرك ، ولكني ادعوك الى الصبر ريثما ينظر ابوك في الامر .

- لقد رأيت ابي بعيداً جداً عن هذه العاطفة وانا خائفة ..

- ان اباك من رجال الحرب فهو لا يتأثر كما تتأثر النساء ، ومع ذلك فـــانا واثقة بأنه سيسأل الناس عن جعفر قبل ان يقول كلمته ..

- وماذا يعلم الناس من امره ؟ انهم يعلمون ما نعلمه نحن لا زيادة ولا نقصان، وقد يقولون انه شر العرب .

فابتسمت قائلة : لا يرضى الوزير ابو ايوب ، ولا يرضى المنصور ، ان يضما الى ديوان الخلافة ، فتى يميل الى الشر .. انه من خيرة الفتيان على مـــا ارى ، ولولا ذلك لما جعـله الوزير في ديوانه وسأقول هذا لأبيك عندما يعود ، كما اني سأسأله ان يتناسى ذلك الحلم الذي لا خير فيه .

فأحست عاتكة ببعض العزاء ، واستندت الى ذراع امهـا تعرض في الذهن ساعة اللقاء ، وصورة الحبيب .

واطرقت اروى تفكر في الأمر من جميع نواحيه ، حتى عـــاد خزيمة عند المساء ، فنهضت عاتكة فدخلت مخدعهـا ، وجلس خزيمة في البهو يقول : اظن انك تعلمين الآن كل شيء .

فأجابته زوجته قائلة : اجل ، وقد قصت علي عاتكة ما جرى .

- وماذا ترين ؟

- عرفت انك خرجت لترى المهدي ثم تعود الى الديوان فهل فعلت ؟

- ان المهدي عند اخيه جعفر الذي يصارع الموت ، ولم ار من الحكمة ان امر بالديوان ، في ساعة يسأل الناس فيها عن الامير المريض .

- وذهبت انت الى قصر جعفر ؟

- نعم ، وامير المؤمنين عنده لا يفارقه ولا يحول نظره عنه ، واهل القصر يقولون ان جعفراً سيلفظ روحه الليلة .

- اذن فارجع وابق بين يدي المنصور حتى يقضي الله امره .

- هذا مـــا افكر فيه ، ولكن خطر لي ان اجيء الآن ، لاحدثك ساعة بامر عاتكة .

– لقد احبت عاتكة كاتب الديوان كما رأيت .
– وتسكتين عن هذا الحب ؟
– الرأي ان نسكت فليس في الحب عار ، وكاتب الديوان له مقامه ببغداد ومنزلته التي يحترمها اهل البلد .
– ولكن العيب في هذا المقام ، ان كاتب الديوان لا يعرف اباه ، وهذا امر يردده الناس في كل مجلس .
– ومن قال لك هذا ؟
– جماعة من حراس قصر الخلافة رأيتهم اليوم .
– وبماذا يتحدثون ؟
– يقولون انه فتى حلو الحديث ، شريف المبدأ والقصد ، له همة الرجال ورأي الحكماء .. ثم يقولون : مسكين انه لا نسب له ...
– وتظن ان هذا النسب سيضيع ؟
– من يعلم ؟
وجعل خزيمة يردد هذه الكلمة ، ثم قال : لا بد لي من السفر الى الموصل .
– انت ؟
– اجل !
– وما هي الغاية من سفرك ؟
– اسأل امه عن ذلك الزوج الذي لا تعرفه .
قالت : هــــذا خطأ ليس من الحكمة ان تقع فيه .. أتقول للأم : ان ابنك جعفراً يحب ابنتي وهي لا تزف اليه الا اذا اطلعت على سر مولده ؟
– نعم !
– واذا قالت لك ان اباه قد مات، وسمت لك رجلاً لا وجود له فماذا تصنع؟
– اسألها عندئذ ان تسمي قبيلة الزوج ، ثم انصرف الى تلك القبيلة اسأل عقلاءها عن الرجل .
– وتقضي زمانك بالسؤال والطواف، من مكان الى آخر حتى يتحدث الناس

بها ويجعلوا عاتكة مضغة في الافواه ؟

- وتريدين ان ازف عاتكة الى فتى هذا نسبه ، وانا من قواد المنصور ومن اركان دولة بني العباس ؟

- بل اريد ان تعمد الى شيء آخر .

- ما هو ؟

- هو ان تدعو جعفراً نفسه وتسأله ما شئت ..

- وابوح له بغرام عاتكة ؟

- لا ، بل تحمله على الاعتراف بهذا الغرام .

- وان لم يفعل ؟

- لا يستطيع الا أن يبوح بما في صدره ، اذا كان عاشقاً ، ومع ذلك فأنا سأتولى الامر عند مجيئه .

قال : هنالك شيء لا بد منه وقد نسيناه نحن الاثنين .

- هات !

- يجب أن أخلق سبباً ادعو جعفراً من اجله ، الى بيتي .

فضحكت قائلة : هذا امر ليس في جميع الامور أهون منه .

- وكيف ذلك ؟

- لا شك في ان الفتى يحب عاتكة ، فاذا سرت الى الديوان وجالست ابا ايوب ، طلب جعفر نفسه ، ان تأذن له في زيارة اخرى فتأذن له .

- وان لم يكن من العشاق ؟

- نقول عندئذ لعاتكة ان هذا الفتى الذي احبته لا يعرف شيئاً عن هذا الحب .

- وتقف الفتاة عند هذا الحد

- ما كانت عاتكة لتحب فتى لا يحبها وستختار لها فتى آخر تستطيع ان تمضي العمر معه قريرة العين مطمئنة البال .

قال : غداً افعل ما تقولين ، اما الآن فانا راجع الى قصر الامير المريض

وسأمكث به الى الصباح .

وقام فخرج دون ان يقول لعاتكة كلمة .

ولكن عاتكة خرجت من مخدعها بعد انصرافه وقالت لامها : اشكرك يا اماه فقد سمعت كل شيء .

قالت : لا يكفي يا بنية انتصغي الى ما نقول ، بل يجب انتعولي علىنسيان جعفر اذا هو لم يفكر فيما تفكرين فيه .

– لقد عولت على ذلك .

– وتعدينني به ؟

– نعم !

فقبلتها قائلة : الله وحده يعلم ما يختلج في هذا الصدر .

* * *

قضى خزيمة ليـــله ، مع اركان الدولة والقواد ، والنبلاء ، في اروقة القصر الذي يسود فيه سكون الموت .

وكان الامير جعفر في النزاع ، والمنصور يقوم ويقعد ، ثم يرفع نظره الى السماء ، ساكتاً هادئاً واللوعة في عينيه . والى جانبه المهدي ، وقد ارخى نظره الى الارض ، وجميع من في القصر ، يتنهدون ، بصمت وهـــدوء ، حتى طلع الصبح ، فنظر المريض الى من حوله نظرة التوديع ، ثم ابتسم واسلم الروح ، ودفن كما قرأت ...

فلم يستطع خزيمة ، ان يخطو خطوة واحدة الى الغاية التي عرفت ، ولم ير ، هو واروى وعاتكة ، الا أن يصبروا بضعة ايام ...

* * *

– ٤٩ –

هذا خزيمة بن خـــازم في الديوان ، وليس في الديوان غير أبان بن صدقة ، وجعفر ، وثمانية من الفتيان الآخرين على وسائدهم ، يقومون بما عهد اليهم فيه ، من ادارة الامور . وابو ايوب عند المنصور ، يصغي الى اوامره .

وكان أبان من اصدقاء خزيمة ، فلما دخل ، رحب به ، وقـــام جعفر فسلم بخجل ، وعيناه تلمعان .

فقال خزيمة : ظننت ان الوزير في ديوانه .

فقال أبان : انه عند امير المؤمنين .

قال : جئت لاسأله عما جرى بافريقية بعد مقتل اميرها عمر بن حفص .

– لم يول امير المؤمنين رجلاً آخر بعد .

– ومن يقوم بامر الناس ، في ذلك القطر ؟

– حميد بن صخر اخو عمر بن حفص لأمه .

– قيل لي ان امير المؤمنين سيولي يزيد بن حاتم ، بن ابي صفرة .

– لا يعلم ذلك غير ابي ايوب .. وهل لك في يزيد رأي ؟

– لا رأي للناس في امر يراه امير المؤمنين، ولكن لي في القيروان ابناء عم، اردت ان اوصي بهم يزيد ، اذا ولاه الخليفة .

فقال جعفر : سأسأل ابا ايوب عند رجوعه ، واحمل اليك جوابه ان شئت..

وهذا ما اراده خزيمة، من وراء سؤاله ، فقال : اما انت فلا ... وانما يحمله احد الغلمان ..

– بل اكون انا نفسي رسول الوزير اليك .

– لا ارضى بان تفعل ..

قال : اعتقد ان القائد لا يردني إذا زرته ..

– إذا كانت هنالك زيارة فأهلاً بك .. متى يكون ذلك ؟

– هذا المساء .

فشكر ثم خرج،خوفاً من أن يعود أبو أيوب في تلك الساعة، فتضيع حيلته، ويخسر زيارة جعفر العاشق .

وقد آمن عندئذ ، أنه من العشاق ..

وكان المساء ، فاستأذن جعفر في الدخول على خزيمة ، ثم دخـل وقلبه يخفق بشدة وعنف .

وبينا هو في الدهليز ، أبصر عاتكة ، فابتسمت وابتسم ، ثم مشى الى قاعة الجلوس وخزيمة ببابها يهش له .

ومضت لحظة والقائد يرحب بضيفه ، ثم قال :

– أعاد أبو أيوب ؟

– نعم وقد سألته عن يزيد بن حاتم فقال : إن الخليفة سيوليه .

– إذن أراه غداً وأوصيه .

وظهر التردد على وجهه ثم قال : مضى زمن على وجودك في ديوان المنصور ، وأنا لا أعرف شيئاً عنك ، ولا أسمع غير الثناء عليك من الوزير ومن حوله ..

وجعل يعبث بلحيته وهو يقول : أعرف انك من الموصل .

– نعم من الموصل .

قال : في الموصل فتيان اشداء يؤثرون حمل السيف في الميادين ، على الاقامة بالقصور والدواوين ، وأنا أعرفهم جميعاً .

وسمى له طائفة من الرجال ، فقال : انك من قواد بني العبـاس ، والجندي يعرف الجنود الذين يحاربون تحت لوائه في ساحات القتال .

– اجل ، وأبنائي الثلاثة من هذا الصف ، وهم من حرس المهدي ، يروحون معه ويجيئون في الحرب والسلم .

قال : اني أحب المهدي ، واتمنى له ما أتمناه لنفسي من بركة وخير .

– ان المهدي خـير الامراء ، وسيكون بعد موت المنصور خير الخلفـاء ، وتعرف الامراء الآخرين اخوة المهدي ؟

– اعرفهم جميعاً واحبهم كما احب ولي العهد .

– ذلك لأنك في ديوان الخليفة وللخليفة فضل عليك .

قال : ليس الخليفة هو الذي جعلني في ديوانه .

– ومن اذن ؟

– أبو أيوب .

- وكانت لك صلة بأبي أيوب من قبل ؟

– لا ، وانما عرضت عليه نفسي فرضي بان يضمني الى كتابه . .

– يظهر ان أباك لم يشأ أن تتعلم فنون القتال .

فتنهد قائلاً لا تحدثني يا سيدي بأمر أبي .

– أمات أبوك ؟

فتحير جعفر فيما يقول .. انه سر يفضح مـــا فيه ، وقد تضطرب له نفس خزيمة ، وهو أبو الفتاة التي يحب .

وماذا يقول له ؟ أيقول أن أباه قد مات !.. وإذا سأله عن اسمه .. أفيقول انه يجهل هذا الاسم ؟؟

وقد فات الفتى ، أن أمر نسبه ، ملء الأفواه ، وان الناس يتحدثون بذلك لما رأوه . ولم يخطر له ان القائد يعلم كل شيء .

على ان جعفراً يكره أن يكذب والموقف موقف جد ، لا موقف هزل ، وقد تدفعه جرأته ، بعد ساعة ، الى ان يبوح بهواه لوالد عاتكة ، ثم يخطبها اليه .

وكانت أروى وعاتكة تسمعان حديث الاثنين من وراء الستر .

أمات أبوك ؟. انها كلمة اهتزت لها كل شاعرة فيه .

ولكن لا بد له من الجواب .. والشرف يقضي ، بان يكون جوابه ، جواب فتى نبيل ، بعيد عن الاكاذيب ، فقال : أبي ! لا أعلم أحي أبي أم ميت !

– وكيف ذلك ؟

فجعل يرددها قائلاً : اي والله لا أدري أحي هو أم ميت .

قال : يظهر انه خرج بأمر الخليفة الى قتال عدو فلم يرجع .

– قد يكون ذلك .. لا والله لا أعلم .

– أما أنا فأعلم . أفلا تذكر لي اسمه ؟

فتفجر الدمع من عيني جعفر وقال : لا تسألني عن شيء فأنا لا أعرف شيئاً .

فتظـــاهر خزيمة بالاستعراب ، ثم قال وقد خفض صوتـــه : اذن ففي مولدك سر كتموك إياه .

– ليس لي غير أمي وهي لا تكتمني ما تعلم .

- ممن هي ؟
- من الأزد .
- وماذا تقول لك عن أبيك ؟
- انها هي نفسها لا تعرف من هو . أقول لك هذا يا سيدي والألم يمزق قلبي! ولكني لا أستطيع إلا ان أنطق بالحق ولو قتلت .

فأعجب خزيمة بهذا الخلق الطاهر والاعتراف البريء ، فقال : قصَّ علي يا بني ما تعلمه عن حياة أبيك ولا تخف .

قال : ورد أبي على الموصل ، وأقام بها زمناً مستتراً مستخفياً عن الناس .
- أهذا ما تقوله امك ؟
- نعم ثم تزوجها فحملت منه ، وعندما ترك الموصل، كتب لها كلمة واحدة على رق وقال لها :

« اذا سمعت بدولة لبني هاشم فارسلي هذه الكلمة الى صاحب الامر فيها فهو يعرفها » .. وكان ذلك آخر العهد به .

قال : إذا سمعت بدولة لبني هاشم..اذن فأبوك قدم الموصل في ايام بني أمية؟
- هو ذاك !
- وكان مستخفياً عن العيون ..
- نعم !
- ووصفته لك ؟
- تقول انه خير الرجال .

فأطرق خزيمة ملياً ثم رفع صوته قائلاً :

الدولة اليوم لبني هاشم،والمنصور هو الخليفة وصاحبالأمر الأول في دولته، أفلم يخطر لأمك ان تبعث اليه بالكلمة التي سلمها اليها أبوك ؟
- لم يخطر لها ذلك ، ولكنها دفعتها الي فهي معي وقد كتبت على رق .
- ودفعتها انت بدورك الى أمير المؤمنين؟
- لم أجد سبيلاً الى ما تقول .

-- والرق معك ؟

فمد يـــده الى صدره وأخرج ذلك الرق وهو يقول : انه معي ولكن لا خـير فيه .

فتناوله خزيمة وجعل يقرأ تلك الكلمة « تذكر » ثم يعيد قراءتهـا ويتفرس فيها وهو يظن انه سيعرف تلك اليد التي كتبتها .

ومكث ساعة وهو يتأمل ثم رفع رأسه وقال: كلمة راحدة لا يستطيـع المرء ان يعرف صاحبها وليس لك الا ان تحمل هذا الرق الى المنصور وتسمع رأيه .

– يصعب علي ذلك يا سيدي القائد .

– لماذا ؟

– لأن الأمر لا يعني المنصور، وهو أرفع من ان يحط نفسه الى الاهتمام بنسب ضيعه صاحبه .

قال : لقد أمسيت مؤمناً بان كاتب هذه الكلة هو من بني هاشم .

– أومن رجال الهاشميين الذين استخفوا فراراً من بني امية .

– لو لم يكن ابوك هاشمياً ، لما طلب الى امك ان تحمل هذا الرق الى صاحب الأمر الهاشمي ، ثم قال : وقد يكون من رجال الدولة أو من ابناء عم المنصور .

وبرقت عينا خزيمة في تلك اللحظة ، وتلألأ البشر فيها .

لقد بدأ القدر يمد يده ، ليجعل ذلك الحلم الذهبي ، حقيقة رائعة .

ثم اكفهر وجهه فجأة وجعل يفكر .

ألا يجوز أن يكون أبو جعفر رجلاً من خراسان ، ومن أنصار بني العباس ، وقد استخفى في الموصل لينشر دعوة العباسيين .

ولكن ، اية صلة بين ذلك الرجل ، وبين صاحب الأمر في دولة بني هاشم . أتراه كان واثقاً بأن صاحب الأمر الهاشمي سيظهر نسب جعفر أو يتبناه ؟

وإلا ، فأي شأن لصاحب الأمر ، مع رجل غريب تزوج امرأة من الأزد ؟

ثم اشرق جبينه مرة أخرى وجعل يقول : لا يحل هـــذا اللغز غير امير المؤمنين ولكن ، أتعلم يا بني أن أمك صادقة ؟

– لا أظن ان في النساء أصدق من هذه الأم .
– وهل تزوجت بعد أبيك ؟
– وكيف تتزوج وهي لا تعلم أحي أبي أم ميت ؟
– صدقت يا بني إنها لا تستطيع الزواج .
– بل تستطيعه إذا أرادت ، ولكنها لا تفعل .
– وعلى أي شيء عولت الآن ؟
– على العمل بالرأي الذي تراه .
– أنا ؟

نعم أنت ، ففي الصدر عاطفة تقول لي ، انك ستقوم مقام أبي ، في جميع المحن التي تعرض لي .

– ليس لي غير رأي واحد كما قلت ، هو أن يقرأ أمير المؤمنين مـا تحمل ! ثم نرى بعد ذلك .

– وكيف الوصول إلى أمير المؤمنين ؟
– سنبلغ الغاية بالقليل من الصبر . وسأنظر في الأمر .
فهامست عاتكة أمها قائلة : ماذا تظنين ؟
– أظن أن أباه من بني هاشم .
– هذا ما يقوله أبي .
– أجل ، وخير لنا أن نصبر كما قال .
قالت : أماه ، بربك قولي ، أترضين بجعفر زوجاً لي اذا عرف الخليفة أباه ؟
– اما انا فراضية يا بنية .
– وأبي ؟
– قد يرضى ، اذا لم يكن هنالك ما يمنع هذا الزواج .
والاثنتان وراء الستر ؛ كما علمت .
فسمعنا عندئذ جعفراً يقول : تتردد في الصدر كلمة أخجل أن اقولها لك ! أفتأذن لي ؟

- قل ما شئت .

- اني وحيد ببغداد ولا اهـل لي ، وقد أحسست منذ بضعة ايام ان لي قلباً يحب .

- ذلك ما يحس به الفتيان مثلك .

- ولكن هذا الحب قويٌ لا أعلم إلى أي حال ينتهي بي .

- الى الزواج ان شاء الله ... من هي الفتاة التي احببت ؟

- فتاة تنتمي الى أشرف الأباء .

- الى الخليفة ؟

- لا !

- الى رجل من بني العباس ؟

- لا ، وانما هي ابنة قائد من قواد المنصور ملأ اسمه هذا الشرق .

قال : حميد بن قحطبة ؟

- لا !

- اسمعيل بن خالد القسري ؟

- لا !

- ومن هو اذن ، يزيد بن حاتم ؟

- هو خزيمة بن خازم الذي اخاطبه الآن ..

فجعل قلب عاتكة يضطرب ..

اما خزيمة فابتسم إبتسامة قصيرة وقال : اذن فالفتاة هي عاتكة ..

- نعم يا سيدي انها عاتكة وقد رأيتها مرة واحدة فملأت نفسي ..

قال : هذا امر يحتاج الى درس .. ومع ذلك فسأسأل عاتكة واسمع رأيها ثم ابسط لك رأيي .

قال : اذا بسطته الآن كان لك علي فضل .

- خير لك ان تبحث الآن عن أبيك الضائع ، فاذا وجدته ، هان عليك امر الزواج .

قال : ماذا يقول عني الوزير ابو ايوب ؟

- يقول انك من احسن فتيان المسلمين .

- وابان بن صدقة ؟

- يقول مثله .

- وهل سمعت عني وانا ببغداد ، ما يحملك على رفض اليد التي تمتد اليك ؟

- ما سمعت غير الثناء عليك من جميع الناس .

- اذن عدني بان عاتكة ستمسي بعد العثور على ابي زوجة لي ..

- وكيف اعدك يا جعفر وانا لا اعلم اي رجل هو ابوك ؟

فرفع صوته قائلاً : إن أبي من أعاظم الرجال ..

- ومن اين لك ان تعرف ذلك ؟

- مما يختلج في هذا الصدر ، من مرؤة وإباء .

وظهر الخجل على وجهه وفي عينيه ..

فقال خزيمة : انها لثقة بالنفس لا غلو فيها وأنا مؤمن بأنك ذلك الفتى الأبي كما قلت ؛ ولكني لا استطيع ان اعدك بشيء ..

قال : انك تخشى ، اذا عرف ابي غداً ، ان يكون من صعاليك العرب .

- هو ذاك ، بل اخشى ان يكون من اذناب بني امية ..

- وهل نسيت انه كان في الموصل خائفاً من هؤلاء ؟

- قد يكون الرجل عدو الامويين ، وقد يكون منهم وقد غضبوا عليه لذنب اتاه او لسبب من الاسباب .

- لو كان الامر كذلك لما طلب الى امي ان تسلم هذا الرق الى صاحب الامر في دولة بني هاشم .. ان هذا وحده يكفي .

فرأى خزيمة ان الصواب فيما يقول الفتى ، ولكنه لا يستطيع ان يعده بالزواج الا بعد ان يرى أباه بعينيه ... او يسمع من امير المؤمنين او من بعض رجاله صفة ذلك الزوج المجهول .

وآثر الاحتجاب وراء الاعذار ، على الصراحة في الوعد والقول ، فقال :

ليس لنا الا أن نمهد السبيل للمثول بين يدي امير المؤمنين لهذه الغاية .

– وبعد ذلك؟

– يفعل الله بعد ذلك ما يشاء ..

– ومن يمهد السبيل الذي ذكرت ؟

– لا اعلم الآن ..

واطرق ملياً ثم قال : قد يدعوني امير المؤمنين اليه فأحدثه بأمرك دون ان اذكر له شيئاً عن الرق الذي تحمل .

– وماذا تقول له ؟

– اقول انك خير الفتيان ولكنك لا تعرف اباك .. وانتظر جوابه .

قال : اذا رأيت ان تخاطب بالأمر ابا ايوب ...

فقاطعه قائلاً : ليس من الحكمة يا بني ، ان يطلع احد ، قبل امير المؤمنين ، على هذا السر . انالكلمة المكتوبة علىالرق، موجهة اليه، لأنه صاحب الامر..

– وتظن انه سيدعوك ؟

– ذلك ما يفعله من حين الى آخر .

– وان لم يفعل ؟

– نظرت في الامر ، من وجه غير هذا الوجه .

قال : اذكر دائماً يا سيدي اني اسير الهوى .

– واذكر انت بدورك انك في الوقت نفسه ، اسير سر غـــامض لا تنفرج ازمة هواك الا اذا انجلى .. قم الان وتوكل على الله .

فخرج الفتى ، وهو يتلفت ليرى عاتكة ، ولكن عاتكة ، كانت قد دخلت مع امها ، قاعة الجلوس ، فقال خزيمة : أسمعت يا أروى كل شيء ؟

– نعم سمعنا نحن الاثنتين كلما قيل .

– ولك رأي في ذلك ؟

– لي رأي لا اجسر على الاستسلام له .

– ما هو ؟

– هو ان ابا جعفر هاشمي .

– اما انا فأظن أنه من بني العباس ، اصحاب هذه الدولة .

– ولكن الظنون وحدها لا تكفي وليس لنا الا ان نصبر حتى يقول امير المؤمنين كلمته في الرق المكتوب .

وهامسته عندئذ قائلة : اذا عرفت بعد ايام ، ان ابا جعفر من رجال بني العباس ، أفتزف عاتكة الى ولده ؟

– ازفها اليه اذا لم يكن ابوه صعلوكاً .. لقد كاد الحلم الذي رأيته في عهد السفاح ، يضيع كما ضاع ابو جعفر .. اجل ، ايقنت الآن بأن المنصور لا يفكر في ان يجعل عاتكة زوجة لاحد بنيه ، ولو خطر له ان يفعل ذلك لفعل .. فمن الرأي اذن ان نختار لعاتكة زوجاً نبيلاً تبتسم له الدنيا ويحيط به العز .

– اما انا فاخشى ان لا تجد هذا الزوج .

قال : ان لابي ايوب اخاً يدعى خالداً ، ولخالد هذا ثلاثة بنين .

– وتزفها الى احدهم ؟

– هذا ما افكر فيه .

فقالت عاتكة في نفسها : اما جعفر او الموت .

وترك الثلاثة قاعة الجلوس على ان يمهد خزيمة سبيل الوصول الى امير المؤمنين ، والتحدث معه بشأن كاتب الديوان ...

* * *

جلس خزيمة على وسادة قريبة من مقعد ابي ايوب وقال له : رأيت ان ازورك الساعة لاسألك عن احوال الدولة .

– الدولة اليوم في امن ، واذا اكفهر الجو اليوم صفا غداً ، بفضل امير المؤمنين الذي لا يغفل عن شيء .

– وهؤلاء الخوارج الذين يحملون السيف في كل قطر ؟

– يكسر الخليفة سيوفهم ثم يحطم الرؤوس .

قال : تعود امير المؤمنين ان يدعو قواد الجيش يستشيرهم في امر الحرب .

– ذلك ما يفعله كما تعلم .

– ولكن مضى زمن ولم يفعل .

– لقد آثر الاحتجاب بضعة ايام بعد موت ابنه جعفر ، ولكنه لم يترك العمل ، فهو يفكر في ملكه ، ويعزل هذا ليولي الآخر دون ان يستشير احداً .

– انه يكتفي برأيك ورأي المهدي .

– اجل ، هو يريد ان يكون لولي عهده رأي في كل ما يفعل ، وقد امر حاجبه امس ، بان يدعو اليه المهدي اليوم، ليشاوره فيما لا نعلم .

– وانت ؟

– اما انا فقد كنت امس في مجلسه ولم يأمرني بالرجوع اليه .

قال : يخطر لي أن استأذن عليه الساعة ..

– لماذا ؟

– لاعرض عليه سيفي .

فضحك الوزير وقال : يا ابا محمد ، أأنت عدو امير المؤمنين لتعرض عليه سيفك ، أم انت من قواده يبعث بك الى حيث يشاء ، عندما يشاء ؟ وهل تظن ان المنصور لا يعلم انك ببغداد وان سيفك في يدك يضرب به عند الحاجة ويغمده عندما يبلغ الغاية ؟ وماذا تقول له ، أتقول انك من عبيده وهو يعلم ذلك ولا يشك فيه ؟ والله لم اجد فيما خطر لك شيئاً من الحكمة والرأي ..

لقد اراد خزيمة ، في تلك الساعة ، ان ينتهي في حديثه الى ذكر جعفر ثم يسأل ابا ايوب رأيه فيه ..

على انه كان يعلم ، ان الوزير لا يستطيع ، ولو اثنى على كاتب ديوانه ، ان يدله على نسب هذا الكاتب ، او يذكر له اسم ابيه .

اذن فمن الرأي ان يخلق سبباً ، يحمل الوزير على الرضى ، بان يمثل معه ، بين يدي امير المؤمنين .

ثم يحتال ، ويدور حول امير المؤمنين ، دورة يستطيع معها ان يسأله عن نسب جعفر .

ولكن خزيمة ، لا يستطيع ، ان يقص على المنصور حكاية الرق الذي يحمله كاتب الديوان ، وابو ايوب في مجلسه .

ان امر الرق يجب ان يظل سراً من اسرار جعفر وعلى الخليفة ، وخزيمة ، وآل خزيمة ، ان يدفنوا هذا السر في الصدور ..

ذلك ما كان يتردد في صدر ابن خازم ، وقد تحير عندئذ في امره ، ولم يجد له وجهاً آخر يلجأ اليه .

وبينا هو في حيرته ، وابو ايوب يبتسم ابتسامة الدهاء ، اقبل ابو العنبر ، احد خدم المنصور يقول للوزير : يأمرك امير المؤمنين ، بأن توجه اليه كاتباً من دوانك ، يكتب له شيئاً ...

فأشرق وجه خزيمة وقال : ارى ان تبعث اليه جعفراً .

قال : هو ذاك .

ونادى جعفراً فقال له : ان امير المؤمنين يطلب كاتباً يكتب له رسائل خاصة ، فكن انت ذلك الكاتب ، ولا تنس يا بني ، ان مجلس امير المؤمنين ، غير مجلس ابي ايوب .. أفهمت ؟

فحنى الفتى رأسه قائلاً : نعم يا مولاي !

وخفق قلبه ، خوفاً .. وفرحاً ..

لقد ساعده القدر ، في المثول بين يدي المنصور ، دون ان يسعى الى الامر او ينقل اليه قدماً .. ولكن أيجسر على ان يوجه اليه ذلك السؤال الذي يفكر فيه ؟

وظل مطرقاً وقلبه يضطرب ، فقال ابو ايوب : خذ ما تحتاج اليه من قلم ودواة وغير ذلك وانصرف الآن .

فنظر الى ابي عاتكة نظرة طويلة كأنه يقول له : ان الموقف صعب ..

ثم خرج ، وابو العنبر امامه حتى وقف بباب المجلس فقال الخادم : الكاتب بالباب يا امير المؤمنين .

فأومأ اليه بأن يأذن له ، ولم ير المنصور جعفراً من قبل .

فلما دخل وسلم ، جعل المنصور ينظر اليه بهدوء ، قبل ان يأذن له في الجلوس ،

ثم قال وهو يتفرس فيه : هنا ، هنا وأشار الى وسادة بالقرب منه .

ولم يبد على وجهه شيء من الاضطراب . فجلس جعفر وهو يبتسم بأدب وتلك هي المرة الاولى ، التي دخل فيها مجلس الخليفة ، ورآه وجهاً لوجه ..

ولم يكن في القاعة غير الربيع حاجب المنصور .

ثم قال الخليفة : أتحسن الكتابة ايها الفتى ؟

– سيرى امير المؤمنين ان الوزير ابا ايوب احسن الاختيار ...

– وانت من كتاب الديوان ؟

– نعم يا امير المؤمنين ، وقد مر علي وانا في خدمتك زمن ليس بالقصير .

فأحس المنصور بأنه يميل الى هذا الكاتب الغريب الذي ارسله اليه وزيره ، وانه يرتاح الى النظر اليه ، فقال : أتحب ابا ايوب ؟

– اجل فهو ولي نعمتي بعد امير المؤمنين، وهو الذي جعلني في ديوان الخلافة اعيش بفضل الخليفة وابذل حياتي من اجله .

فضحك المنصور ، وهو الذي لا يضحك لجلسائه ، ثم قال : واي شيء امـلى عليك ان تبذل حياتك من اجلنا ؟

– ان في الصدر عاطفة تملي علي ما قلت .

– ذلك ما نسمعه كل يوم ، من رجال الدولة ورجال القصر ..

– اما انا فلم اقل ذلك الا الآن ، وسيرى امير المؤمنين اني اصدق الناس في خدمته واشدهم اخلاصاً له ..

– ومن علمك هذا الاخلاص ؟

– قلت لأمير المؤمنين ان في صدري عاطفة علمتني اياه ..

– انه رياء يلجأ اليه جميع القربين ونحن لا نصدقه ..

– ليس لأمير المؤمنين الا ان يلمس اخلاصي بيده .

قال : اذهب وارم بنفسك في دجلة .

– افعل ان شئت ، ولكن اي نفع للخلافة من رجل تكون ميـــاه دجلة قبراً له ؟

فرأى المنصور وجهاً مليحاً ولساناً فصيحاً ... وأيقن عندئذ بأنه يحبه الحب كله ، ويستعذب الالفاظ التي ترددها شفتاه .

وذلك هو مظهر غريب في حياة المنصور ، خليفة رصين جليل .. تملأ هيبته قـــلوب العرب ، وتنحني في مجلسه رؤوس العظماء ، وهو لا يضحك لاحد ولا يصغي الا الى حديث السياسة والملك ...

خليفة حازم بطاش ، الدنيا كلها لا تتسع لمطامعه ، والارض وما عليها ملك له ... ولم يقم في بني العباس خليفة اعظم منه ... ان هذا الخليفة يبتسم لفتى من فتيان الديوان ، ويصغي الى كلماته الجوفاء ، ثم يسأله ويجاريه في حديث لا معنى له !!

ان في هذا لعجباً ... ولو دخل أحد الوزراء في تلك الساعة ، لقام في ذهنه ان امير المؤمنين قد جن ...

وأي خاطر خطر للخليفة العظيم ، في ذلك الحين ؟

أكان مطمئنا الى احوال دولته ، راضيا عن عماله في الاقاليم ، لا تعكر صفو عيشه ثورة .. ولا يشغله عصيان ؟؟

ام تراه ، وهو في بلاط الملك ، لا يهتم الا للهوه ، ولا يطيب له الا ان يجالس الفتيان والندماء .. ؟

لا ، لقد كان الهم يملأ قلب المنصور.. وكانت الدولة كلها ، رجالها ، وجيشها ، وعمالها واقاليمها على رأسه ، وهو ينظر ليله ونهاره في شؤون الناس لا تبقى له ساعة يتنفس فيها همه .

ولكن هموم الملك لم تمنعه ، في تلك الساعة ، من الابتسام لكاتب ديوانه ، والاصغاء الى ما يقوله له ..

ذلك سر لم يستطع المنصور نفسه ان يعرف أسبابه ..

لقد قال له جعفر : اي نفع للخلافة من رجل تكون مياه دجلة قبراً له ، وهو قول حق ، اعجب المنصور وارتاحت له نفسه .

ثم رأى ان يمعن في الاختبار ، فقال : ان امير المؤمنين ، عزل جابر بن توبة

عن البصرة ، واستعمل عليها يزيد بن منصور ، فاكتب امر العزل ، وامر التولية.
فكتب جعفر الكتابين لم يتردد فيهما ، فلما قرأهما الخليفة قـــال في نفسه : كاتب حاذق ، ثم قال :
اكتب ايضاً ، وذكر له غرضه ، ففعل ما امره به والمنصور يزداد اعجابا به .
حتى انقضت ساعتان وهو يكتب ، فقال له : ما اسمك ؟
- جعفر يا امير المؤمنين .
- من اي بلد انت ؟
- من الموصل .
فجعل يقول : من الموصل .. من الموصل ... واسم ابيك ؟
فارتجفت شفتا جعفر وقال : هذا سؤال لا استطيع الجواب عنه .
- لماذا ؟
- لاني لا اعلم اسم أبي ..
- وكيف ذلك ؟
فقص عليه جعفر قصته ثم قال : وان معي رقا يا امير المؤمنين امرت بان اسلمه اليك .
ودفع اليه ذلك الرق المحجب بالاسرار ..
فجعل يقلبه بين يديه وهو ينظر الى جعفر ، ثم يعيد قراءة تلك الكلمة التي وردت فيه ، وقد اكفهر وجهه .
وجعفر يقرأ السطور التي تبدو على ذلك الوجه ...
ثم قال المنصور : وماتت امك ؟
- لا يا امير المؤمنين ، انها في الموصل ..
- قلت انها طلبت اليك ان تسلم الرق الى صاحب الامر .
- نعم ، وصاحب الامر هو أمير المؤمنين ..
- ومن اين لنا ان نعلم غايتها من ذلك ؟
- لا تسألني يا امير المؤمنين عما لا اعلم .

– وهي تجهل أباك ؟
– تجهل اسمه ، فقد كان متنكراً خائفاً لا يبوح لاحد بذلك الاسم .
فحول وجهه عنه وجعل يقول: لو كان في الأرض نبي لسألناه عن ذلك الزوج الذي لا تعرفه زوجته ... نعم يا بني ، انه لغز لا يحله غير الانبياء .
ثم التفت اليه فجأة وقال : انصرف الآن الى عملك فسننظر في امر هذا الرق مرة اخرى ثم ندعوك .
وكانت عيناه تلمعان ، فنهض جعفر دون ان يقول كلمة ، ثم انحنى فقبل رداء المنصور وهم بان يتراجع حتى ينتهي الى الباب .
غير ان المنصور مد اليه يده قائلاً : نعطيك يدنا لتقبلها كما نفعل مع المهدي واخوته .
فلما قبلها قال : اخرج واذا عرض لك شيء فاستأذن علينا .
ثم قال للربيع : يدخل علينا هذا الفتى عند ما يشاء فلا تمنعه .
– نعم يا امير المؤمنين .
فخرج جعفر وهو يقول في نفسه : ليس المثول بين يدي المنصور صعباً كما يقولون .. انه بعيد عن الكبرياء ، قريب الى القلب ، وانا اشعر اني احبه اكثر مما أحب أبا ايوب ..
ولكنه لم يستطع ان يفكر في امر الرق . ذلك لان الخليفة لم يقل له كلمة فيها أمل .
غير انه كان قد اطمأن الى ان المنصور سينظر في الامر ثم يدعوه ، وهذا يكفي ..
افلا يرضى جعفر بان يتولى امير المؤمنين نفسه امر النظر في نسبه ؟
انها نعمة من الله وقد تعود الفتى ان يشكر ولي النعم .

* * *

– ٥٠ –

ماذا فعلت ؟

قالها ابو ايوب لجعفر وخزيمة في الديوان .

فقال : امرني فكتبت رسائل كثيرة الى البصرة وخراسان ومصر .

– رسائل تولية وعزل ؟

– اجل وبينها رسائل نصيحة وتهديد .

وأمرك بالكتمان ؟

– لا ، ولكنه امر الربيع حاجبه بان يأذن لي في الدخول عليه عندما يخطر لي .

– عندما يخطر لك ؟!

– نعم !

– انت يا جعفر ؟!

– انا !

فقال لخزيمة : اسمعت ، ان الوزراء والقواد لا يجسرون على الدخول الا اذا اراد المنصور ، وجعفر يدخل عندما يريد هو .. أصحيح هذا ؟

– ان جعفراً لا يكذب ..

– ولكن الامر يحتمل التفكير .

– واي تفكير في كلمة يقولها امير المؤمنين ؟

– أردت ان اقول ان جعفراً امسى من اقرب الناس الى المنصور وقد يصبح بعد قليل من وزرائه ..

وابتسم ابتسامة صفراء بان الحسد بعدها في عينيه .

فقال جعفر: رأى امير المؤمنين فتى غريبا مخلصاً فعطف عليه .

– هو ذاك ، وانك اهل لعطف الخليفة .

وانتقل مع خزيمة الى حديث آخر لا شأن لجعفر به . ولكن الناظر اليه ، كان يرى على جبينه دلائل الاهتمام .

***

في ذلك المساء دخل جعفر منزل خزيمة وعاتكة واروى في قاعة الجلوس ، وقد قص عليهم القائد خبر دخول الفتى على المنصور .

فلما رأى جعفر عاتكة ، احمر وجهه ، ثم سلم بخجل وجلس.

فقال خزيمة : اخبرنا بما رأيت .

قال رأيت خليفة يقرب جليسه اليه ويبتسم له .

قال : عجبا ، ان المنصور لا يعرف الابتسام في مجلسه ولا يجسر احد من وزرائه واعمامه وابنائه وقواده ، على ان يبتسم وهو حاضر .

– ومع ذلك فقد حدثني واطال وكان ينظر الي والابتسامة لا تفارق شفتيه حتى احسست اني من احب الناس اليه .

– ودفعت اليه الرق ؟

– نعم ولم يشأ ان يعيده اليّ .

– وماذا قال ؟

– قرأه بامعان ثم قال : من اين لامير المؤمنين ان يعرف رجلاً تجهله زوجته؟

– ولم يقل شيئاً آخر ؟

– بلى ، وعدني بأنه سينظر في الامر ثم يدعوني اليه .

– وعندما خرجت ؟

– اعطاني يده فقبلتها ثم قال للربيع : يجب ان تعلم ان بابنا مفتوح لجعفر فهو يدخل علينا عندما يشاء .

فخفق قلب خزيمة وكان يقول في نفسه : ذلك شأن المنصور مع بنيه ...

ولم يجسر على ان يتمادى في ظنونه ... ثم قال : اذن فأنت اليوم من خاصة امير المؤمنين كما يقول ابو ايوب .

قال : لي كلمة اريد ان اقولها وانا خائف .

– قل ولا تخف .

– ألم ترَ ابا ايوب قد تغير ، عندما نقلت اليه حديث امير المؤمنين ؟

– بلى رأيت ذلك وتظاهرت بأني لم أر .
– وكانت لهجته لهجة جفاء ...
– اصبت ، غير ان الحكمة تقضي عليك يا بني بان تتجاهل الامر .
– ولكن اي شيء دعاه الى مثل هذا ؟
– ذلك امر لا يعرفه غير الوزراء ...
فقالت اروى : اما انا فقد علمت .
– ماذا ؟
– يخاف ابو ايوب ان يسلبه جعفر منصب الوزارة ..
– وكيف ذلك ؟
– يحب امير المؤمنين جعفراً ، ثم يقربه اليه ... ثم يجعله على رأس ديوانه ... فيضمحل نفوذ ابي ايوب ويزول سلطانه ..
فضحك خزيمة قائلاً : اتسلب ابا ايوب نعمته يا جعفر ؟
– خير لي ان اضيع نسبي ، واخسر حياتي ، من ان امد الى المحسن إلي يد سوء .. اني لم افكر الا في هذا النسب الذي تعلم ..
غير ان ابا ايوب سينظر اليك من جديد نظرة ريب .
– واي ذنب لي ؟
– ذنبك انك دخلت على المنصور وابتسم لك .
وضحك ثانية ضحك الهازل المطمئن .
فقال جعفر : إنك تهزأ بي ؟
فلم يجب .
فقالت اروى : اخشى ان يمسي هذا الهزل غداً حقيقة رائعة .
– ان الوزير يحبني كما يحب اخاه خالداً وبني اخيه .
– ولكن هذا الحب سيصير بغضاً .
قال : عندما ينتهي الامر الى مثل ما تقولين ألجأ الى المنصور .
– ولابي ايوب رجال عند المنصور يغيرونه عليك .

- ويصنع ماذا ؟
- يعزلك عن عملك ثم يأمر بنفيك .
- ما ابالي بكل هذا اذا عرفت ابي .
- قـد يكون ابوك من اعداء الخليفة ...
- بل هو من انصاره ..
فاستأذنت عاتكة اباها ثم قالت : ارى ان المنصور عرف ابا جعفر ..
- اتظنين ؟
- بل انا واثقة، ولو لم يكن الامر كذلك لما ابتسم لجعفر ولما اباح له الدخول عليـــه .
قالت : كان عليه اذن ان يذكر للفتى اسم ابيه .
- ان الذي يراه الخليفة لا نراه نحن.. وقد يكون له رأي، ثم قالت لجعفر: على اي مقعد اجلسك المنصور ؟
- استدناني حتى انتهيت الى المقعد الذي يحاذيه .
- وجعل يتفرس فيك ؟
- فعل ذلك بعد ان قرأ الرق .
فرفعت صوتها قائلة : اذن فأبوك من بني هاشم .
فاضطرب الفتى ، وجعل ينظر الى خزيمة كأنه يسأله رأيه .
وكان خزيمة من رأي عاتكة ، ولكنه لم يرد ان يبوح بما في صدره ، فقال : اي خاطر خطر لك يا بنية
- خطر لي ان ابا جعفر هاشمي .. بل يخطر لي انه من ابناء البيت المالك
قال : كفى كفى .. انك تنتقلين من ظن الى آخر .
- لقد أذنت لي فقلت .
قال : مهلاً ولا تستسلمي الى الاحلام ..
- انت تعلم اني لم استسلم قط الى حلم .
- كنت كذلك من قبل .

– واليوم ؟

– اما اليوم، فعندما سمعت ان المنصور استدنى جعفراً ، ايقنت بأنه احبه، وفاتك ان المنصور يقرب اليه الناس ويبعدهم كل يوم، وذلك هو شأنه مع رعيته .

ثم قال :

وقد يدخل الفتى عليه غداً فيأمر باخراجه كأنه من المجرمين ..

– ولكني كنت اسمع منك غير هذا .. كنت تقول ان المنصور لا يتغير على المقربين اليه الا لذنب.. ولو لم ير ، وهو في مجلسه ، ان جعفراً أهل لحبه لما أخذ الرق منه ووعده بان ينظر فيه ولما امر الربيع بما سمعت ..

فكفكف الفتى دمعتين سقطتا على خديه .

فقال خزيمة : ما الذي يبكيك يا جعفر ؟

– هذا الامل الذي بعثت به الى الصدر ابتسامة المنصور لي .

– انه امل يفتح لك باب الرجاء .

– ولكني اخشى ان يضيع .

– لم يبق الا ان تصبر ريثما يدعوك المنصور اليه .

– وان لم يفعل ؟

– دخلت عليه انت وطلبت اليه ان يحدثك بأمر الرق ...

قال : ألم تقل الآن أنه يتغير فجأة على خاصته ؟

فقالت عاتكة : ان ابي سيلمس تغيره ...

فابتسم خزيمة قائلاً : ما معنى هذا ؟

– معناه انك ستدخل يوماً على المنصور وتقرأ ما في نفسه .

– انا يا بنية ؟

– اجل فجعفر لا يستطيع ان يخاطب الخليفة كما تخاطبه انت

– اذن فانت تريدين ان يطرد الخليفة أباك من مجلسه ..

– ولم ذلك؟

– لانه سيحدثه بأمر لا يعنيه .

- أردت أن أقول أنك ستقرأ اسراره دون ان تذكر جعفراً .
- اي أني ادور حوله دورة دهاء وحيلة .
- هو ذاك !
- وانتزع سره من صدره دون ان يشعر ..
- نعم !

فقهقه ضاحكاً ثم قال : يخيل الى عاتكة ان اباها يستطيع ان يخدع المنصور ويدفعه ، بالقليل من الدهاء ، الى الافضاء بسره .. ان الخليفة يا بنية اعظم مما تظنين ، ولك ان تقولي انه ادهى العرب ، واعظم الرجـــال الذين تولوا خلافة المسلمين.. جريء لا يعرف لجرأته حد ، وحكيم لا تجدين في المسلمين رجلاً أبعد نظراً منه، وسياسي يشتري ، بالقسوة او باللين ، اخلاص الرجال المقيمين ببغداد وخارج بغداد .. وهو يعرف جليسه بعد أول جولة ثم يأخذ منه ولا يعطيه ..

وهم بأن يمعن في وصف المنصور ، فقالت له : اعرف ان الخليفة سيد الحكماء وسيد الدهاة ، ولكني ارجو ان تصغي الى مـــا اقوله دون ان تعرض لدهاء المنصور وبعد نظره .

- قولي .
- لقد آمنت الآن بان جعفراً هاشمي ، وقد عرفه المنصور .
- ذلك ما خطر لك .
- ولكنه الواقع، وستعلم بعد قليل ان المنصور الداهية لم يضع يده على ذلك الرق ، الا لأنه عرف كاتبه .
- لقد قلت ذلك منذ ساعة .
- واقوله الآن ، فاذا طاب لك ان تتبين ما في صدر المنصور ، فادخل عليه غداً او بعد غد ، واذكر له ابا ايوب ، واخلاصه له ..
- وبعد ذلك ؟
- سترى بعد ذلك انه سيقص عليك حكاية جعفر دون أن تسأله .

فقالت اروى : اصابت عاتكة فالمنصور يعلم الآن من هو جعفر .

— بل يعلم انه من اهل بيته ، وهذا ما يحدثني قلبي به .
ولمع الحب في عينيها الصافيتين .
فاكتفى خزيمة بما سمع ، وعول على ان يفعل ما اشارت عليه به .
وجعل ينظر الى الفتى نظرات الحب . والكآبة عل جبين جعفر وفي عينيه.

* * *

- ٥٢ -

اصبح خزيمة ، وهو اكثر شوقاً من العاشقين ، الى الاطلاع على نسب جعفر.
وعول على المثول بين يدي المنصور في ذلك اليوم .
غير انه كان ينتظر جلوس الخليفة للمظالم ، على عادته التي لا تغيرها الحادثات.
ولم يلبث حتى عرف أن الربيع اذن للناس .
فدخل وسلم ، والمنصور يتفرس فيه ، ثم قال له : ألك حاجة ايها القائد ؟
— لا يا امير المؤمنين وانما دخلت لاسمع الحكمة من فمك .
قال : نحن في زمن لا توجد الحكمة فيه ، الا علـى شفار السيوف .. مالك وللرياء يا ابن خازم .. اذكر حاجتك .
— ليس لي حاجة يا امير المؤمنين .
فابتسم المنصور وقال : اجلس فسننظر في امرك بعد ساعة .
وجعل يقضي حاجات الناس والمهدي بين يديه .
حتى خرج آخر مظلوم من مجلسه ، فالتفت الى خزيمة قائلاً : والآن ..
— اما الآن فاذا اذنت لي انصرفت ..
— اي انك لا تسألنا شيئاً ..
— قلت لأمير المؤمنين اني جئت لاشهد مجلسه ليس غير .
ولكن امير المؤمنين سألك عن اشياء كثيرة .
وحول نظره عندئذ الى المهدي، فاستأذن ولي العهد وخرج، فقال المنصور : يا ابن خازم ، ألك صلة بجعفر كاتب الديوان ؟

فاضطرب خزيمة لهذا السؤال يفاجئه به المنصور ، ولكنه تجلد ، وحاول ان يخفي ذلك الاضطراب .

وكان يعلم ان الكذب ينتهي به الى ما لا يحب، فقال : اعرفه يا امير المؤمنين وقد زارني اكثر من مرة .

– اذن فهو صديق لك .

– قد يكون كذلك .

– وكيف عرفته ؟

– دخل منزلي مرة مع ابي ايوب .

– وجعل يدخله بعد ذلك وحده ..

– نعم يا امير المؤمنين .

– وما هي غايته ؟

فتردد خزيمة في الجواب .. ثم قال : انه عاشق يا امير المؤمنين .

– وعاتكة ؟

– وعاتكة عاشقة ..

– وانت راض عن الاثنين لا تقول كلمة ؟

فلم يدر خزيمة عندئذ ماذا يقول .

لقد كان يخشى، ان يكون المنصور غير راض عن جعفر .. وقد يكون راضياً عنه ، أفيظهر هو رضاه عن غرام العاشقين ام يلعن هذا الغرام ..

وقرأ المنصور ما في نفسه ، فقال : هات يا ابن خازم ، فقال : ارضى اذا رضي امير المؤمنين ..

قال : دهاء لا صراحة فيه .. قل غير هذا .

– وانا آمن يا امير المؤمنين ؟

– وانت آمن !

قال : لو لم يكن هنالك ما يعيب جعفراً لكان خير الفتيان .

– وما هذا الذي يعيبه ؟

– ان الفتى يا امير المؤمنين لا يعرف أباه .

– وامه ؟

– امرأة من الأزد .

– ليس عليه الا ان يسأل امه فيعرف كل شيء .

– لقد فعل ، غير ان المرأة تجهل مثله اسم ابيه .

– وكيف ذلك ؟

– يظهر ان الوالد ، كان يحمل ، عندما تزوج المرأة ، اسماً غير اسمه ، بل يظهر انه لم يكن له اسم ، وقد تنكر ليخفي شخصيته ، وهذا غريب .

فجعل المنصور يردد : غريب غريب ... ثم قال :

اجل ، ذلك ما يبدو لنا من امر ذلك الزوج وقد يكون له عذر ، ولكن ... ايطيب لك ان تزف الفتاة الى جعفر وهو على ما ذكرت ؟

قال : اذكر يا امير المؤمنين انك امنتني ..

– أجل فقل ما شئت .

قال : ستزف عاتكة الى الفتى عندما يذكر لي اسم أبيه .

– واذا عجز عن ذلك ؟

نهيت ابنتي عن هذا الغرام الذي لا خير فيه .

فتنهد المنصور قائلاً : مسكين فهو عاجز عما قلت .

– ولكن صاحب الامر في الدولة غير عاجز ...

– ومن هو صاحب الامر ؟

– هو الخليفة العظيم ابو جعفر المنصور ..

– انا ؟

– نعم انت يا امير المؤمنين .

قال : حدثنا بجلاء .

هذا هو الجلاء يا مولانا وقد امرتني بان أقول ما اعلم ، فامتثلت وامري الآن وامر جعفر بين يديك .

– افلا تقول شيئاً آخر ؟
– بلى ، اقول ان الكلمة التي كتبها ذلك الوالد الضائع هي في يدك ..
– ومن قال لك هذا ؟
– جعفر !
– اذن فبينك وبين جعفر حديث خاص .
– نعم يا امير المؤمنين وقد سألني ان ازف عاتكة اليه .
– ورضيت به صهراً لك ؟
– وكيف أرضى والأمر كما تعلم . . اني بانتظار الكلمة التي يقولها امير المؤمنين بهذا الشأن .

فاطرق المنصور ملياً ثم قال : افلا يجوز لك ان تظن ، ان ام جعفر خدعت ابنها فيما ذكرته له ؟

– لقد سلمت اليه الرق المكتوب يا امير المؤمنين .
– اجل ولكنها طلبت اليه ان يدفعه الى صاحب الامر في دولة بني هاشم ، افلم يكن جعفر قادراً على تسليمه الى امير المؤمنين السفاح من قبل ؟
– كان جعفر صغيراً يا مولاي .
– واي شيء يثبت لك ان الوالد المجهول امر زوجته بان تسلم الرق الى صاحب الامر في الدولة ؟
– ذلك ما تقوله أم جعفر .
– صحيح ، ولكننا نظن انها كاذبة ..
– ان امير المؤمنين يعلم ما لا اعلم .
– تريد ان تقول ان امير المؤمنين يعرف الرجل .

قالها وتظاهر بالغضب ، فقال خزيمة : بل اردت غير ذلك يا امير المؤمنين .

– ماذا ؟
– تستطيع ان تقول لجعفر ، اليوم او غدا ، انك لا تعلم شيئاً من امر ابيه فينتهي كل شيء .

قال : بقي عليك يا ابن خازم ان تعلم امير المؤمنين ما يجب ان يقوله ...

– ليس لي يا مولانا غير غاية واحدة اذكرها لك وانا ارجو ان تصغي الي او تطردني من مجلسك .

– قل !

– ان الفتى يعيش اليوم بالامل ، فخير له ان يسمع كلمة امير المؤمنين بشأن ابيه ، من ان يتردد بين امله ويأسه ثم يموت .

– يموت...

– نعم يموت ، وهو يحمل الى قبره خيبة الرجاء .

وجعل يتفرس في عيني المنصور ليقرأ سره .

وقد خيل اليه عندئذ ان في تينك العينين بريقاً غريبا قد يكون مظهراً من مظاهر الشفقة والحب .

ثم خيل الى خزيمة ان شفتي الخليفة ترتجفـــان ، ثم سمعه يقول : لا نريد ان يموت الفتى .. يجب ان يعيش ..

– وكيف يعيش يا امير المؤمنين وهو يرى فتيان بغداد يفاخرون النـــاس بالرجوع الى انسابهم ولا نسب له ؟

– سنجد أباه ان شاء الله .

– وانت واثق يا امير المؤمنين ؟

– يكفيك ما سمعت .

– وقضية الزواج ؟

– لا تقل له الان شيئاً .

– إذن ارده ...

– قلنا لك اننا سنجد أباه افلم تفهم ؟

– اذن اعده بان عاتكة ستسمى زوجة له .

– افعل ما شئت .

– بل افعل ما يشاء امير المؤمنين ، قل كلمتك يا مولاي .

– نقولها عندما نضع يدنا بيد الوالد الضائع .. انصرف الآن .
– وتأذن لي في الرجوع مرة ثانية ؟
– ارجع عندما يطيب لك .
وغادر المنصور قاعة المجلس وعيناه تنظران الى الارض .
فخرج خزيمة وهو يقول في نفسه :
ان والد جعفر في قصر المنصور ..

* * *

كانت اروى وعاتكة في رواق المنزل عندما اقبل خزيمة، وقد قرأتا الطمأنينة والبشر في عينيه الصافيتين .

اجل ، كان القائد يبتسم عندما دخل ، وتكاد الالفاظ تخرج من شفتيه ، وضم عاتكة الى صدره قائلا : اصبت فيما خطر لك يا بنيه ، فوالد جعفر يعرفه المنصور .

فتلجلج صوتها وجعلت تقول : من هو .. ما اسمه يا ابي ؟
– سيذكر لنا امير المؤمنين هذا الاسم .
– وماذا قال لك ؟

فقص عليها ما جرى بينه وبين المنصور ثم قال : خيل الي ان الوالد المجهول يقيم بقصر الخلافة .

فقالت اروى : وقد يكون من ابناء عم امير المؤمنين .
– ليس ذلك بغريب ، فقد كان المنصور يعطف في حديثه ، على جعفر ، وتتلألأ عاطفة الشفقة في مقلتيه .

قالت : متى رجعت من القصر ؟
– في هذه الساعة .
– ومررت بالديوان ؟
– لا ، فقد خفت ان يظن ابو ايوب الظنون .
– ولكن جعفراً بالانتظار .

ـ سيعلم بعد حين اني عدت فيجيء .
وبينما عاتكة تهم بالكلام ، استأذن جعفر ودخل .
فقال خزيمة : عولت على المرور بالديوان ثم تراجعت .
ـ لماذا ؟
ـ لاني لا اريد ان يمعن ابو ايوب في ظنونه .
قال : تخافون ابا ايوب وانا لا اخافه .
ـ نخافه عليك .
ـ وبأي شيء اسأت اليه ؟
ـ لم تسيء الى احد ، ولكنها عادة الوزراء والمقربين ..
ـ وتأذن لي الآن ان اسألك عما فعلت ؟
ـ رأيت المنصور يهتم لأمرك وسيدعوك بعد يوم او يومين ليتحدث اليك بما يخطر له .
ـ ولم يقل لك شيئاً ؟
ـ سيسأل عن أبيك ، ويذكر لنا اسمه ..
ـ اي انه لا يتردد في البحث عنه ؟
ـ اجل ، واذن لي في الرجوع كما اذن لك .
فطابت نفس الفتى وقال : انها خطوة الى الفرج ان شاء الله .
فجعلت عاتكة تقول : ان شاء الله ... ان شاء الله ..

فضحك خزيمة ثم قال : وان لم يشأ الله ان يمد اليك يد الفرج ...
ـ لا يبقى عندئذ الا ان اقتل نفسي ..
ـ ذلك ما قلته لامير المؤمنين .
ـ وبماذا أجاب ؟
ـ قال انه يريد ان تعيش .
ـ وأنت ، ماذا تقول ؟
ـ ما يقوله امير المؤمنين

فرأت عاتكة ان تغادر القاعة لتفسح مجال الكلام للحبيب .
واحتجبت على عادتها وراء الجدار تصغي الى ما يقال
وكان جعفر يقول : اذن تريد ان اعيش يا مولاي .
– بل اريد ان تمسي يوماً سيد المقربين الى الخليفة .
– حسبي انك انت والخليفة راضيان .. ولكن اتجود علي اليوم بما بخلت به بالامس ؟
– اتعني الوعد بالزواج ..
– نعم فالدنيا تضيق بي ، وهذا التردد يبعث الكآبة الى نفسي .
قال : ستسمع كلمتي الاخيرة بهذا المعنى ، عندما يقول الخليفة كلمته .
– يكفي ان الخليفة يعطف علي كما قلت .
وانا اعطف عليك مثله وابذل من اجلك ما اطيق بذله ... ولكنك تعلم يا جعفر ان العطف والحب شيء ، والزواج شيء آخر ...
ثم قال : ما اسم امك ؟
– عائشة .

قال : خير لك ان تنقل امك الى بغداد .
– والغاية من ذلك ؟
– ان نسألها عما يخطر لنا من أمر ابيك .
– وافعل ذلك دون ان استأذن امير المؤمنين ؟
– اي شأن لأمير المؤمنين بهذا .. تدعو امك الى بغداد ، وتقيم معها في بيت واحد كما يفعل جميع الناس .
قال : لقد عرضت امري على امير المؤمنين ، ووعدني كما وعدك بان يكون عوناً لي دون ان يأمرني بما تشير عليّ به .
– اذن فانت تخشى ان ينكر عليك ما فعلت .
– نعم واني سأستأذنه في الامر عندما امثل بين يديه .
وعاد الفتى الى حديثه فقال : عدني بكلمة يا مولاي .

– لا اقول هذه الكلمة الا بعد ان يذكر المنصور اسم ابيك ولست براجع. اجل ، قد يكون ابوك من صعاليك الناس ، ولكن هذا لا يمنعني من ان ازف عاتكة اليك .

فأطرق ملياً ثم قال : رضيت وسأنتظر .

– وانا راض فانصرف بحراسة الله ، واعلم ان الحسد سيدب في صـــدر ابي ايوب ، فاحذر ، واذا رأيت تغيراً منه فخبرني ..

فنهض قائلاً : اشكر لك هذه العناية وانا مؤمن بأن ابا ايوب سيبقى عـــلى عهـده .

خرج وهو يقول في نفسه : وفق الله امير المؤمنين فيما يصنع .

* * *

بينا جعفر يكتب في الديوان اقبل حماد التركي احد خدم المنصور يدعوه الى مجلس الخليفة ليقوم بكتابة رسائل له .

فأمر ابو ايوب جعفراً بالذهاب .

فمشى جعفر ، والامل الذي يتردد في صـدره يطل من عينيه ، حتى اصبح بين يدي المنصور .

فمد المنصور اليه يده فقبلها ثم أمره بالجلوس وجعـــل يقول له : اكتب الى عمالنا هنا وهناك، وهو يذكر له اسماء هوءلاء العمال ، والغرض من الكتابة ولا يحول نظره عنه .

فلما انتهى قال : كن مؤمنا يا بني ، بان امير المؤمنين سيجد أباك ..

فجثا الفتى عند قدمي الخليفة وجعل يقول : ليحفظ الله امير المومنين ... اني لا استحق هذا .

فحول عندئذ نظره عنه وقال : اذهب الآن وستكتب لنا كل يوم ..

وكان ابو ايوب ينتظر رجوع جعفر والهم يملأ قلبه ، ذلك لانه خاف ان يسلبه منصبه في ديوان الخلافة .

وقد سأله بعد رجوعه عما صنع فقال : يريد امير المومنين ان اكتب له كل يوم .

قال : انك اهل لهذا يا بني ..

ولكن همه امسى اضطراباً وخوفاً بعد بضعة ايام .. فقد طلب المنصور جعفراً في اليوم الثاني ، ثم في الايام التي بعده ، حتى كاد جعفر يترك عمله في الديوان ، وابو ايوب يفكر في الامر ، ونار الحسد تتأجج في صدره .

وعاتكة تعرف ما جرى لجعفر ، والحب ينمو ويشتد ..

وتشتد من الناحية الاخرى كآبة نفسها وهي لا تعلم لذلك سبباً . وقلبها يحدثها بان القدر سيمد اليها يد السوء .

وكان خزيمة يفكر في الذهاب الى البلاط ، غير ان المنصور كفاه موءونة التفكير ، فقد استدعاه اليه ، وامر غلمانه وخلجانه بان يغلقوا ابواب القاعة ويمنعوا رجال الدولة من الدخول عليه .

فقال له الربيع كبير الحجاب : ان مولانا المهدي سيجيء الساعة .

قال : اذا جاء فقولوا له ان امير المؤمنين لا يقابل احداً ، ثم قال : يا خزيمة، أتحفظ سراً من اسرار امير المؤمنين ؟

قال : اعدك بأن الموت لا يستطيع ان ينتزع مني هذا السر .

– وتكتمه زوجتك وبنيك ؟

– نعم يا امير المؤمنين !

– اذن فاعلم ان جعفراً الذي لا تعرف اباه هو ابني !.

فاصفر وجهه قائلاً : جعفر ابنك ؟

– اجل ، فقد سلبنا الله ولداً يدعى جعفراً ثم اعطانا جعفراً آخر .. ان امه تدعى عائشة من بني الازد، وقد تزوجناها يوم كنا ندعو الناس ونحن متنكرون، الى الخروج على بني امية .

– وخبرت جعفراً بهذا يا امير المؤمنين ؟

– لا ! فنحن لا نريد ان يعلم ذلك الآن ، بل لا نريد أن يعلمه احد الا أنت.

– اذن فأمير المؤمنين لم يشأ ان يشرف بثقته غير عبده خزيمة بن خازم .
– نعم ولو لم تكن لك صلة بجعفر لما فعلنا .
قال : أما هذه الصلة يا امير المؤمنين فقد انتهت الآن .
– لماذا ؟
– لقد كانت هنالك صلة بين قلبين ، قلب عاتكة بنت خزيمة ، وقلب جعفر الكاتب في الديوان . ولكن لم تكن لعاتكة صلة بأمير يقال له جعفر ابوه امير المؤمنين .
فابتسم قائلاً : ستبقى الصلة على ما هي ..
– والزواج يا امير المؤمنين ؟
– سيتم باذن الله فأمير المؤمنين يطيب له ان يكافيء قواده المخلصين بمثل هذا الزواج .
قال : ارجو ان لا يهزأ بي امير المؤمنين .
فضربه المنصور بوسادة كانت الى جانبه وهو يقول : في اي زمن كان مجلس المنصور مجلس سخرية وهزء . قلنا لك ان عاتكة ستزف الى جعفر وهذا يكفي . وسيحمل عندما يظهر امره اسم اخيه جعفر الاكبر الذي خسرناه ، لأن اخاه الآخر جعفراً الاصغر حي .
قال : لا يستطيع عبدك خزيمة ان يقوم بواجب الشكر ولكن ارجو ان يعلم امير المؤمنين ان حياتي له ولبنيه .
– نعلم ذلك ولا نشك فيه .
– وهل يخطر لأمير المؤمنين ان يأمر زوجته عائشة بالمجيء الى بغداد ؟
– اجل ، فسندعو جعفراً الساعة ونأمره بالمسير الى الموصل ليحمل امه ، ثم نادى : يا حماد .. أدع كاتب الديوان .
فعرف ذلك الخادم التركي انه يعني جعفراً .
وأقبل جعفر بعد لحظة ، فقال له : أيطيب لك أن ترى امك يا بني ؟
قال : حسبي أن امير المؤمنين يرعاني كما ترعاني امي ..

ـ ومع ذلك فانت تؤثر أن تقيم امك ببغداد أليس كذلك ؟
ـ بلى يا مولاي ، كما اني أتمنى أن تقيم مع ابي بمنزل واحد .
ـ قلنا لك من قبل أننا سنجد اباك .
ـ وانا قد آمنت بما قلت يا مولاي .
قال : أمعك مال ؟
ـ عندي منه الشيء القليل .

فتناول صرة كانت تحت فراشه ودفعها اليه قائلاً : استعن بهذا المال واخرج عند الفجر الى الموصل واحضر امك وخذ من نوق امير المؤمنين الناقة التي تشاء .
ـ وأقول لأمي ان ابي ببغداد ؟
ـ قل لها ان امير المؤمنين يعرف أباك وقد امره بان يضمها اليه .
فنظر الى خزيمة فرأى الابتسامة على شفتيه ، فقال : بقيت لي كلمة يا مولاي .
ـ قل !
ـ أيكون ابي من اشراف الناس ؟
ـ نعم . نعم .. من اشراف الناس .. اخرج وتوكل على الله .
فلما انصرف قال المنصور لخزيمة : لم يبق الا أن يعود مع عائشة فيتم الزواج .
قال : لي رأي يا امير المؤمنين .
ـ ما هو ؟
ـ اخشى أن يتغير ابو ايوب على كاتبه جعفر .
ـ هذا لا بد منه ولكنه اضعف من ان يناله بسوء . أفلا تعلم أن كاتب الديوان الآخر أبان بن صدقة يسعى بأبي ايوب ويطلع امير المؤمنين على ما لا يعلم من امره "
ـ لا اعلم شيئاً من هذا .
قال : قم واحتجب وراء هذا الستر .
ففعل خزيمة ما أمره به .
ودعي أبان بن صدقة ، فقال له المنصور : ما وراءك ؟
ـ ليس هنالك غير ما قصصته أمس على امير المؤمنين .

– اي أن ابا ايوب يرسل الى بعض العمال رسائل ليس لنا فيها رأي .
– نعم !
– ويرفع المقربين اليه ويحط الآخرين دون ان يستشير الخليفة .
– نعم !
– وجعفر الكاتب ، أيحبه ابو ايوب ؟
– كان ذلك من قبل ، أما اليوم فهو كثير الابتسام له ..
– وهذا معناه ان حبه قد زاد !
– لا يا امير المؤمنين ، ان وراء ابتسامات صاحب الديوان حقداً ليس في صدور الرجال أفظع منه .
– وأي شيء يدعوه الى هذا الحقد ؟
– قرب جعفر من امير المؤمنين .
قال: سيخرج جعفر غداً حاملاً رسالة لامير المؤمنين الى بلد قريب من بغداد ، فانظر فيما يصنعه ابو ايوب بعد خروجه .
– فهمت يا امير المؤمنين .
– وانقل الينا ما ترى وتعلم .
– سأفعل !
فأومأ اليه بالانصراف ثم قال : واخرج انت يا خزيمة على ان تكتم النـــاس جميعاً ما رأيت .

* * *

تهيأ جعفر للسفر بعد ان استأذن أبا ايوب .
وقد اراد صاحب الديوان ان يظهر له الحب والاعجاب به ، فضمه الى صدره وقبله وهو يقول : سر بأمان الله وعد بأمانه عز وجل .. ثم قال :
ولكن ما هي غاية امير المؤمنين من سفرك الى الموصل ؟
– لا أعلم من غايته غير رسالة احملها الى عامله اسمعيل بن خالد القسري .

فغمره بنظرات ضاحكة وقال : لو لم تكن اهلاً لثقة امير المؤمنين لما خطر له ان يجعلك اميناً لسره .

قال : الشكر له ولك فأنت الذي قربتني اليه وانا لا أنسى هذا ..

ثم سار الى بيت خزيمة يودع اروى وعاتكة .

وكان خزيمة قد قـــال لابنته : وعدني المنصور بأن يزفك الى جعفر وانتهى الامر ..

قالت : وقضية ابيه ..

– سيعلم الناس بعد زمن قصير من هو ابوه .

– اما انت فقد علمت ..

– لم اعلم اكثر مما تعلمين .

ودخل جعفر ، ففتح له خزيمة ذراعيه وقال : كل مـــالي هو لك وستمسي عاتكة زوجة لك بعد رجوعك من الموصل .

فدمعت عيناه ، وجعل ينظر الى عاتكة دون ان يقول كلمة .

وقد اجابته عاتكة بالدموع .

ثم جعلوا يتحدثون وعرفت أروى وعـــاتكة ان جعفراً راحل الى الموصل لاحضار امه ، فقالت عاتكة :

ويلاه ، ان قلبي يكاد يثب من صدري ، وانا خائفة .

فقال خزيمة : وماذا تخافين ؟

– هذا الرحيل الذي يحدثني بانه سينتهي الى ما لا نحب .

– تلك هي اوهام العذارى .. فتجلدي ان جعفراً سيعود .

– ولكني أرى يداً ممدودة وراءه ..

– انها يد امير المؤمنين تحميه ..

وضحك جعفر ضحك الساخر وجعل يقول : لا تخـــافي يا عاتكة فليس لي عدو ..

وقضى في دار خزيمة ذلك النهار وبعض الليل ، ثم ودع اصحـــابه وهو قوي

الايمان بمستقبله الزاهر .

اما عاتكة فقد شيعته الى الدهليز وهي تتمتم قائلة : يا رب أعد الي الحبيب.

فسمعها فقال : سيعيده اليك ايتها الحبيبة حاملاً كرامته بيديه .

ووثب الى الخارج والدنيا لا تتسع لأمله ، فانثنت عاتكة الى مخدعها تذرف الدمع ، وتغمض عينيها على شبح ملاك الموت يبسط فوق جعفر جناحيه ..

* * *

اغلق الباب يا ربيعة ..

وربيعة عبد من عبيد ابي ايوب ، يقرأ الناظر اليه الشر في عينيه .

فلما فعل قال له صاحب الديوان : أتعرف كاتبي جعفراً ؟

– كما اعرف نفسي ..

– وهل أنت باق على اخلاصك لي ؟

– اني أشد اخلاصاً مما كنت ..

– اذن فاعلم ان الفتى ذاهب الى الموصل لاحضار امه ، وهو يقول انه يحمل رسالة من امير المؤمنين .

– وبعد ذلك ؟

– لا اريد أن يعود بعد ذلك الى بغداد .. أفهمت ؟

فتردد الشقي قليلاً ثم قال : اقسم لك يا مولاي ان هذا الخنجر سيمنعه من الرجوع .

– ذلك شأنك ، فاذهب وكن عند حسن الظن بك .

وعند الفجر ، عندما ترك جعفر بغداد ، تركها ربيعة على ناقة من نوق ابي ايوب ، وجعفر لا يعلم شيئاً .

ثم دعا أبو ايوب اخاه خالداً وقال له : أرأيت ما كان من أمر المنصور وأمر جعفر الكاتب ؟

– وماذا كان ؟

– قربه المنصور اليه حتى انه لا يمضي يوم الا وهو في مجلسه يكتب له اسراره

دون ان يشاورني في شيء ، وانا اخشى ان ينتهي الامر الى عزلي ويتربع جعفر في منصب الوزارة فنمسي عبيداً له .

– وهل تستطيع ان تمنع المنصور من ذلك اذا اراد ان يفعل ؟

– لا ، وانما احتاط لامري وابعد جعفراً .

– ولكن المنصور يقربه على الرغم منك ولو ارسلته الى الاندلس .

فابتسم قائلاً : سيكون المنصور اضعف من ان تصل يده اليه .

– اذن تبعده الى الابد ..

– الى الابد .. !

– ولا تخاف غضب أبي جعفر ؟

– امرت ربيعة بان يسير في اثر جعفر حتى يبلغ مكاناً يستطيع فيه ان يغدر به .

– ثم يرجع هذا العبد فيفضح سرك وتدور الدائرة عليك .

– يفعل ذلك اذا بقي حياً .

– يموت الاثنان ويموت السر معهما ... افعل ما شئت .

– ولا رأي لك فيما سمعت ؟

– ارى ان تحسن الصعود من هذه الهوة ..

– ستعلم بعد قليل اني أحسن ذلك .

وافترق الاخوان ، وقد عرف ابان بن صدقة انهما اجتمعا ، ولكنه لم يعلم الغرض من هذا الاجتماع ، كما انه لم يعلم ان عبد ابي ايوب ترك بغداد ...

* * *

انتهى الاثنان ، جعفر وربيعة ، الى مكان موحش يقال له العرنق .

ولم يكن ابن المنصور قد رأى ربيعة من قبل ، فقال له : ربيعة.. . ما الذي اتى بك ؟

– امرني مولاي بان الحق بك الى حيث تذهب .

– وما هي غايته ؟

- ان يكون وراءك عبد يقضي حاجتك .. !

فقال في نفسه : لو وضعت يدي في يد ابي غداً لما احبني كما يحبني هذا الرجل الصالح ابو ايوب .. ثم قال له :

اني ذاهب بأمر امير المؤمنين ، ولو رأى اني سأحتاج في سفري الى خادم لاحاطني بطائفة من عبيده ..

قال : واي ذنب لي يا مولاي ، امرني ابو ايوب بذلك فامتثلت .

قال : لا بأس فأعد الطعام .

وبعد ساعة اكل الاثنان ثم نام جعفر .

ولكن هذا الجسد الندي ، هـــذا الغصن النضير الذي استسلم الى سلطان الكرى ، امسى بعد لحظة جثة خرساء ..

اجل ، قتل جعفر المسكين ، بطعنة خنجر غـــاص في القلب ، ودفن في حفرة اعدها الشقي الشرير له ..

ولم يلبث ربيعة حتى رجع ، وابتسامة الظفر على شفتيه .

ولكنه رجع ليموت ، فقد غدر به ابو ايوب ليـــلة وصوله ، كما غدر بابن المنصور ..

* * *

ويلاه لقد قتل جعفر !

كلمة رددتها عاتكة ، ووالداها يسمعان .

فقال خزيمة : ما هذه الظنون يا بنية .. ان جعفراً حي وسيعود .

قالت : لو كان حيا لما ابطأ علينا فاسألك بالله يا ابي ان تذكر لوعتي لأمير المؤمنين وتطلب اليه ان ينظر في الامر .

- سأفعل ذلك غد ..

- بل الآن فقد تفطر قلبي وانا احس ان الموت يدنو مني ..

فاضطرب خزيمة ، ثم خرج وهو ساكت حتى اتى امير المؤمنين فقال له :

يا امير المؤمنين لقد طالت غيبة جعفر .

فقال المنصور : هذا ما نفكر فيه . يا ربيع علينا بغلام يسير الى الموصل هذا المساء .

قال : خير الغلمان حماد التركي .

فجعل ينادي : حماد .. عجل يا لعين .

فلما اقبل قال له: تركب ناقة من قبلنا ولا تقف في الطريق حتى تبلغ الموصل، فاذا اتيتها فاسأل عن أم جعفر كاتب الديوان واسمها عائشة من الازد ..

– قل اني فعلت يا امير المؤمنين .

– ثم تسأل عائشة عن ولدها جعفر وتنقل الينا ما نقوله لك . اذهب ، واعلم اننا ننتظر ..

ومكث المنصور بضعة ايام لا يحدث احداً بأمر جعفر والهم يعكر عليه صفو عيشه ، وعاتكة تبكي ليلها ونهارها وأروى تنهاها عن البكاء حتى عاد حماد يقول للمنصور : لا تعرف عائشة من امر ولدها جعفر غير شيء واحد هو انه كاتب في ديوان الخليفة ..

فدعا المنصور خزيمة فقال له : ما رأيك في ابي ايوب ؟ نحن نظن انه قتل جعفراً .

فخفض القائد صوته قائلاً : اذن صدقت ظنون عاتكة فلا حول ولا قوة الا بالله .

فجعلت شفتا المنصور ترتجفان ، ثم دعا حماداً فقال له : كان جعفر يركب ناقة من نوق الخليفة ، فارجع الى طريق الموصل ، وافعل ما تشاء ، وخذ من الجند من تشاء ، على ان تعود الينا ومعك الناقة أو جعفر .

فغاب التركي ثلاثة ايام ثم اقبل فقال : الناقة بفناء القصر يا امير المؤمنين .

– واين وجدتها ؟

– مع غلمان من بني عقيل وجدوها بدورهم عند قبر جعفر بالعرنق .

فتردد البكاء في صدر المنصور ، ولكنه تجلد وجعل يقول : عند قبر جعفر بالعرنق .. ورأيت القبر ؟

- نعم يا امير المؤمنين ووضعت يدي على جثة جعفر رحمه الله .

فأخفى خزيمة وجهه بيديه كي لا يرى المنصور دموعه ، وساد المجلس صمت رهيب كان قلب المنصور في خلاله يقطر دماً .

وكان امامه وعاء من نحاس ، فجعل يضربه بعصاه وينادي : يا ربيع ، يا ربيع ، فأقبل كبير حجابه ، فقال له : أبان بن صدقة ..

فانثنى الربيع وهو يقول في نفسه : اقسم اني لم أر وجه المنصور يوماً كما رأيته الآن .

وما هي غير لحظة حتى وقف ابن صدقة بين يديه ، ففاجأه قائلاً : ماذا صنع ابو ايوب بعد ذهاب جعفر الى الموصل ؟

- اختلى بأخيه خالد في مخدع له ولم اسمع ما قيل ..

- ولم يخرج احد من غلمانه في أثر جعفر ؟

- لم أر احداً ، غير ان عبده ربيعة لا وجود له .

فأخذ يستعرض الامر بهدوء وصبر يليقان بالملوك ثم قال : لقد جاء دور ابي ايوب الآن .. قم أنت فانصرف يا ابن صدقة واعلم ان جعفراً قد قتل ..

وغص بالبكاء دون أن يذرف الدموع .

وجاء ابو ايوب والذعر يملأ قلبه ، فلما دخل ، هش له المنصور واستدناه .. وكانت احدى يديه على صدره فقد أحس ان النار تستعر في ذلك الصدر .

ثم جعل يتفرس فيه وهو يقول : ابا ايوب.. ارسلنا كاتبك جعفراً الى الموصل ولم يعد فما رأيك ؟

قال : لعل له عذراً يا امير المؤمنين .

- اجل له عذر فهو غير قادر على الرجوع ..

- وكيف ذلك ؟

- معنى ذلك ان الاموات لا يقومون ..

فتمتم قائلاً : وهل مات جعفر ؟

- لم يمت حتف انفه ولكنه طعن بخنجر وقد عرفنا قاتله .

– من هو يا امير المؤمنين ؟
– رجل نريد ان تقبض عليه أنت لنسأله سؤالاً واحداً ليس غير .
– اذا اراد امير المؤمنين فليذكر اسمه .
– عبدك ربيعة ..
- ربيعة .. وفعلها هذا اللعين .. ويل للقاتل ..
- ويل للقاتل .. قل للربيع أن يدعوه ..
– لقد رحل ربيعة يا امير المؤمنين على أن لا يعود .
- اي انك أعتقته فأمسى حراً ..
– نعم !
– ولكن قيل لنا انك قتلته .
فاضطرب ، ووقفت الالفاظ عند شفتيه .
فقال المنصور : يا وزيرنا العزيز .. اعترف ..
بماذا يا مولانا ؟
- بانك وجهت ربيعة ليقتل جعفراً .
– بل أعترف بأني بريء ..
- وفي اي شيء استحق ربيعة حريته ؟
– في هذا الزمان الطويل الذي قضاه في خدمتي وقد عتقته لوجه الله .
– ويعرف ذلك اخوك خالد وبنو اخيك ؟
– نعم !
قال : يا غلام ادع خالداً .

فلما دخل خالد لم يأذن له في الجلوس بل قال : أتعرف اي ارض طوت ربيعة د اخيك ابي ايوب ؟

فجعل ينظر الى اخيه يستوحي الجواب ، ثم قال : لا اعلم عن الرجل شيئاً مير المؤمنين .

– قيل لنا ان اخاك قد عتقه واخوك ينكر ذلك .

– لم يعتقه يا امير المؤمنين .

فابتسم ابتسامة مروعة وقال لابي ابوب : لقد ظهرت أكاذيبك أيها الوزير الامين .. يا ربيع ، سلم وزيرنا واخاه خالداً الى صاحب الشرطة ، ومره بأن يقبض على بني خالد لا يترك واحداً منهم ويضعهم في السجن .. قم ايها الشيخ القاتل وانصرف الى سجنك مع اخيك الخائن ولا تقل كلمة ..

فكاد المسكين يسقط على الارض ثم جعل يقول : أغفر لي يا امير المؤمنين .

فأومأ المنصور الى الربيع بأن يقوم بما امره به ، وحول وجهه عن القوم عندئذ يكفكف دموعه ..

اما خزيمة فقد فضحه دمعه وكانيهم بالذهاب، فاستوقفه الخليفة قائلاً : لقينا جعفراً ثم لم نلبث حتى خسرناه .. ذلك قضاء الله .. ولكن عاتكة التي وعدناك بأن نزفها الى جعفر سنزفها الى جعفر .

فخيل الى خزيمة ان الخليفة قد جن فقال : تزفها الى جعفر يا امير المؤمنين .

– اجل ، الى جعفر الاصغر فنحن نخطبها اليك .

فمسح دموعه وقال : ولكنها ستموت .

– بل تعيش .. ذلك ما يريده امير المؤمنين والبكاء لا خير فيه ..

وكان ذلك في السنة الثالثة والخمسين ، بعد المئة .

* * *

لم اكن اعلم عندما أحببت جعفراً ، انه ابن امير المؤمنين ... بل احببته يا ابي لأنه جعفر ، وانا لا اريد أن اتزوج بعده .

– غير ان المنصور خطبك لجعفر الاصغر والويل لنا جميعاً اذا رددناه .. فكري في الامر يا بنية ولا تخذلي اباك .

وكانت اروى تشاركها في البكاء ، ولكنها قالت : هذا هو الرأي يا عاتكة ، وهذا هو جعفر آخر يرسله اليك الله عز وجل .

قالت : سأفعل ما تريدان ، وانا مكرهة ..

وخنقها الدمع .

فهامس خزيمة زوجته قائلا : سيشفيها الزمان من دائها ان شاء الله .

وجعلا يعللانها بالامل وخزيمة يقول : ليس لك الا الصبر يا عاتكة ريثما يرى امير المؤمنين رأيه في الزواج ..

* * *

في السنة الرابعة والخمسين ، زفت عاتكة الى جعفر الاصغر ابن المنصور ، وجعفر الاصغر يرى ان زوجته تحترمه ولا تحبه . ولكنه كان يرى في الوقت نفسه ، انها اهل للاقامة بالبيت المالك .

ذلك لان خلقها الكريم كان يحجب لوعتها ، وابتسامتها المغتصبة كانت تغطي كآبتها التي ليس لها حد .

وهي مع الوصائف واهل القصر ، زهرة فواحة وملك كريم .

وقد مهرها القضاء ، بموت أبي ايوب واخيه خالد ، في ذلك العام ، ثم مهرها المنصور بقطع ايدي وارجل أبناء خالد ، وانه لمهر فظيع لم ير المزوجون اغرب منه ...

على ان المرأة التي تبكي غرامها في نهارها وليلها ، والتي تندب حبيبها الذي غدر به وهو يهم بالزواج ، ان هذه المرأة لا تعيش ، وكيف تعيش وهي تمشي بخطى واسعة الى الموت ؟!

اجل عاشت عاتكة بين الاسرة المالكة اربع سنين ، ثم ماتت في السنة الثامنة والخمسين بعد المئة ، وهي السنة التي مات فيها الخليفة العظيم ابو جعفر المنصور .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والاسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن
١٠
ل.ل.